فهرست الجزء الثاني من كشف الاسرار النورانية القرآنية

صحيفه

صحيفه

السؤال

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفه

القول

صحيفه

صحيفه

واما

صحيفه

صحيفه	

صحيفه

صحيفه

فى

صحيفه

صحيفه

الخامس

صحيفه

صحيفه

شئ

صحيفه

صحيفه

المسئلة

صحيفه

صحيفه

فى

صحيفه

صحيفه

فى

صحيفه

﴿تم فهرست الجزء الثاني﴾

الجزء الثاني من كشف الاسرار النورانية القرآنيه فيما يتعلق
بالاجرام السماوية والارضية والحيوانات والنباتات والجواهر
المعدنيه للامام الفاضل والهمام الكامل البارع
في الطب الروحاني والجسماني المولى الشهير
نزيل دمشق الشام محمد بن أحمد
الاسكندراني أطال الله
حياته ونفع به
المسلمين
آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

حمد المن دحا الارض وأحصى أهلها عددا ورفع السماء ولم يجعل لها أوتادا ولا عمدا وأجرى البحار وأفاض الانهار وفتح المسالك للسالك وفتح الممالك للملوك وهو أعظم ملك ومالك وأمد الارض بسكانها وشيدها فى جميع نواحيها وأركانها ونوّع أعلامها وعوالمها وفنن أحكامها ومحاكمها فصارت لاهل الوحى من عالم الشهادة لا الغيب وماقاله فيها من عداهم من أرباب السياحة والرياضيين بمثل قوانين الهيئة والطبيعة والمساحة فمن قبيل الافك والريب* والصلاة والسلام على من الى حرمه تشدّ الرحال والى الحوض فى بوادى واديه تهيم كرائم النوق بكرام الرجال وعلى آله وصحبه الذين بذلوا نفوسهم فى طاعته ونصروه فى هجرته فكان لهم به الفتح المبين وبلوغ الآمال ولازال ببركته صلى الله عليه وسلم وببركة آله وأصحابه وأتباعه فى ولاة أمته من خصه الله سبحانه وتعالى بتجديد الدين القويم مع العز والسعد وأمدّه بجميل أوصاف تجلّ عن الحد والعدّ (فأحببت) أن أقتدى بهؤلاء السادة الكرام لتشملنى بركاتهم وامداداتهم على الدوام وبادرت بحل معانى بعض آيات قرآنية تتعلق بكيفية خلق أجرام السموات والارض وأرجو أن تكون ذخرا لى يوم الحشر والعرض وهذا أوان الشروع فى المقصود بعون الله الملك المعبود فأقول

(الباب الثانى فى كيفية خلق السموات والارض وفيه مقالات)

(المقالة الأولى)

في قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) وفيه مسائل

(المسئلة الأولى فيما يتعلق بالحمد قوله الحمد لله تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أولا باسم الذات الذي يدور عليه كافة ما يوجبه من صفات الكمال واليه يؤل جميع نعوت الجلال والجمال للايذان بأنه عز وجل هو المستحق له بذاته ووصفه ووصفه تعالى ثانيا بما ينبئ عن تفصيل بعض موجباته المنتظمة في سلك الاجمال من عظائم الآثار وجلائل الافعال من قوله عز وجل الذي خلق السموات والارض للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلاله به باعتبار أفعاله العظام وآياته الجسام وتخصيص خلقهما بالذكر لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية وعامة الآلاء الجلية والخفية التي أجلها نعمة الوجود الكافية في ايجاب حمده تعالى على كل موجود ومأمول ومقصود اذا علمت هذا فنقول (اعلم) أن الله سبحانه وتعالى خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق السموات والارض وفتق ما بينهما

(المسئلة الثانية) فان قيل لم قدم ذكر السماء على الارض مع أن ظاهر التنزيل يدل على أن خلق الارض مقدم على خلق السماء فالجواب أن السماء كالدائرة والارض كالمركز وحصول الدائرة يوجب تعيين المركز ولا ينعكس فان حصول المركز لا يوجب تعيين الدائرة لامكان أن يحيط بالمركز الواحد دوائر لا نهاية لها فلذلك اكتسبت الارض الجذب العام الفلكي فمن هذا التأثير انقادت الى القوانين المؤثرة في بقية الاجزاء المركبة لها فلما كانت السماء متقدمة على الارض بهذا الاعتبار وجب تقديم ذكر السماء على الارض بهذا الاعتبار

(المسئلة الثالثة) فان قيل لم ذكر السماء بصيغة الجمع والارض بصيغة الافراد مع أن الارضين أيضا كثيرة يدل عليه قوله تعالى ومن الارض مثلهن فالجواب أن السماء جارية مجرى الفاعل والارض مجرى القابل فلو كانت السماء واحدة لتشابه الاثر وذلك يخل بمصالح هذا العالم فلما كانت كثيرة اختلفت الاتصالات الكوكبية فحصل بسببها المد والجزر وتقسمها في خط الاستواء وتقرطحها في القطبين وسائر الاحوال المختلفة وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم أما الارض فهي قابلة للاثر والقابل الواحد كاف في القبول وحينئذ فكرة الارض مكونة من طبقات ذات مركز واحد مؤلفة من مواد مختلفة تأخذ كثافتها في التزايد من الدائرة الى المركز

(المسئلة الرابعة) اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر الدلالة على وجود الصانع* وتقريره أن أجرام السموات والارض تقدرت في أمور مخصوصة بمقادير مخصوصة وذلك لا يمكن حصوله الا بتخصيص الفاعل المختار* أما بيان المقام الاول فمن وجوه (الاول) أن كل فلك مخصوص اختص بمقدار معين مع جواز أن يكون الذي كان حاصلا لا مقدارا أزيد منه أو أنقص منه (والثاني) أن كل فلك مقدر بمقدار مركب من أجزاء والجزء الداخل كان يمكن وقوعه خارجا وبالعكس فوقوع كل واحد منهما في حيزه الخاص أمر جائز (والثالث) أن الحركة والسكون

جائزان على كل الاجسام بدليل أن الطبيعة الجسمية واحدة ولوازم الامور الواحدة واحدة فاذا صح السكون والحركة على بعض الاجسام وجب أن يصحا على كلها فاختصاص الجسم بالحركة دون السكون اختصاص بأمر ممكن (والرابع) أن كل حركة فانه يمكن وقوعها أسرع مما وقع وأبطأ مما وقع فاختصاص تلك الحركة المعينة بذلك القدر المعين من السرعة والبطء اختصاص بأمر ممكن (والخامس) أن كل حركة وقعت متوجهة الى جهة فانه يمكن وقوعها متوجهة الى سائر الجهات فاختصاصها بالوقوع على ذلك الوجه الخاص اختصاص بأمر ممكن (والسادس) أن كل فلك فانه يوجد جسم آخر اما أعلى منه واما أسفل منه وقد كان وقوعه على خلاف ذلك الترتيب أمرا ممكنا بدليل أن الاجسام لما كانت متساوية في الطبيعة الجسمية فكل ما صح على بعضها صح على كلها فكان اختصاصه بذلك الحيز والترتيب أمرا ممكنا (والسابع) هو أن الحركة كل جسم أولا لأن وجود حركة لا أول لها محال لان حقيقة الحركة انتقال من حالة الى حالة وهذا الانتقال يقتضي كونها مسبوقة بالغير والاول ينافي المسبوقية بالغير والجمع بينهما محال فثبت أن لكل حركة أولا واختصاص ابتداء حدوثه بذلك الوقت دون ما قبله وما بعده اختصاص بأمر ممكن (والثامن) هو أن الاجسام لما كانت متساوية في تمام الماهية كان اتصاف بعضها بالفلكية وبعضها بالعنصرية دون العكس اختصاصا بأمر ممكن (والتاسع) هو أن حركاتها فعل لفاعل مختار ومتى كان كذلك فلها أول * بيان المقام الاول أن المؤثر فيها لو كان علة موجبة بالذات لزم من دوام تلك العلة دوام آثارها فيلزم من دوام تلك العلة دوام كل واحد من الاجزاء المتقدمة في هذه الحركة ولما كان ذلك محالا ثبت أن المؤثر فيها ليس علة موجبة بالذات بل فاعلا مختارا واذا كان كذلك وجب كون ذلك الفاعل المختار متقدما على هذه الحركات وذلك يوجب أن يكون لها بداية (والعاشر) أنه ثبت بالدليل أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له بدليل أنا نعلم بالضرورة أنا لو فرضنا أنفسنا واقفين عند أول الفراغ الذي لا نهاية له لميزنا بين الجهة التي تلي قدامنا وبين الجهة التي خلفنا وثبوت هذا الامتياز معلوم بالضرورة واذا كان كذلك ثبت أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له واذا كان كذلك فحصول هذا العالم في هذا الحيز الذي حصل فيه دون سائر الاحياز أمر ممكن فثبت بهذه العشرة المذكورة أن أجرام السموات والارضين مختلفة

(المسئلة الخامسة في بيان منافع السموات) اعلم أن منافع السموات أكثر من أن تحيط بجزء من أجزائها المجلدات وذلك لان السموات بالنسبة الى مواليد هذا العالم جارية مجرى الاب والارض بالنسبة اليها جارية مجرى الام فالعلل الفاعلة سماوية والعلل القابلة أرضية وبها يتم أمر المواليد الثلاثة والاستقصاء في شرح ذلك وبسطه لا سبيل اليه * وأما قوله تعالى وجعل الظلمات والنور ففيه مسائل

(المسئلة الاولى) لفظ جعل يتعدى الى مفعول واحد اذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور والى مفعولين كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا * والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير وفي الجعل معنى التضمين

قوله أن كل فلك الخ كذا بالاصل وفيه ما لا يخفى اهـ

والتصيير

والتصيير كانشاء شئ من شئ وتصيير شئ شيأ ومنه قوله تعالى وجعل منها زوجها وقوله تعالى وجعلنا لكم أزواجا وقوله تعالى أجعل الآلهة الها واحدا وانما حسن لفظ الجعل ههنا لان النور والظلمة تعاقبا حتى صارا كأن كل واحد منهما انما تولد من الآخر

﴿المسئلة الثانية﴾ فى لفظ الظلمات والنور قولان (الاول) أن المراد منهما الامران المحسوسان بحس البصر والذى يقوى ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما وأيضا هذان الامران اذا جعلا مقرونين بذكر السموات والارض فانه لا يفهم منهما الا هاتان الكيفيتان المحسوستان (والثانى) نقل الزمخشرى عن كعب الاحبار أنه قال وجعل الظلمات والنور أى كقوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ (اعلم) أنه سبحانه وتعالى خلق جوهرة ونظر اليها بعين الهيبة فسالت سيلا ناشفا فكانت منه الارض فتراءى كالسراب فضرب الله به مثلا بين المؤمن والكافر والقيعة البقعة التى اختارها الله تعالى لها والكناية للسراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة الموجودة فى جو السراب كأنه ضباب وهباء فكان السراب ما كان محيطا من الفراغ وما كان من الضباب والهباء كان السائل فبعد مكثه الزمن الذى أراده الله تعالى صار ماء كبحر مظلم لجى كقوله تعالى أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها فذكر تعالى ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب فأول ما تصاعد بخارا لارتفاع الحرارة ثم تكاثف سحابا فسقط مطرا وهكذا حتى تكونت الارض بارادته

﴿المسئلة الثالثة﴾ انما قدم ذكر الظلمات على ذكر النور لاجل أن الظلمة عبارة عن عدم النور على الجسم الذى من شأنه قبول النور وليست عبارة عن كيفية وجودية مضادة للنور والدليل عليه أنه اذا جلس انسان بقرب السراج وجلس انسان آخر بالبعد منه فان البعيد يرى القريب ويرى ذلك الهواء صافيا مضيأ وأما القريب فانه لا يرى البعيد ويرى ذلك الهواء مظلما فلو كانت الظلمة كيفية وجودية لكانت حاصلة بالنسبة الى هذين الشخصين المذكورين وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا أن الظلمة ليست كيفية وجودية واذا ثبت هذا فنقول عدم المحدثات متقدم على وجودها فى الظلمة وهى متقدمة فى التقدير والتحقق على النور فوجب تقديمها فى اللفظ ومما يقوى ذلك ما روى فى الاخبار الالهية أنه تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل * وقوله تعالى (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا) اعلم أنه تعالى ذكر فى هذه الآية من الدلائل الدالة على وجود الصانع أنواعا وكلها ترجع الى الاستدلال بحال الظل النوع الاول فى زيادته والثانى فى نقصانه والثالث فى تغيره من حال الى حال وفيه مسائل

﴿المسئلة الاولى﴾ فى قوله ألم تر وجهان (الاول) أنه من رؤية العين (الثانى) أنه من رؤية القلب يعنى العلم فان حملناه على رؤية العين فالمعنى ألم تر الى الظل كيف مده ربك وان كان

قوله نقل الزمخشرى الخ قد اطلعنا على الكشاف فلم نجد فيه هذه العبارة ولعلها فى كتاب آخر له اه

تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وان حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل اذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى فى تمديده غير مرئى بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث ان كل متغير جائز وكل جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه

(المسئلة الثانية) المخاطب بهذا الخطاب وان كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ لكن الخطاب عام فى المعنى لان المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل وجميع المكلفين مشتركون فى وجوب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال على وجود الصانع

(المسئلة الثالثة) ان الناس أكثروا فى تأويل هذه الآية والكلام المخلص يرجع الى وجهين (الوجه الاول) أن الظل هو الامر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل الاسقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس وان الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيده السخونة القوية وهى مؤذية فاذا أطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال تعالى وظل ممدود واذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه وتعالى بين أنه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة * ثم ان الناظر الى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيأ سوى الجسم وسوى اللون فنقول الظل ليس أمرا ثابتا ولا يعرف به الا أنه اذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم حصل ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الاجرام لما عرف أن للظل وجودا وماهية لان الاشياء انما تعرف بأضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه سبحانه وتعالى لما بدأ بخلق الارض كانت الكتلة المصورة للارض ثلاث طبقات فالاولى كانت سائلا ثقيلا كثيفا معتما والثانية دخانا أسود والثالثة أى العليا كانت بخارا كبخار الماء فلما تكون الجزء الجامد خفت الظلمة فخلق الله سبحانه وتعالى الكواكب والشمس والقمر ووقع الظل على الارض ثم انه سبحانه وتعالى خلق الشمس دليلا عليه (الوجه الثانى) ان الله سبحانه وتعالى لما أطلع الشمس على الارض وزال الظل فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون * فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أى خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع واللذات ثم انا هدينا العقول الى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة فلذلك قال تعالى بعده ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا أى أزلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فانه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل فى جانب المغرب * ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا كان زوال الاظلال كذلك لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا ولان قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه أنواع مصالح العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام

(المسئلة الرابعة) هو أنه سبحانه وتعالى لما خلق الارض والسماء وقع الظل على الارض

كما قلنا ثم خلق الشمس دليلا عليه وذلك لانه بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر وكما أن المهتدى يهتدى بالهادى والدليل ويلازمه فكذا الاظلال كأنها مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها * وأما قوله ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا فاما أن يكون المراد منه انتهاء الاظلال يسيرا يسيرا الى غاية نقصانها كما تقدم فسمى ازالة الاظلال قبضا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهي الاجرام التى تلقى الاظلال وقوله يسيرا هو كقوله ذلك حشر علينا يسير

﴿المسئلة الخامسة﴾ وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للاحياء والعقلاء وأما حصول الضوء الخالص أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع فحصول ذلك الظل اما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات والاول باطل والا لما تطرق التغير اليه لان الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات فلابد له فى وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع وماذاك الا من يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالى فان قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما من شأنه أن يضيء فكيف استدل بالأمر العدمى على ذاته وكيف عده من النعم قلنا الظل ليس عدما محضا بل أضواء مخلوطة بظلم * والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثانى وهو أمر وجودى وفى تحقيقه وبسطه كلام دقيق فى عالم الخيال والله الموفق ذو الاكرام والجلال

﴿مسئلة مهمة﴾

فى قوله تعالى (أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله أولم يروا الى ما خلق الله من شئ لما كانت الرؤية ههنا بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد به الاعتبار والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية حتى يكون معها نظر الى الشئ وتأمل لاحواله * وقوله الى ما خلق الله من شئ قال أهل المعانى أراد من شئ له ظل من فلك وجبل وشجر وبناء وجسم قائم ولفظ الآية يشعر بهذا القيد لان قوله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل يدل على أن ذلك الشئ كثيف يقع له ظل على الارض * وقوله يتفيأ ظلاله اخبار عن قوله شئ وليس بوصف له وتفيأ يتفعل من الفيء يقال فاء الظل يفيء فيأ اذا رجع وعاد بعد ما نسخه ضياء الشمس وأصل الفيء الرجوع ومنه فيء المولى وكذلك فيء المسلمين لما يعود اليهم من مال من خالف دينهم ومنه قوله تعالى ما أفاء الله على رسوله منهم وأصل هذا كله من الرجوع اذا عرفت هذا فنقول اذا عدى فاء فانه يعدى اما بزيادة الهمزة أو بتضعيف العين أما التعدية بزيادة الهمزة فكقوله ما أفاء الله على رسوله وأما بتضعيف العين فكقولك فيأ الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ قال الازهرى تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشى بعد ما انصرفت عنه الشمس والظل ما يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس كما قال

الشاعر

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه * ولا الفيء من بعد العشي تذوق

قال ثعلب أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل ومنهم من أنكر ذلك فان أبا زيد أنشد للنابغة الجعدي

فسلام الاله يغدو عليهم * وفيوء الغروس ذات الظلال

فهذا يشعر بأنه قد أوقع فيه لفظ الفيء على مالم تنسخه الشمس لان ما في الجنة من الظل ما حصل بعد أن كان زائلا بسبب نور الشمس وتقول العرب في جمع فيء أفياء وهي للعدد القليل وفيوء للكثير كالنفوس والعيون * وقوله ظلاله أضاف الظلال الى مفرد ومعناه الاضافة الى ذوي الظلال وانما حسن هذا لان الذي عاد اليه الضمير وان كان واحدا في اللفظ وهو قوله الى ما خلق الله الا أنه كثير في المعنى ونظيره قوله تعالى لتستووا على ظهوره فأضاف الظهور وهو جمع الى ضمير مفرد لانه يعود الى واحد أريد به الكثرة وهو قوله ما تركبون هذا كله كلام الواحدي وهو بحث حسن * أما قوله عن اليمين والشمائل ففيه بحثان (الاول) في المراد باليمين والشمائل قولان * الاول أن يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب والسبب في تخصيص هذين الاسمين بهذين الجانبين أن أقوى جانبي الانسان يمينه ومنه تظهر الحركة القوية فلما كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق الى المغرب لاجرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله اذا عرفت هذا فنقول ان الشمس والقمر وسائر الكواكب تخرج كل يوم فوق الافق جهة المغرب بعد أن يرسم كل منها قوسا في عمره ولا تصدر هذه الحادثة العجيبة الا عن أحد شيئين اما عن دوران سائر الفلك في أربع وعشرين ساعة أو عن دوران الارض في هذه المدة كما قلنا آنفا ان ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر فمن كان واقفا وأمامه الى الشمال يرى أولا الشمس عن يمينه قريبة من الافق فاذا دارت ربع دورانها رأى الشمس فوق رأسه فان تحولت في الدوران بنصفها بتمامه رأى الشمس عن يساره قريبة في جهة الافق فاذا تحولت بالنصف الآخر اختفت عنه الشمس بكليتها ما دام هذا النصف في التحول ونظير الشمس غيرها من الافلاك فالشمس عند طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الاظلال الى الجانب الغربي فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربي وقع الاظلال في الجانب الشرقي فهذا هو المراد من تفيؤ الظلال عن اليمين الى الشمال وبالعكس وعلى هذا التقدير فالاظلال في أول النهار تبتدئ من يمين الفلك على الربع الغربي من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدئ الاظلال من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الارض (القول الثاني) اذا وقف شخص وجعل أمامه الى أفق المشرق فكان يمينه نحو الجنوب وشماله القطب الشمالي وذلك أن وسط فلك البروج هي دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف وهذه الدائرة تمتد الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف عن دائرة الاستواء وهاتان الدائرتان تسميان المدارين وهما يدلان على موضع الشمس الذي تنتهي اليه في الصعود ثم تهبط الى مثل محلها

الذي

الذى صعدت منه وأما الدائرتان القطبيتان فهما على البعد من القطب بثلاث وعشرين درجة ونصف وهما يكون عليهما النهار الدائم والليل الدائم مدة كون الشمس فى نقطتى الانقلابين فهذا هو المراد من انتقال الاظلال عن الايمان الى الشمائل وبالعكس

﴿البحث الثانى﴾ انا اذا فسرنا اليمين بالمشرق كانت النقطة التى هى مشرق الشمس واحدة بعينها فكانت اليمين واحدة وأما الشمائل فهى عبارة عن الانحرافات الواقعة فى الاظلال بعد وقوعها على الارض وهى كثيرة فلذلك عبر الله تعالى عنها بصيغة الجمع فاذا علمت هذا فنقول اذا رسم خط الزوال وخط الاستواء على مستو وحصل من ذلك تقاطع صليبى أطرافه الاربعة تسمى النقط الاربع الاصلية للعالم فالنقطة الموضوعة جهة القطب الشمالى تسمى الشمال والتى جهة القطب الجنوبى تسمى الجنوب والتى جهة طلوع الكواكب تسمى المشرق والتى جهة مغيبها تسمى المغرب فاذا الارض انقسمت أرباعا فجميع دوائر هذه الكرة تستعمل لقياس الارض منها دوائر موازية لدائرة الاستواء وتمر بالقطبين وتقسم الكرة الى ثلاثمائة وستين جزأ متساوية ومن تقاطع هذه الدوائر تتكون أسطحة صغيرة مربعة تسمى درجات أو مربعات فيوجد منها بين خط الاستواء وكل من القطبين تسعون درجة وبين نصف دائرة الزوال ونصفها الآخر مائة وثمانون درجة وربما سمى أحد نصفى دائرة الزوال بالزوال النهارى والثانى بالزوال الليلى وجعل تعالى من خط الاستواء الى القطب الشمالى زيادة فى العمائر فاذا قد تبين من انقسام الارض أن أظلال الشمائل كثيرة

﴿المسئلة الثانية﴾ انه تعالى دبر النيرات الفلكية والاشخاص الكوكبية بحيث تقع أضواؤها على هذا العالم على وجوه مخصوصة (منها) أن الكرة الارضية محاطة من جميع جهاتها بجسم شفاف خليط من جواهر مختلفة تختلط ببعضها وتحلل فتنتشر بها الكائنات التى صعدتها أولا لكن بهيئة أخرى وشكل جديد وهذه الكرة الهوائية ليست قوية الكثافة حتى تمنع انكسار الاضواء وهذه الكرة الجوية لها أظلال متداخلة فى الاضواء فلهذا لم يوجد فى الكون خلو مطلق فيما وراء ذلك فلابد وأن يكون الهواء متخلخلا وهذا التخلخل يأخذ فى الزيادة حتى يصل الى الحمل الذى تنتهى اليه قوة الجذب فاذا ليس هنالك خلاء تام فيما بين الافلاك فلذلك هنالك أظلال متداخلة فتتمايل على حسب تحرك الافلاك (ومنها) أنا نشاهد أن تلك الاضواء وأظلالها لا تقع فى هذا العالم الا على وفق تدبيره تعالى فنشاهد أن الشمس اذا طلعت وقعت للاجسام الكثيفة أظلال ممتدة فى الجانب الغربى من الارض ثم كلما ازدادت الشمس طلوعا وارتفاعا ازدادت تلك الاظلال تقلصا وانتفاخا الى الجانب الشرقى الى أن تصل الشمس الى وسط الفلك فاذا انحدرت الى الجانب الغربى ابتدأت الاظلال بالوقوع فى الجانب الشرقى وكلما ازدادت الشمس انحدارا ازدادت الاظلال تمددا وتزايدا فى الجانب الشرقى وكما نشاهد هذه الحالة فى اليوم الواحد فكذلك نشاهد أحوال الاظلال مختلفة فى التيامن والتياسر فى طول السنة بسبب اختلاف أحوال ضوء الشمس فى الحركة من الجنوب الى الشمال وبالعكس فلما شاهدنا أحوال هذه الاظلال مختلفة بسبب

الاختلافات اليومية الواقعة في شروق الارض وغروبها وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة في يمين الفلك ويساره ورأينا أنها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين علمنا أنها منقادة لقدرة الله تعالى

(المسئلة الثالثة) فان قيل لم لا يجوز أن يقال اختلاف حال الظلال معلل باختلاف سير النير الأعظم لا لأجل تقدير الله تعالى قلنا قد دللنا على أن الجسم لا يكون متحركا لذاته اذلو كانت ذاته علة لهذا الجزء المخصوص من الحركة لبقي هذا الجزء من الحركة لبقاء ذاته ولو بقي ذلك الجزء من الحركة لامتنع حصول الجزء الآخر من الحركة ولو كان الأمر كذلك لكان هذا سكونا لا حركة فالقول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب القول بكونه ساكنا لذاته وهو محال وما أدى ثبوته الى نفيه كان باطلا فعلمنا أن الجسم يمتنع كونه متحركا لذاته ولذلك ان الاجسام تثقل ويجذب بعضها بعضا على طريقة النسبة المطردة للكتل والنسب المتعاكسة لمربع المسافات اذلو فرضنا زوال التثاقل العمومي من الجو فانه يتشتت في الفضاء وتتصاعد مياه الارض ولا يحصل بين أجزاء الاجرام الصلبة وبعضها التصاق ولا تماسك وجميع الاشياء ينخرم انتظامها وتختلط ببعضها فيرجع العالم الى اختلاله الاصلي حتى تتعلق القدرة الالهية بخلق عالم جديد فتصنع مراكز تثاقل جديدة تجذب المواد اليها وتحفظ حواليها على مقتضى نواميس الميل الغير القابلة للتغير لكن الحكمة الالهية اقتضت الآن حفظ الاشياء وضبطها في مواضعها الشاغلة هي لها بموجب قوة مجهولة ذاتها الا فعلها تسمى بالجذب

(مسئلة مهمة)

في قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) قوله أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ومن حق الماء أن يستقر في الاودية المنخفضة في الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الاودية وصغرها ومن حق الماء اذا زاد على قدر الاودية أن ينبسط على الارض ومن حق الزبد الذي يحمله الماء فيطفو ويربو عليه أن يتبدد في الاطراف ويبطل سواء كان ذلك الزبد مما يجري مجرى الغليان من بياض الاقمشة أو مما يخلط بالماء من الاجسام الخفيفة ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر الا عند اشتداد غليان الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر الا عند غليان المعادن فعلى هذا القول قال السهروردي يسمى الماء واديا اذا سال ومنه سمي الودي وديا لخروجه وسيلانه فعلى هذا القول فالوادي اسم للماء السائل كالسيل فقوله تعالى أنزل من السماء ماء فكان أول ما نزل وكانت منه الارض * وأما قوله تعالى بقدرها ففيه بحثان (الاول) قال الواحدي القدر والقدر مبلغ الشيء يقال كم قدر هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها أي كم تبلغ في الوزن فما يكون مساويا لها في الوزن فهو قدرها (الثاني) سالت أودية بقدرها أي من الماء على قدر السعة التي أرادها الله تعالى لها * وأما قوله فاحتمل السيل زبدا رابيا ففيه بحثان (الاول) قال الفراء يقال أزبد الوادي ازبادا والزبد الاسم

(وقوله رابيا) أى طافيا فوق الماء من غليانه (الثانى) قال كعب الاحبار ان الله خلق جوهرة ونظر اليها بعين الهيبة فسالت سيلا ناشفا فامتوعا فنظر الله اليه فسال سيلا ناما ثنيا فازبد ازبادا طافيا * وأما قوله تعالى ومما توقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله (فاعلم) أنه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء الذى تكوّنت منه كرة الارض ومنها الفلزات أى المعادن أتبعه بضرب المثل بالزبد الحاصل من النار أى خلقت لكم الارض التى كانت دخانا ثم ماء مبيضا باضا نا ربا فجعلت لأجلكم منها كل شئ ومنه الفلزات أى المعادن وفيها وجهان (الاول) أنه خطاب للمذكورين فى قوله قل أفاتخذتم من دونه أولياء (والثانى) أنه يجوز أن يكون خطابا عاما مرادا به الكافة كأنه قال ومما توقدون عليه فى النار أيها الموقدون

(فى بيان تقسيم النار الى قسمين)

أقول النار على قسمين سائلة وغير سائلة * بيان الاولى التى تركبت منها الكرة وهو السائل النارى المائى أى الماء المبيض بالنار بعد الاحمرار المؤثر على الاجرام المذابة فيه بقوة مساوية لقوته الانبساطية ولا يمكننا حسبان تلك القوة * وبيان الثانية ما توقد على المعادن ابتغاء الحلية كالموقدة على الذهب والفضة أو ابتغاء المتاع كالموقدة على الحديد والنحاس والرصاص وغيرها وقوله زبد مثله أى زبد مثل زبد الماء الذى يحمله السيل * ثم قال تعالى كذلك يضرب الله الحق والباطل والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل ثم قال فأما الزبد فيذهب جفاء أى دخانا يختلط بالجو ويتحد ويتحلل فتنتشر ثانيا الكائنات التى صعدتها أولا لكن بهيئة أخرى وشكل جديد * ثم قال تعالى وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض والمعنى أن الزبد قد يعلو على وجه الماء ويربو وينتفخ الا أنه فى الآخرة يضمحل وتبقى الجواهر الصافية من الماء كالمعادن وغيرها فى الارض فكذلك الشبهات والخيالات تقوى وتعظم الا أنها فى الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق ظاهرا لا يشوبه شئ من الشبهات (فان قيل) هل يعلم قدر المدة التى تصير فيها الارض كاملة التكوين قلت لا يعلم ذلك كما قال تعالى ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب (اعلم) أن الاجسام ثلاثة أجناس أحدها السموات وثانيها الارض وثالثها ما بينهما وقد خلق أعيانها فى ستة أيام اشارة الى ستة أطوار والذى يدل عليه ويقرره هو أن المراد من الايام لا يمكن أن يكون هو المفهوم فى وضع اللغة لان اليوم عبارة فى اللغة عن أزمان مكث الشمس فوق الارض من الطلوع الى الغروب وقبل خلق السموات والارض لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت يقال يوم يولد للملك ابن يكون سرور عظيم ويوم يموت فلان يكون حزن شديد وان اتفقت الولادة والموت ليلا ولا يتعين ذلك ويدخل فى مراد القائل الا أنه أراد باليوم مجرد الحين والوقت اذا عملت الحال من اضافة اليوم الى الافعال فافهمها عند اطلاق اليوم فى قوله ستة أيام (واعلم) أن الايام قد كانت متساوية غير مختلفة كما قال تعالى قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى

من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) ففي قوله تعالى في أربعة أيام سواء بيان كونها متساوية غير مختلفة * ثم ان قوله تعالى خلق الارض وقوله تعالى وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام فيه اشارة الى الازمان الاربعة (أولها) الزمن الذي تحولت فيه الارض من السيولة الى الجمودة (ثانيها) الزمن الذي تحولت فيه أيضا من الجمودة الى التحجر (ثالثها) زمن التركيب (رابعها) زمن تخلق الاجسام الآتية * وعلى ماذكرنا من أن المراد بالايام الازمان تبين لك من الآية الرد على اليهود حيث قالوا بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الاحد وفرغ منه في ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه فقال تعالى ومامسنا من لغوب ردا عليهم والظاهر أن المراد الرد على المشرك مطلقا والاستدلال بخلق السموات والارض ومابينهما وقوله تعالى ومامسنا من لغوب أي ماتعبنا بالخلق الاول حتى لا نقدر على الاعادة ثانيا والخلق الجديد كما قال تعالى أفعيينا بالخلق الاول وأماماقال اليهود ونقلوه من التوراة فهو اما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله وذلك لان الاحد والاثنين الخ أزمنة متميزة بعضها عن بعض فلو كان خلق السموات ابتدئ يوم الاحد لكان الزمان متحققا قبل الاجسام والزمان لا ينفك عن الاجسام فيكون قبل خلق الاجسام أجسام أخر فيلزم القول بقدم العالم وهذا مذهب الفلاسفة * ومن العجيب أن بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف فان الفلسفي لا يثبت لله تعالى صفة أصلا ويقول بأن الله لا يقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه فعلمه وقدرته وحياته هي حقيقته وعينه وذاته والمشبه يثبت لله تعالى صفة الاجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول فبينهما منافاة ثم ان اليهود في هذا الكلام جمعوا بين المسئلتين فأخذوا بمذهب الفلاسفة في المسئلة التي هي أخص المسائل بهم وهي القدم حيث أثبتوا قبل خلق الاجسام أياما معدودة وأزمنة محدودة وأخذوا بمذهب المشبهة في المسئلة التي هي أخص المسائل بهم وهي الاستواء على العرش فاخطؤا وضلوا في الزمان والمكان جميعا

* في بيان الدليل على قدرته تعالى على اعادة الخلق *

قال تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين) أما قوله كما بدأنا أول خلق نعيده ففيه مسئلتان (الاولى) قال الفراء أول خلق مفعول نعيد الذي يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيها للاعادة بالابتداء * فان قلت ما بال خلق منكرا قلت هو كقولك أول رجل جاء في زيد تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق بمعنى أول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع

* (المسئلة الثانية) * اختلفوا في كيفية الاعادة فمنهم من قال ان الله تعالى يفرق الاجسام ويفرق عناصرها ولا يعدمها ثم انه يعيد تركيبها فذلك هو الاعادة ومنهم من قال انه تعالى يعدمها بالكلية ثم انه يوجدها بعينها مرة أخرى (وأقول) يظهر لك باب الاعادة من قوله تعالى

واذا

واذا البحار سجرت وقد قرئ بالتخفيف والتشديد وفيه وجوه (أحدها) ان أصل الكلمة من سجرت التنور اذا أوقدتها والشئ اذا أوقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة فحينئذ لا يبقى فى البحار شئ من الرطوبات البتة ثم ان الجبال قد سيرت كما قال تعالى وسيرت الجبال وحينئذ فتصير البحار والارض شيأ واحدا فى غاية الحرارة والاحراق كقوله تعالى كما بدأنا أول خلق نعيده وهكذا كانت الكرة فى ابتدائها (وثانيها) سجرت أوقدت قال القفال وهذا التأويل يحتمل وجهين (الاول) أن الله يولد فى الارض أجزاء غير مسجورة لقوام الدنيا فاذا انتهت مدة الدنيا أوصل الله كمال تلك الاجزاء بثوران النيران الى البحار فصارت بالكلية مسجورة بسبب ذلك (الثانى) أن يخلق الله تعالى الاجزاء التى كانت أولا ذات شعل فى جميع الكرة فتتكون وتتكامل شعلها فتأخذ الكرة فى الاشتعال كما كانت أولا * وأقسم الله تعالى بها فى الطور بقوله والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور أى الموقود نارا يقال سجرت التنور أوقدته وهذا البحر المسجور الموجود فى باطن الارض المتموج بنار بيضاء بعد الاحمرار ومن قوله تعالى يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا (اعلم) أن الرجفة معناها الزلزلة والزعزعة الشديدة والكثيب القطعة العظيمة من الرمل أو غيره وجمعه الكثبان وفى كيفية الاشتقاق قولان (أحدهما) أنه من كثب الشئ اذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول (والثانى) قال الليث الكثب نثر التراب والشئ يرمى به والفعل اللازم انكثب ينكثب انكثابا وسمى الكثيب كثيبا لان ترابه دقاق كأنه مكثوب منثور بعضه على بعض لرخاوته * وقوله مهيلا أى سائلا يسيل * واذا عرفت هذا فنقول ان رجفان الارض لزيادة نموها وتمددها حال بساطتها كانت ترجف أى تزلزل لتركيبها ولتكميل تكونها كما قال تعالى * وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم ولما أتم الله تعالى كمالها هدأت وسكنت ثم انه تعالى جعل بعد ذلك الزلزال فى بعض أجزائها وفيه وجهان (الاول) يظهر عند هذا الحادث قطعة كبيرة من باطن الارض كما قال تعالى وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى (الثانى) كما قال تعالى هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ففى البلاد التى تصاب كثيرا بالزلازل كثيرا ما انقلبت وتلفت كلها فى الوقت الذى ظهر فيه هذا الحادث كما قال تعالى فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين فالرجفة هى الزلزلة الشديدة والاضطراب وهذه الاضطرابات قد تكون وقتية أو دورية أو دائمة ومدة أقامتها تختلف كشدتها ففى بعض الاحيان تحصل حركة رهيبة وأحيانا تكون تلك الحركات أرجوحية خفيفة وأحيانا تضطرب الارض كاضطراب أمواج البحار فتشقق الجبال وتسقطها وان بلادا كانت معمورة بسكان أغنياء وكانت خصبة الارض فحصلت فيها زلزلة غيرت معالمها وبددت شماثلها وما مضى عليها بعض زمان الا وأصبحت مفازة قفراء عقيمة لا تنبت شيأ وعند رجفان الارض واضطرابها تارة تنشق ويخرج منها دخان أو نار أو ماء أو رمل وكانت الجبال كثيبا مهيلا

﴿تكملة﴾

لما أتم الله تعالى سيولة الارض دحاها كما قال تعالى والارض بعد ذلك دحاها وفيها مسئلتان (الاولى) دحاها بسطها اى فتداخلت أجزاؤها قال أمية ابن أبي الصلت

دحوت البلاد فسويتها * وأنت على طيها قادر

قال أهل اللغة فى هذه اللفظة دحوت أدحو ودحيت أدحى ومثله صغوت وصغيت ولحوت العود ولحيته وسأيته وسأوته وبأوت عليه وبأيت وقيل أصل الدحو الازالة للشئ من مكان الى مكان ومنه يقال ان الصبي يدحو بالكرة أي يقذفها على وجه الارض وأدحت النعامة موضعها الذى تسكون فيه أى بسطته وأزالت ما فيه من حصى حتى يتمهد وهذا يدل على أن معنى الدحو يرجع الى الازالة والتمهيد

﴿المسئلة الثانية﴾ ان الله تعالى خلق الارض أولا ثم خلق السماء ثانيا ثم دحى الارض ثالثا وذلك لانها كانت متخلخلة فجمعها وبسطها بنبت الجبال والنبات على سطحها ثم لما ثبت أن الله تعالى خلق الارض والسماء وما بينهما ذكروا فى تقرير تلك الازمنة أنه لما خلق الله الارض من الجوهرة وسالت ماء خلق الله السماء ثم دحى الارض بعد ذلك وكانت متخلخلة منتفشة فاجتمعت وتماسكت وانبسطت ليكوّن الله عليها الجبال والنبات ومجرى المياه كما قال تعالى والارض وما طحاها قال الليث الطحو كالدحو وهو البسط وابدال الطاء من الدال جائز والمعنى وسعها كما قال تعالى أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا * قوله تعالى صببنا الماء صبا يعنى كانت المياه تنصب من السماء على الارض صبا متواترا * وقوله تعالى ثم شققنا الارض شقا أى كانت الارض تشقق ويخرج من باطنها الصخور والجبال فكانت الارض فى الزمن الذى قبل الدحو جماقد رجمها بمرات فلما دحيت تحجمت وصار سطحها جامدا فبعد ذلك طحاها أى وسعها فصارت تشقق وتتسع كما قال تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع * قوله ذات الرجع أى ذات المطر يرجع المطر بعد المطر * وقوله ذات الصدع أى ذات الشق فتنشق الارض وتنثني بالصخور وظهور الجبال كقوله تعالى يومئذ يصدعون أى يتفرقون وذلك لان الارض تتشقق وينفذ من الشقوق الصخور ليتم التركيب والتكميل

﴿فى بيان الخلاف فى الارض هل هى متحركة أو ساكنة﴾

فقال قوم انها متحركة وذلك لانها لو كانت ساكنة لكانت قوة انضمامها تخلخلت وجزئياتها تفاتت وكتلها انحلت وجوّها صار خلاء وعدمت التنفس والحياة منها * وقال قوم آخرون ان الارض ساكنة غير متحركة لا بالاستدارة ولا بالاستقامة * ثم اختلفوا فى سبب هذا السكون على وجوه (أحدها) أن الارض لا نهاية لها من الجانب السفلى واذا كان كذلك لم يكن لها حركة وهذا فاسد لما ثبت بالدليل تناهى الأجسام (الثانى) الذين سلموا تناهى الاجسام قالوا الارض ساكنة بحيث انها ليست بكرة بل هى كنصف كرة وحدبتها فوق وسطحها أسفل وذلك السطح موضوع على الماء والهواء ومن شأن الثقيل اذا انبسط أن يندغم على الماء والهواء مثل الرصاصة فانها اذا انبسطت طفت على الماء وان اجتمعت رسبت وهذا

باطل

باطل من وجهين (الاول) ثبت بالمشاهدات الصحيحة أن الارض كروية والدليل على ذلك ماذكرناه آنفا وهو أن الله تعالى خلق جوهرة ونظر اليها فسالت ماء فكانت منها السموات والارض * فاذا علمت هذا فاعلم أن الله تعالى جعل ابتداء الارض سائلة فدارت على نفسها فاكتسبت الشكل الكروى المميز لها ولاغلب الاجسام السماوية (الثانى) أن سبب حركة الارض جذب الفلك لها لان الجرم الاصغر اسرع انجذابا من الاكبر ودفعه لها من كل الجوانب فمن الدفع الجذب كما اذا جعل شئ من التراب فى قنينة ثم أديرت القنينة على قطبها ادارة سريعة فانه يقف التراب فى وسط القنينة لتساوى الدفع من كل الجوانب ومن ذلك تطلب الارض وسط الافلاك لان الاجسام متساوية فى الجسمية فاختصاص البعض بالصفة التى لاجلها تطلب تلك الحالة لابد وأن يكون جائزا فيفتقر فيه الى الفاعل المختار سبحانه وتعالى (الثالث) قال علماء الهيئة الذين بحثوا فى الارض على ما تبين لهم ان جميع المواد الداخلة فى تركيب الارض كانت ابتداء على حالة غازات أو أبخرة بتأثير الحرارة الشديدة التى سلطها الله تعالى عليها وحينئذ نتخيل أن الارض كانت فى ابتداء أمرها مادة غازية ومتى علم أن الجواهر الصلبة التى تستحيل الى غازات تشغل حجما قدر حجمها الذى تبقى عليه ألفا وثمانمائة مرة نتج من ذلك أن هذه الكتلة الغازية كانت ذات حجم عظيم وتخيلنا الفرق الذى بين حجم أرضنا هذه وكتلتها الغازية الاولية وحيث ان الكتلة الغازية التى كانت تتكون منها الارض ذات حرارة مرتفعة جدا كانت تضىء فى الفراغ كما تضىء الشمس الآن وكما تضىء النجوم الثابتة والسيارة ليلا * وهذه الكتلة الغازية المضطرمة لما دارت حول الشمس على مقتضى قوانين الجذب العام الفلكى كانت منقادة الى القوانين المؤثرة فى بقية الجواهر المادية فكانت تبرد وتترك جزأ من حرارتها لطبقات الفراغ الباردة جدا التى بين الافلاك فبسبب هذا التبريد المستمر مع طول الزمن الذى لا يمكن تعيين مدته ولو على وجه التقريب صارت الارض سائلة بعد أن كانت غازية فتناقص حجمها تناقصا عظيما * ومن المقرر فى علم (الميكانيك) أى علم رفع الاثقال أن الجسم السائل المتحرك حركة رحوية يكتسب شكلا كرويا فبهذه الكيفية اكتسبت الارض الشكل الكروى المميز لها ولاغلب الاجسام السماوية وليست الارض منقادة الى حركة رحوية فقط بل لها حركة دوران على محورها أيضا يتكون منها تعاقب الليل والنهار * وقد تقرر فى علم الميكانيك وثبت بالتجاريب أن الكتلة السائلة المتحركة تنتفخ نحو خط الاستواء وتتفرطح نحو قطبيها بسبب اختلاف القوة المركزية الطاردة وبسبب هذه الظاهرة لما كانت الارض سائلة انتفخت نحو خط الاستواء وتفرطحت نحو القطبين فاستحالت من الشكل الكروى الى شكل كرة مفرطحة نحو قطبيها (واعلم) أن انتفاخ الارض نحو خط الاستواء وتفرطحها نحو القطبين دليل على أن الارض كانت سائلة ابتداء فان الكرة الصلبة التى من العاج لا يتغير شكلها اذا دارت على محورها قرونا ومتى كانت سائلة أو عجينية انتفخت نحو وسطها وتفرطحت نحو طرفى محورها اذا علمت هذا فاعلم أنه اذا تأمل العاقل فى هذه اللطائف والعجائب وافتقارها الى هذه التدابير اضطر

قطعا أن يعتقد اثبات وجود الصانع الحكيم المقتدر العليم الذى جعل الارض دائرة لاختصاصها من المخصص لها بالمنافع التى تصدر منها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا (الرابع فى الحركة) الحركة هى الخاصة التى بها تنتقل الاجزاء المادية من حيز الى آخر والانتقال هو المسمى بالحركة والحركة لا تكون من نفس المادة بل لا بد لها من خارج عنها يسمى قوة وعلى حسب اتجاه هذه القوة يكون اتجاه الجسم فلو تجاذب جسمان قوتين متكافئتين متضادتين فى الاتجاه لحفظتاه فى حال التعادل وحيث كان السكون ضد الحركة اقتضى أن نذكر تعريفهما فنقول* الحركة حالة فيها يغير الجسم حيزه من الفراغ الى حيز آخر فى لحظات متوالية والسكون حالة يبقى فيها الجسم باجزائه المادية شاغلا الحيزه من الفراغ فى لحظات متوالية* ثم الحركة اما سريعة أو بطيئة والسرعة أن يقطع الجسم بحركته مسافة معينة فى زمن معين والغالب أن هذا الزمن يقدر بالثوانى والمسافة تقاس بالمعيار وكل من السرعة والحركة لا يحكم به الذهن بمجرد النظر بل لا بد من مقابلة الجسم المتحرك بالاجسام الساكنة فالسفينة الجارية فى البحر لا تحقق حركتها الا بمشاهدة التغير الذى يحصل بين السفينة والمرئيات الساكنة التى تمر بقرب تلك السفينة وكذا الارض المتحركة على محورها فانه لا تحقق حركتها الا بمشاهدة التغير الذى يحصل بينها وبين الكواكب الثابتة وبسبب هذه المقابلة سميت الحركة التى يشاهد فيها تغير محاذاة الجسم المتحرك للاجسام الساكنة المحيطة به بالحركة النسبية ثم ان لفظ الحركة المطلق لا يقال الا للحركة الاجسام المتحركة فى المسافة بدون أن تقابل باجسام أخر مع أننا لا نعرف جسما له هذه الحركة* ثم ان من الاجسام المتحركة بحركة مشتركة ماله حركة مخصوصة به وذلك كالانسان الماشى على وجه الارض وكالدحروجة التى يدحرجها راكب السفينة السائرة فى النهر الى جهة من جهات السفينة والحركة المخصوصة متى حصلت فلا تؤثر فيها المشتركة شيأ فان الجالس على الارض والراكب فى السفينة الجارية لو قذف كل منهما كرة الى جهة من الجهات بقوة واحدة لوصل كل من الكرتين الى محله بسرعة واحدة من غير أن تؤثر فيهما حركة الارض والسفينة شيأ وكذا حركة الارض لا تؤثر فى الحركة المخصوصة للاجسام التى عليها شيأ وحينئذ فلا تتعرض للحركة المشتركة التى للارض فى شئ وما قيل فى الحركة يقال مثله فى السكون فان السكون النسبى مشاهد كثيرا اذ من الاجسام ماهو ساكن بالنسبة للاجسام المتحركة يقينا كصارى السفينة فانه ساكن بالنسبة للسفينة متحرك بالنسبة للبحر الجارى الذى هو فيه وكالشجر فانه ساكن بالنسبة للارض متحرك بالنسبة للنجم الثابت فان الارض هى التى تدور* وأما السكون المطلق فلا نعلم وجوده فى العالم فان جميع الاماكن وجميع الكرات السماوية مشاهد تحركها ولا يعرف السكون المطلق الا للفراغ وهذا غاية ما فى الباب غير أن طريق مشاهدة الحركات والسكنات قد توقع فى الشك والوهم فى ذلك فان الانسان الجالس فى مقعد سفينة سائرة اذا كان مسدودا عليه يتراءى له أنه ساكن وهو كذلك بالنسبة للاشياء المحيطة به فاذا فتح ثقبا صغيرا وشاهد منه المرئيات الظاهرة يتوهم أن الشاطئ متحرك ولا ينقطع عنه هذا التوهم الا بعد

رؤية كثير من المرئيات الظاهرة ساكنا وتحققه ذلك (واعلم) أن الحركة يقال لها سريعة أو بطيئة على حسب كون المسافة التى يقطعها الجسم فى زمان معين كبيرة أو صغيرة ويقال لها مزدوجة السرعة ان قطع الجسم فى ثانية مسافة ضعف المسافة التى قطعها فى ثانية قبلها ويقال انها مستقيمة اذا كانت على خط مستقيم ومنحنية اذا كانت على خط منحن واستدارية اذا كانت ترسم فى سيرها هيئة دائرة ومستوية السرعة أو البطء اذا قطع الجسم فى مدة حركته مسافات متساوية فى أزمان متساوية ومختلفة اذا اختلفت المسافات وتساوت الأزمان (تنبيه) ان الحالة الذاتية للجسم هى التى وجد عليها فالجسم الساكن مستمر على سكونه حتى تأتيه قوة تحركه والجسم المتحرك مستمر متحركا بحركة مستوية حتى تأتيه قوة تقطع حركته فالمادة ليس لها حركة من ذاتها ان كانت ساكنة ولا سكون لها من ذاتها ان كانت متحركة والا لكان لها قدرة وارادة وحينئذ فالجسم اذا تحرك بحركة لا يقف عنها الا اذا عرض له ما يوقفه فاذا تحرك فى الفراغ بحركة استمر عليها الى ما لا نهاية لأنه لا شئ يعرض له فيوقفه الا بأمره تعالى فكل من الارض والكواكب كالمريخ وزحل دائما متحرك بحركة مستوية مستمر عليها الى يوم الوعد فاذا علمت هذا فاعلم أن كل موجود سوى الله تعالى هو على ثلاثة أقسام المتحيزات والمفارقات والصفات أما المتحيزات فهى اما بسائط أو مركبات أما البسائط فهى العناصر البسيطة وأما المركبات فهى المواليد الثلاثة التى يتألف منها الكتل الكبيرة أى الاجرام (واعلم) أنه لم يقم دليل على أنه لا جسم الا هذه الأقسام الثلاثة وذلك لانه ثبت بالدليل أن الأجرام السماوية متحركة وثبت بالدليل أيضا أن الارض متحركة وثبت بالدليل أيضا أنه حصل خارج العالم خلاء لانهاية له وثبت بالدليل أيضا أنه تعالى قادر على جميع الممكنات فهو تعالى قادر على أن يخلق ألف ألف عالم خارج العالم بحيث يكون كل واحد من تلك العوالم أعظم وأجسم من هذا العالم ويحصل فى كل واحد منها مثل ما حصل فى هذا العالم من العرش والكرسى والسموات والارضين والشمس والقمر ودلائل الفلاسفة فى اثبات أن العالم واحد دلائل ضعيفة ركيكة مبنية على مقدمات واهية قال أبو العلاء المعرى

يا أيها الناس كم لله من فلك * تجرى النجوم به والشمس والقمر
هين على الله ماضينا وغابرنا * فما لنا فى نواحى غيره خطر

وكان الشيخ ضياء الدين عمر رحمه الله تعالى يقول ان الله تعالى فى كل جوهر فرد أنواعا غير متناهية من الدلائل الدالة على القدرة والحكمة والرحمة وذلك لان كل جوهر فانه يمكن وقوعه فى أحياز غير متناهية على البدل ويمكن أيضا اتصافه بصفات غير متناهية على البدل وكل واحد من تلك الاحوال المقدرة فانه بتقدير الوقوع يدل على الافتقار الى وجود الصانع الحكيم والله سبحانه وتعالى أعلم * فثبت بما ذكرنا أن الاجرام السماوية متحركة وكل جرم ثابت له حركة على نفسه وحركة أخرى لا تعلم على شئ وله كواكب تدور حوله فجعل تعالى الكواكب السيارة ومنها الارض تدور حول الشمس * ثم انه تعالى وصف جملة الارض بالبركة فقال قل أئنكم لتكفرون الى قوله وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها * فان قيل وأى بركة

فى الفلوات الخالية والمفاوز المهلكة قلنا انها مساكن أى فرش للوحوش ومرعاها ثم انها مساكن للناس اذا احتاجوا اليها فلهذه البركات قال تعالى وفى الأرض آيات للموقنين وهذه الآيات وان كانت حاصلة لغير الموقنين لكن لما لم ينتفع بها الا الموقنون جعلها آيات للموقنين تشريفا لهم كما قال تعالى هدى للمتقين * وأما قوله أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها ففيه مسائل (الاولى) أنه تعالى ذكر أمر السموات والارض فى كتابه فى عدّة مواضع ولا شك أن اكثار الله تعالى من ذكر السموات والارض يدل على عظم شأنهما وعلى أن له سبحانه وتعالى فيهما اسرارا عظيمة وحكما بالغة لا تصل اليها أفهام الخلق ولا عقولهم

﴿المسئلة الثانية فى فضائل السماء﴾ وهى من وجوه (الاول) أن الله تعالى زينها بسبعة أشياء بالمصابيح قال تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وبالقمر قال تعالى وجعل القمر فيهنّ نورا وبالشمس قال تعالى وجعل الشمس سراجا وبالعرش قال تعالى رب العرش العظيم وبالكرسى قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض وباللوح قال تعالى فى لوح محفوظ وبالقلم قال تعالى ن والقلم فهذه سبع آيات ثلاث منها ظاهرة وأربع خفية ثبتت بالدلائل السمعية من الآيات والاخبار (الوجه الثانى) أنه تعالى سمى السموات باسماء تدل على عظم شأنها مثل قوله تعالى سقفا محفوظا وقوله تعالى سبعا طباقا وقوله تعالى سبعا شدادا ثم ذكر عاقبة أمرها فقال تعالى واذا السماء فرجت واذا السماء كشطت يوم نطوى السماء يوم تكون السماء كالمهل يوم تمور السماء مورا فكانت وردة كالدهان وذكر مبدأها فى ثلاثة آيات فقال تعالى ثم استوى الى السماء وهى دخان وقال أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وقال الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور فهذا الاستقصاء الشديد فى كيفية حدوثهما وفنائهما يدل على أنه سبحانه خلقهما لحكمة بالغة لقوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا (الوجه الثالث) أنه تعالى جعل السماء قبلة الدعاء فالأيدى ترفع اليها والوجوه تتوجه نحوها وهى منزل الانوار ومحل الصفاء والاضواء والطهارة والعصمة عن الخلل والفساد

﴿المسئلة الثالثة فى معنى كون السماء بناء﴾ قال الجاحظ اذا تأملت فى هذا العالم وجدته كالبيت المعدّ فيه كل ما يحتاج اليه فالسماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط والنجوم منوّرة كالمصابيح والانسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيآت لمنافعه وضروب الحيوان مصرفة فى مصالحه فهذه جملة واضحة دالة على المراد هذا ما رأيناه فى الأشياء المحيطة بنا

﴿المسئلة الرابعة فى الكواكب هل هى مسكونة أولا﴾ فان قيل هل الكواكب مسكونة أولا قلنا ان هذا مما يقرب للعقل جدا ويظهر بداهة أنه لا يمكن جوازه بدليل قطعى سيما اذا كان على وجه الايجاب والاثبات اذا أريد كونها مسكونة بذوات مشابهة لنا أولما هو محيط بنا ولو فرض وجود سكان فى كوكب المشرق الذى هو الزهرة مثلا أو فى المشترى المحلّى بأشرطته المتحركة أو باقماره الاربعة أو فى زحل المحاط بحلقة أو فى غير ذلك للزم أن يعترف

بأن هؤلاء الناس ممتعون بمنظر جميل رفيع القدر جدًّا وبسماء متنوعة المنتزهات وأشرف من سمائنا * وأيضا اذا كان القمر مسكونا بأشخاص شبيهة بنا فأى منظر بهى تبديه الارض لهم اذا تعرض لهم جميع سطحها فى مدة أربع وعشرين ساعة مع كون قطرها أكبر من قطر القمر بثلاث مرات وضوءها أقوى من ضوئه بثلاث عشرة مرة وجميع ما يناسب لكرتنا من الكائنات الجوية المضيئة والبحار والانهر والاراضى الناشفة والغابات والاقطار العظيمة والجبال المفروشة بالثلج والجليد المستدام يغير وينوع لهم منظر هذه الكرة العظيمة النيرة التى يلزم على ذلك أن القمر يستفيد نوره منها فهذه الجمل واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية والله أعلم

﴿مقالة مهمة﴾

فى قوله تعالى (وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم) اعلم أن الله تعالى لما خلق الارض وكانت دخانا ثم ماء ثم كالصدف والدرة المودعة فيه آدم وأولاده ثم علم الله تعالى أصناف حاجاتهم فكأنه قال يا آدم لا أحوجك الى غير هذه الارض التى هى لك كالأم فانظر يا عبدى ان أعز الاشياء عندك الذهب والفضة ولو أنى خلقت الارض من الذهب والفضة هل كان يحصل منها هذه المنافع ثم انى جعلت هذه الاشياء فى هذه الدنيا مع أنها سجن فكيف الحال فى الجنة فالحاصل أن الارض أمك بل أشفق من الأم لان الأم تسقيك لونا واحدا من اللبن والارض تطعمك كذا وكذا لونا من الاطعمة * ثم قال تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم معناه نردكم الى هذه الأم وهذا ليس بوعيد لان المرء لا يوعد بأمه وذلك لان مكانك من الأم التى ولدتك أضيق من مكانك من الارض ثم انك كنت فى بطن الأم تسعة أشهر فما مسك جوع ولا عطشت فكيف اذا دخلت بطن الأم الكبرى ولكن الشرط أن تدخل بطن هذه الأم الكبرى كما كنت فى بطن الأم الصغرى لانك حين كنت فى بطن الأم الصغرى ما كانت لك زلة فضلا عن أن تكون لك كبيرة بل كنت مطيعا لله تعالى بحيث دعاك مرة الى الخروج الى الدنيا فخرجت اليها بالرأس طاعة منك الى ربك واليوم يدعوك سبعين مرة الى الصلاة فلا تجيبه برجلك * ثم قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا الآية (اعلم) أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الارض والسماء بين ما بينهما من شبه عقد النكاح بانزال الماء من السماء على الارض والاخراج به من بطنها أشياء النسل الحاصل من الحيوان وأنواع الثمار رزقا لبنى آدم ليتفكروا فى أنفسهم وفى أحوال ما فوقهم وما تحتهم ويعرفوا أن شيأ من هذه الاشياء لا يقدر على تكوينه وتخليقه الا من كان مخالفا لها فى الذات والصفات وذلك هو الصانع الحكيم سبحانه وتعالى وههنا سؤالات

(الاول) هل تقولون ان الله تعالى هو الخالق لهذه الثمرات عقيب وصول الماء اليها بمجرد العادة أو تقولون ان الله تعالى خلق فى الماء طبيعة مؤثرة وفى الارض طبيعة قابلة فاذا اجتمعتا حصل الأثر من تلك القوى التى خلقها الله تعالى (والجواب) لا شك أنه على كلا القولين لا بد من الصانع الحكيم وأما التفصيل فنقول لا شك أنه تعالى قادر على خلق هذه الثمار

ابتداء من غير هذه الوسائط لان الثمرة لا معنى لها الا جسم قام به طعم ولون ورائحة ورطوبة والجسم قابل لهذه الصفات وهذه الصفات مقدورة لله تعالى ابتداء لان المصحح للمقدورية اما الحدوث أو الامكان أوهما وعلى التقديرات فانه يلزم أن يكون الله تعالى قادرا على خلق هذه الاعراض فى الجسم ابتداء بدون هذه الوسائط ومما يؤكد هذا الدليل العقلى من الدلائل النقلية ماورد فى الخبر أنه تعالى يخترع نعيم أهل الجنة للشائين من غير هذه الوسائط الا أنا نقول قدرته على خلقها ابتداء لا تنافى قدرته عليها بواسطة خلق هذه القوى المؤثرة والقابلة فى الاجسام وظاهر قول المتأخرين من المتكلمين انكار ذلك ولا بد فيه من دليل قطعا

(السؤال الثانى) لما كان قادرا على خلق هذه الثمار بدون هذه الوسائط فا الحكمة فى خلقها بهذه الوسائط فى هذه المدة الطويلة فالجواب يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد* ثم ذكر من الحكم المفصلة وجوها (أحدها) أنه تعالى انما أجرى العادة بأن لا يفعل ذلك الا على ترتيب وتدريج لان المكلفين اذا تحملوا المشقة فى الحرث والغرس طلبا للثمرات وكدوا أنفسهم فى ذلك حالا بعد حال علموا أنهم لما احتاجوا الى تحمل هذه المشاق لطلب هذه المنافع الدنيوية فلأن يتحملوا مشاق أقل من المشاق الدنيوية لطلب المنافع الأخروية التى هى أعظم من المنافع الدنيوية أولى وصار هذا كما قلنا انه تعالى قادر على خلق الشفاء من غير تناول الدواء لكنه أجرى عادته بتوقيفه عليه لانه اذا تحمل مرارة الأدوية دفعا لضرر المرض فلأن يتحمل مشاق التكليف دفعا لضرر العقاب كان أولى (وثانيها) أنه تعالى لو خلقها دفعة من غير هذه الوسائط لحصل العلم الضرورى باسنادها الى القادر الحكيم وذلك كالمنافى للتكليف والابتلاء أما لو خلقها بهذه الوسائط فحينئذ يفتقر المكلف فى اسنادها الى القادر الى نظر دقيق وفكر غامض فيستوجب الثواب ولهذا قيل لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب (وثالثها) أنه ربما كان للملائكة ولأهل الاستبصار عبر فى ذلك وأفكار صائبة

(السؤال الثالث فى قوله تعالى وأنزل من السماء ماء يقتضى هذا نزول المطر من السماء وليس الامر كذلك لان الآية الشريفة مؤولة كما يأتى فان الامطار انما تتولد من أبخرة ترتفع من كرة الارض وتتصاعد الى الجو فتجتمع هنالك وتنزل بعد اجتماعها وذلك هو المطر فالجواب من وجوه أحدها أن السماء انما سميت سماء لسموها فكل ماسمالك أى علاك فهو سماء فاذا نزل من السحائب فقد نزل من السماء (وثانيها) أن المحرك لاثارة تلك الاجزاء الرطبة من عمق الارض جعل الله تعالى المنبهات تؤثر على الاجزاء الرطبة (وثالثها) أن قوله تعالى هو الصدق وقد أخبر الله تعالى أنه ينزل المطر من السماء فاذا علمنا أنه مع ذلك ينزل من السحاب فيجب أن يقال ينزل من السماء ومن السحاب الى الارض (السؤال الرابع) مامعنى من فى قوله من الثمرات فالجواب فيه وجهان (أحدهما) التبعيض لان المنكرين أعنى ماء ورزقا يكتنفانه وقد قصد بتنكيرهما معنى البعضية فكأنه قيل وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم (والثانى) أن تكون للبيان كقولك

أنفقت من الدراهم انفاقا فان قيل فيم انتصب رزقا قلنا ان كان من للتبعيض كان انتصابه
بانه مفعول له وان كانت مبينة كان مفعولا لاخرج (السؤال الخامس) الثمر المخرج بماء السماء
كثير فلم قيل الثمرات دون الثمر أو الثمار الجواب تنبيها على قلة ثمار الدنيا واشعارا بتعظيم
أمر الآخرة والله تعالى أعلم * وأما قوله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ففيه سؤالات
(السؤال الاول) بم تعلق قوله فلا تجعلوا الجواب فيه ثلاثة أوجه (الاول) أن يتعلق بالامر
أي اعبدوا ولا تجعلوا لله أندادا فان أصل العبادة وأساسها التوحيد (وثانيها) بلعلكم تتقون
والمعنى خلقكم لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوا به أندادا فانه من أعظم موجبات العقاب
(وثالثها) بقوله الذي جعل لكم الارض فراشا أي هو الذي خلق لكم هذه الدلائل الباهرة
فلا تتخذوا له شركاء (السؤال الثاني) ما الند (الجواب) أنه المثل المنازع وناددت الرجل نافرته
من ند ندودا اذا نفر كأن كل واحد من الندين يناد صاحبه أي ينافره ويعانده (فان قيل) انهم
لم يقولوا ان الاصنام تنازع الله قلنا انهم لما عبدوها وسموها آلهة أشبهت حالهم حال من
يعتقد أنها آلهة قادرة على منازعته فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم وكما تهكم بلفظ الند
شنع عليهم بانهم جعلوا أندادا كثيرة لمن لا يصح أن يكون له ند قط وقرأ محمد بن السميفع فلا تجعلوا
لله ندا (السؤال الثالث) ما معنى قوله وأنتم تعلمون (الجواب) معناه أنكم لكمال عقولكم
تعلمون أن هذه الاشياء لا يصح جعلها أندادا لله تعالى فلا تقولوا ذلك فان القول القبيح ممن علم
قبحه يكون أقبح (السؤال الرابع) اعلم أنه ليس في العالم أحد يثبت لله تعالى شريكا يساويه
في الوجود والقدرة والعلم والحكمة وهذا مما لم يوجد مطلقا لكن الثنوية يثبتون الهين
أحدهما حليم يفعل الخير والثاني سفيه يفعل الشر وأما اتخاذ معبود سوى الله تعالى ففي
الذاهبين الى ذلك بكثرة الفريق الاول عبدة الكواكب وهم الصابئة فانهم يقولون ان الله
تعالى خلق هذه الكواكب والكواكب تعبد الله تعالى والفريق الثاني الذين يصورون
الملائكة عليهم السلام والاله والانبياء صورا والفريق الثالث عبدة الاوثان (واعلم) أنه
لا دين أقدم من دين عبدة الاوثان وذلك لان أقدم الانبياء عليهم السلام فيما نقل الينا
تاريخهم وثبت هو نوح عليه السلام وهو انما جاء بالرد عليهم على ما أخبر الله تعالى عن قومه
في قوله تعالى وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا فعلمنا
أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح عليه السلام وهي باقية الى الآن بل أكثر أهل العلم
مستمرون على هذه المقالة والدين والمذهب الذي هذا شأنه يستحيل أن يكون بحيث يعرف
فساده بالضرورة لكن العلم بأن هذه الاحجار المنحوتة في هذه الساعة ليست هي التي خلقتنا
وخلقت السموات والارض علم ضروري فيستحيل مع اطباق الجمع العظيم عليه أن يكون
غلطا أو خطأ فوجب أن يكون لعبدة الاوثان غرض آخر سوى ذلك والعلماء ذكروا فيه وجوها
(أحدها) ما ذكره أبو مبشر جعفر بن محمد الفلكي البلخي في بعض مصنفاته أن كثيرا من أهل
الصين والهند كانوا يقولون بوجود الله وملائكته ويعتقدون أن الله تعالى جسم وذو صورة
كأحسن ما يكون من الصور وهكذا حال الملائكة أيضا في صورهم الحسنة وأنهم كلهم قد

قوله وفي الذاهبين الخ كذا بالاصل وحرراه

احتجبوا عنا بالسماء وأن الواجب عليهم أن يصوغوا تماثيل أنيقة المنظر حسنة الرواء على الهيئة التى كانوا يعتقدونها من صور الاله والملائكة فيعكفون على عبادتها قاصدين طلب الزلفى الى الله تعالى وملائكته وعبدة النيران لما تحققوا أن أصل ابتداء الجواهر الفردة ماتكونت فردة الا بعد أن اشتعلت أجل عناصرها البخارية نارا فعلموا أن الاله نار فبقوا عاكفين على عبادة النار فان صح ماذكره أبو معشر فالسبب فى عبادة الاوثان اعتقاد الشبه وعبادة النار اعتقاد أنها الاله (وثانيها) ماذكره أكثر العلماء وهو أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذه العوالم مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب فان بحسب بعد الشمس وقربها عن سمت الرأس تحدث الفصول المختلفة والاحوال المتباينة ثم انهم رصدوا أحوال سائر الكواكب فاعتقدوا ارتباط السعادة والنحوسة فى الدنيا بكيفية وقوعها فى طوالع الناس فلما اعتقدوا ذلك بالغوا فى تعظيمها فمنهم من اعتقد أنها أشياء واجبة الوجود لذواتها وهى التى خلقت هذه العوالم ومنهم من اعتقد أنها مخلوقة للاله الاكبر لكنها خالقة لهذا العالم فالاولون اعتقدوا أنها هى الاله فى الحقيقة والفريق الثانى أنها هى الوسائط بين الله تعالى وبين البشر فلاجرم أنهم اشتغلوا بعبادتها والخضوع لها ثم لما رأوا الكواكب مستترة فى أكثر الاوقات عن الابصار اتخذوا لها أصناما وأقبلوا على عبادتها قاصدين بتلك العبادة تلك الاجرام العالية ومتقربين الى أشباحها الغائبة ثم لما طالت المدة ألغوا ذكر الكواكب وتجردوا العبادة تلك التماثيل وهؤلاء فى الحقيقة عبدة الكواكب (وثالثها) أن أصحاب الاحكام كانوا يعينون أوقاتا فى السنين المتطاولة نحو الالف والالفين ويزعمون أن من اتخذ طلسما فى ذلك الوقت على وجه خاص فانه ينتفع به فى أحوال مخصوصة نحو السعادة والخصب ودفع الآفات وكانوا اذا اتخذوا ذلك الطلسم عظموه لاعتقادهم أنهم ينتفعون به فلما بالغوا فى ذلك التعظيم صار ذلك كالعبادة ولما طالت مدة ذلك الفعل نسوا مبدأ الامر واشتغلوا بعبادتها على الجهالة بأصل الامر (ورابعها) أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون أنه مجاب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله تعالى اتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد أن ذلك الانسان يكون شفيعا لهم يوم القيامة عند الله تعالى على ما أخبر الله تعالى عنهم بهذه المقالة فى قوله هؤلاء شفعاؤنا عند الله (وخامسها) لعلهم اتخذوها محاريب لصلواتهم وطاعاتهم ويسجدون اليها لا لها كما أنا نسجد الى القبلة لا للقبلة ولما استمرت هذه الحالة ظن الجهال من القوم أنه تجب عبادتها (وسادسها) لعلهم كانوا مجسمين فاعتقدوا جواز حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل (وسابعها) أن عبدة النار قلنا آنفا لما تحققوا أن الجواهر الفردة ما تكونت فردة الا بعد أن اشتعل أصل تكونها ومن ذلك تبين لهم أيضا أن تحاليل الاشياء وانتقالاتها ليست الا بادخالها الى النار وقد تحكم فيهم هذا الاعتقاد بمشاهدتهم انفتاق الارض وخروج المياه والرمال والاحجار والنيران فتعاظم عندهم الامر بأن النار هى الاله الاعظم فقدموا لها القرابين من البشر وغيرهم * فهذه هى الوجوه التى يمكن حمل هذه المقالة عليها حتى لا يصير بحيث يعلم بطلانه بضرورة العقل (السؤال الخامس) فان قال

قائل

قائل لما رجع حاصل مذهب عبدة الاوثان الى هذه الوجوه التى ذكرتها فمن أين يلزم من اثبات
خالق العالم أن لا تجوز عبادة الاوثان (فالجواب) أنه تعالى انما نبه على كون الارض والسماء
مخلوقتين بما بينا أن الارض والسماء تشاركان سائر الاجسام فى الجسمية فلابد وأن يكون
اختصاص كل واحد منهما بما اختص به من الاشكال والصفات والاحياز بتخصيص
مخصص وبينا أن ذلك المخصص لو كان جسما لافتقر هو أيضا الى مخصص آخر فوجب أن لا
يكون جسما اذا ثبت هذا فنقول أما قول من ذهب الى عبادة الاوثان بناء على اعتقاد التشبيه
فلما دللنا بهذه الدلالة على نفى الجسمية فقد بطل قوله وهذا هو القول الاول وأما القول الثانى
وهو أن هذه الكواكب هى المدبرة لهذا العالم فلما أقمنا الدلالة على أن كل جسم فانه يفتقر
فى اتصافه فى كل ما اتصف به الى الفاعل المختار بطل كونها آلهة وثبت أنها عبيد لا أرباب
وأما القول الثالث وهو قول أصحاب الطلسمات فقد بطل أيضا لان تأثير الطلسمات انما
يكون بواسطة قوى الكواكب فلما دللنا على حدوث الكواكب ثبت قولنا وبطل قولهم
وأما القول الرابع والخامس فليس فى العقل ما يوجبه أو يحيله لكن الشرع الشريف لما
منع منه وجب الامتناع عنه وأما القول السادس فهو أيضا بناء على التشبيه فثبت بما قدمنا
أن اقامة الدلالة على افتقار العالم الى الصانع المختار المنزه عن الجسمية يبطل القول بعبادة
الاوثان على كل التأويلات والله تعالى أعلم (السؤال السادس) اعلم أن اليونانيين كانوا
قبل خروج الاسكندر عمدوا الى بناء هياكل لهم معروفة باسماء القوى الروحانية والاجرام
النيرة واتخذوها معبودا لهم على حدة وقد كان هيكل العلة الاولى وهى عندهم الامر
الالهى وهيكل العقل الصريح وهيكل السياسة المطلقة وهيكل النفس والصورة مدورات
كلها وكان هيكل زحل مسدسا وهيكل المشترى مثلثا وهيكل المريخ مستطيلا وهيكل الشمس
مربعا وكان هيكل الزهرة مثلثا فى جوفه مربع وهيكل عطارد مثلثا فى جوفه مستطيل وهيكل
القمر مثمنا فزعم أصحاب التاريخ أن عمرو بن لحى لما ساد قومه وترأس على طبقاتهم وولى
أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقاء فرأى قوما يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا
له هذه أرباب نستنصر بها فننصر ونستسقى بها فنسقى فالتمس اليهم أن يكرموه بواحد منها
فاعطوه الصنم المعروف بهبل فسار به الى مكة ووضعه فى الكعبة المشرفة ودعا الناس الى
تعظيمه وذلك فى أول ملك سابور ذى الاكتاف (واعلم) أن من بيوت الاصنام المشهورة غمدان
الذى بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء وخربه عثمان بن عفان رضى الله عنه ومن
نوبهاوبخ الذى بناه منوشهر الملك على اسم القمر ثم كان لقبائل العرب أوثان معروفة مثل
ودّ بدومة الجندل لكلب وسواع لبنى هذيل ويغوث لبنى مذحج ويعوق لهمدان ونسر بارض
حمير لذى الكلاع واللات بالطائف لثقيف ومناة بيثرب للخزرج والعزى لكنانة بنواحى مكة
واساف ونائلة على الصفا والمروة وكان قصى جدّ النبى صلى الله عليه وسلم ينهاهم عن عبادتها
ويدعوهم الى عبادة الله تعالى وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل وهو الذى يقول

أربا واحدا أم ألف رب * أدين اذا تقسمت الامور

قوله ومن نوبها الخ كذا بالاصل اه

تركت اللات والعزى جميعا * كذلك يفعل الرجل البصير

﴿مقالة مهمة﴾

في قوله تعالى (ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش) وفي الآية مسائل (الاولى) حكى الواحدي عن الليث أنه قال الأصل في الست والستة سدس وسدسة ابدل السين تاء ولما كان مخرج الدال والتاء قريبا أدغم أحدهما في الآخر واكتفي بالتاء والدليل عليه أنك تقول في تصغير ستة سديسة وكذلك الاسداس وجميع تصريفاته يدل عليه والله أعلم

﴿المسئلة الثانية﴾ الخلق التقدير على ماقررناه فخلق السموات والارض اشارة الى تقدير حالة من أحوالهما وذلك التقدير يحتمل وجوها كثيرة (أولها) تقدير ذواتهما بمقدار معين مع أن العقل يقضي بأن الازيد منه والانقص جائز فاختصاص كل واحد منهما بمقداره المعين لابد وأن يكون بتخصيص مخصص وبذلك يدل على افتقار خلق السموات والارض الى الفاعل المختار (وثانيها) أن كون هذه الاجسام متحركة في الازل محال لان الحركة انتقال من حال الى حال فالحركة يجب كونها مسبوقة بحالة أخرى والأزل ينافي المسبوقية فكان الجمع بين الحركة وبين الازل محالا اذا ثبت هذا فنقول هذه الافلاك والكواكب اما أن يقال ان ذواتها كانت معدومة في الازل ثم وجدت أو يقال انها وان كانت موجودة لكنها كانت واقفة ساكنة في الازل ثم ابتدأت بالحركة وعلى التقديرين فتلك الحركات ابتدأت بالحدوث وهي حقيقة ابتدأت بالحركة مع ابتداء الحدوث والوجود في وقت معين مع جواز حصولها قبل ذلك الوقت وبعده واذا كان كذلك كان اختصاص ابتداء تلك الحركات بتلك الاوقات المعينة تقديرا وخلقا ولا يحصل ذلك الاختصاص الا بتخصيص مخصص قادر مختار (وثالثها) أن أجرام الافلاك والكواكب مركبة من أجزاء صغيرة دقيقة ولابد وأن يقال ان بعض تلك الاجزاء حصل في داخل الاجرام وبعضها حصل على سطوحها فاختصاص حصول كل واحدة من تلك الاجزاء بحيزه المعين وموضعه المعين لابد وأن يكون بتخصيص المخصص القادر المختار (ورابعها) أن بعض الافلاك أعلى من بعض وبعض الكواكب حصل في المنطقة وبعضها في المدارين وبعضها في القطبين فاختصاص كل واحد منهما بموضعه المعين لابد وأن يكون بتخصيص مخصص قادر مختار (وخامسها) أن كل واحد من الافلاك متحرك الى جهة مخصوصة وحركة مختصة بمقدار معين مخصوص من البطء والسرعة وذلك أيضا خلق وتقدير ويدل على وجود المخصص القادر (وسادسها) أن كل واحد من الكواكب مختص بلون مخصوص مثل كمودة زحل ودرية المشتري وحمرة المريخ وضياء الشمس واشراق الزهرة وصفرة عطارد وزهرة القمر والأجسام متماثلة في تمام الماهية فكان اختصاص كل واحد منها بلونه المعين خلقا وتقديرا دليلا على افتقارها الى الفاعل المختار (وسابعها) أن العناصر البسيطة متكونة من أجزاء دقيقة ذات طبيعة واحدة والافلاك مركبة من جملة عناصر وواجب الوجود لا يكون أكثر من واحد فهي ممكنة الوجود في ذواتها فكل ما كان

عمكالذاته فهو محتاج الى المؤثر والحاجة الى المؤثر لاتكون فى حال البقاء والالزم تكون السكائن فتلك الحاجة لاتحصل الا فى زمان الحدوث أو فى زمان العدم وعلى التقديرين فيلزم كون هذه الاجزاء محدثة ومتى كانت محدثة كان حدوثها مختصا بوقت معين وذلك خلق وتقدير ويدل على الحاجة الى الصانع القادر المختار (وثامنها) أن هذه الاجسام لاتخلو عن الحركة دون السكون والسكون فى كلها بالنسبة لها وهما محدثان ومالايخلو عن المحدث فهو محدث فهذه الاجسام محدثة وكل محدث فقد حصل حدوثه فى وقت معين وذلك خلق وتقدير ولا بدّ فيه من الصانع القادر المختار (وتاسعها) أن الاجسام متماثلة فاختصاص بعضها بالصفات التى لأجلها كانت سموات وكواكب وأرضا وابعض الآخر بالصفات التى لأجلها كانت عناصر وحرارة وضوأ وهواء لابدّ وأن يكون أمرا جائزا وذلك لايحصل الا بتقدير مقدّر وتخصيص مخصص وهو المطلوب (وعاشرها) أنه كما حصل الامتياز المذكور بين الافلاك والعناصر فقد حصل أيضا مثل هذا الامتياز بين الكواكب وبين الافلاك وبين العناصر بل حصل مثل هذا الامتياز بين كل واحد من الكواكب وذلك يدل على الافتقار الى الفاعل القادر المختار (واعلم) أن الخلق عبارة عن التقدير فاذا دللنا على أن الاجسام متماثلة وجب القطع بأن كل صفة حصلت لجسم معين فان حصول تلك الصفة ممكن لسائر الاجسام واذا كان الامر كذلك كان اختصاص ذلك الجسم المعين بتلك الصفة المعينة خلقا وتقديرا فكان داخلا تحت قوله سبحانه وتعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض

(المسئلة الثالثة) لسائل أن يسأل فيقول كون هذه الاشياء مخلوقة فى ستة أيام لايمكن جعله دليلا على اثبات الصانع وبيانه من وجوه (الأوّل) أن وجه دلالة هذه المحدثات على وجود الصانع هو حدوثها أو امكانها أو مجموعهما فاما وقوع ذلك الحدوث فى ستة أيام أو فى يوم واحد فلا أثر له فى ذلك البتة (والثانى) أن العقل يدل على أن الحدوث على جميع الأحوال جائز واذا كان كذلك فحينئذ لايمكن الجزم بأن هذا الحدوث وقع فى ستة أيام الا باخبار مخبر مصدّق صادق وذلك موقوف على العلم بوجود الاله الفاعل المختار فلو جعلنا هذه المقدمة مقدّمة فى اثبات الصانع لزم الدور (والثالث) أن حدوث السموات والارض دفعة واحدة أدل على كمال القدرة والعلم من حدوثها فى ستة أيام * اذا ثبت ماذكرناه من الوجوه الثلاثة فنقول ما الفائدة فى ذكر أنه تعالى انما خلقها فى ستة أيام فى اثبات ذكر مايدل على وجود الصانع (والرابع) أنه ما السبب فى أنه اقتصر ههنا على ذكر السموات والارض ولم يذكر خلق سائر الاشياء (والخامس) اليوم انما عتاز عن الليلة بسبب طلوع الشمس وغروبها فقبل خلق الشمس والقمر كيف يعقل حصول الايام (والسادس) أنه تعالى قال وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وهذا كالمناقض لقوله خلق السموات والارض فى ستة أيام (والسابع) أنه تعالى خلق السموات والارض فى مدّة متراخية فما الحكمة فى تقييدها وضبطها بالايام الستة (فنقول) أما على مذهبنا فالامر سهل فى الكل واضح لانه تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد ولا اعتراض عليه فى أمر من الامور وكل شئ صنعه ولا علة لصنعه * ثم نقول أما السؤال

الأول فجوابه أنه سبحانه وتعالى ذكر فى أول التوراة أنه خلق السموات والارض فى ستة أيام والعرب كانوا يخالطون اليهود والظاهر أنهم سمعوا ذلك منهم فكأنه سبحانه يقول لا تشتغلوا بعبادة الاوثان والاصنام فان ربكم هو الذى سمعتم من عقلاء الناس أنه هو الذى خلق السموات والارض على غاية عظمتهما ونهاية جلالتهما فى ستة أيام * وأما السؤال الثانى فجوابه أن المقصود منه أنه سبحانه وتعالى وان كان قادرا على ايجاد الاشياء دفعة واحدة لكنه جعل لكل شئ حدا محدودا ووقتا مقدورا فلا يدخله فى الوجود الا على ذلك الوجه فهو وان كان قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين فى الحال وعلى ايصال العقاب الى المذنبين فى الحال الا أنه يؤخرهما الى أجل معلوم مقدر فهذا التأخير ليس لاجل أنه تعالى أهمل العباد بل لما ذكرنا أنه خص كل شئ بوقت معين لسابق مشيئته فلا يفتر عنه ويدل على هذا قوله تعالى فى سورة ق ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون بعد أن قال قبل هذا وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فأخبرهم بأنه قد أهلك من المشركين به ومن المكذبين لانبيائه من كان أقوى بطشا من مشركى العرب الا أنه أمهل هؤلاء لما فيه من المصلحة كما خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام متصلة لا لاجل لغوب لحقه فى الامهال ولما بين بهذا الطريق أنه تعالى انما خلق العالم لا دفعة لكن قليلا قليلا فى ستة أزمان زمن الدخان وزمن الماء وزمن التحجر وزمن التيبس وزمن ظهور الجبال وزمن تولد المولدات على ما سيأتى قال تعالى بعده فاصبر على ما يقولون أى من الشرك والتكذيب ولا تستعجل لهم العذاب بل توكل على الله تعالى وفوض الامر اليه وهذا المعنى هو ما يقوله المفسرون من أنه تعالى انما خلق العالم فى ستة أيام ليعلم عباده الرفق فى الامور والصبر عليها ولاجل أن لا يحمل المكلف تأخر الثواب والعقاب على الاهمال والتعطيل ومن العلماء من ذكر فيه وجهين (الاول) أن الشئ اذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع طريق الاحداث فلعله يخطر ببال بعضهم أن ذلك انما وقع على سبيل الاتفاق أما اذا أحدثت الاشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للمصلحة والحكمة كان ذلك أقوى فى الدلالة على كونها واقعة باحداث محدث قديم حكيم وقادر عليم رحيم (والوجه الثانى) أنه قد ثبت بالدليل أنه تعالى لم يخلق العاقل أولا ثم يخلق السموات والارض بعده ثم ان ذلك العاقل اذا شاهد فى كل ساعة وحين حدوث شئ آخر على التعاقب والتوالى كان ذلك أقوى لعلمه وبصيرته لانه يتكرر على عقله ظهور هذا الدليل لحظة بعد لحظة فكان ذلك أقوى فى افادة اليقين * وأما السؤال الثالث فجوابه أن ذكر السموات والارض فى هذه الآية يشتمل أيضا على ذكر ما بينهما والدليل عليه أنه تعالى ذكر سائر المخلوقات فى سائر الآيات المبينة لذلك فقال تعالى الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع وقال تعالى وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا الذى خلق السموات والارض وما بينهما وقال تعالى ولقد خلقنا السموات

والارض

والارض ومابينهما فى ستة أيام * وأما السؤال الرابع فجوابه أن المراد أنه تعالى خلق السموات والارض فى مقدار ستة أيام أى ستة مقادير متساوية فى الزمن وهو كقوله تعالى لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا والمراد على مقدار البكرة والعشى فى الدنيا لانه لا ليل ثم ولا نهار وأما السؤال الخامس فجوابه أن قوله وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر محمول على ايجاد كل واحد من الذوات وعلى اعدام كل واحد منها لان ايجاد الذات الواحدة واعدام الموجود الواحد الذى لا يقبل التفاوت لا يمكن تحصيله الا دفعة واحدة لانه تعالى لما قال للسموات والارض كونا فكانتا داخنا فأخذ كل ذات حيزه وأما الامهال والمدة فذلك لا يحصل الا فى مقدار المدة

﴿المسئلة الرابعة﴾ فى هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء لانه قال ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض والمعنى ان الذى يربيكم ويصلح شأنكم ويوصل اليكم الخيرات ويدفع عنكم المكروهات هو الذى بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته الى حيث خلق هذه الاشياء العظيمة وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات ومن كان له رب موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة فكيف يليق أن يرجع الى غيره فى طلب الخيرات أو يعوّل على غيره فى تحصيل السعادات * ثم فى الآية دقيقة فانه لم يقل أنتم عبيده بل قال هو ربكم ودقيقة أخرى وهى أنه تعالى لما نسب نفسه الينا سمى نفسه فى هذه الحالة بالرب وهو مشعر بالتربية وكثرة الفضل والاحسان فكأنه يقول من كان له رب مع كثرة هذه الرحمة والفضل فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره

﴿المسئلة الخامسة﴾ فى قوله تعالى ثم استوى على العرش (اعلم) أنه لا يمكن أن يكون المراد من كونه مستويا على العرش أنه مستقر على العرش كما يخطر ببالنا ويدل على فساده وجوه عقلية ووجوه نقلية أما العقلية (فأولها) أنه لو كان مستقرا على العرش لكان من الجانب الذى يلى العرش متناهيا والا لزم كون العرش داخلا فى ذاته وهو محال وكل ما كان متناهيا فان العقل يقضى بأنه لا يمتنع أن يصير أزيد منه أو أنقص منه ولو بذرة والعلم بهذا الجواز ضرورى فلو كان البارى تعالى متناهيا من بعض الجوانب لكانت ذاته قابلة للزيادة والنقصان وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بذلك المقدار المعين محتاجا الى تخصيص مخصص وتقدير مقدر وكل ما كان كذلك فهو محدث فثبت أنه تعالى لو كان مستقرا على العرش لكان من الجانب الذى يلى العرش متناهيا ولو كان كذلك لكان محدثا وهذا محال فكونه جالسا ومستقرا على العرش يجب أن يكون محالا (وثانيها) لو كان فى مكان وجهة محصورة لكان اما أن يكون غير متناه من كل الجهات واما أن يكون متناهيا من كل الجهات واما أن يكون متناهيا من بعض الجهات دون البعض والكل باطل فالقول بكونه فى المكان والحيز باطل قطعا * بيان فساد القسم الاول هو أنه يلزم أن تكون ذاته مخالطة لجميع الاجسام السفلية والعلوية وأن تكون مخالطة للقاذورات والنجاسات وتعالى الله عنه وأيضا على هذا التقدير تكون السموات حالة فى ذاته وتكون الارض أيضا حالة فى ذاته اذا ثبت هذا فنقول الشئ الذى هو محل السموات اما أن

يكون هو عين الشئ الذى هو محل الارضين أو غيره فان كان الاول لزم كون السموات والارضين حالتين فى محل واحد من غير امتياز بين محليهما أصلا وكل حالين حلا فى محل واحد لم يكن أحدهما ممتازا عن الآخر فلزم أن يقال السموات لا تمتاز عن الارضين فى الذات وذلك باطل وان كان الثانى لزم أن تكون ذات الله تعالى مركبة من الاجزاء والابعاض وهو محال (والثانى) وهو أن ذات الله تعالى اذا كانت حاصلة فى جميع الاحياز والجهات فاما أن يقال الشئ الذى حصل فوق هو عين الشئ الذى حصل تحت فحينئذ تكون الذات الواحدة قد حصلت دفعة واحدة فى أحياز كثيرة وان عقل ذلك فلم لا يعقل أيضا حصول الجسم الواحد فى أحياز كثيرة دفعة واحدة وهو محال فى بديهة العقل وأما ان قيل ان الشئ الذى حصل فوق غير الشئ الذى حصل تحت فحينئذ يلزم حصول التركيب والتبعيض فى ذات الله تعالى وهو محال (وأما الاول) وهو أن يقال انه تعالى متناه من كل الجهات فنقول ما كان كذلك فهو قابل للزيادة والنقصان فى بديهة العقل وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بالمقدار المعين لاجل تخصيص مخصص وكل ما كان كذلك فهو محدث وأيضا فان جاز أن يكون الشئ المحدود من كل الجوانب قديما أزليا فاعلا للعالم فلم لا يعقل أن يقال خالق العالم هو الشمس أو القمر أو كوكب آخر وذلك باطل باتفاق (وأما القسم الثالث) وهو أن يقال انه متناه من بعض الجوانب وغير متناه من سائر الجوانب فهذا أيضا باطل من وجوه (أحدها) أن الجانب الذى صدق عليه كونه متناهيا غير ما صدق عليه كونه غير متناه والا لصدق النقيضان معا وهو محال واذا حصل التغاير لزم كونه تعالى مركبا من الاجزاء والابعاض (وثانيها) أن الجانب الذى صدق حكم العقل عليه بكونه متناهيا اما أن يكون مساويا للجانب الذى صدق حكم العقل عليه بكونه غير متناه واما أن لا يكون والاول باطل لان الاشياء المتساوية فى تمام الماهية كل ما صح على واحد منها صح على الباقى واذا كان كذلك فالجانب الذى هو غير متناه يمكن أن يصير متناهيا والجانب الذى هو متناه يمكن أن يصير غير متناه ومتى كان الامر كذلك كان النمو والذبول والزيادة والنقصان والتفرق والتمزق على ذاته ممكنا وكل ما كان كذلك فهو محدث وذلك على الاله القديم محال فثبت أنه تعالى لو كان حاصلا فى الحيز والجهة لكان اما أن يكون غير متناه من كل الجهات واما أن يكون متناهيا من كل الجهات أو يكون متناهيا من بعض الجهات وغير متناه من سائر الجهات فثبت أن الاقسام الثلاثة باطلة فوجب أن نقول القول بكونه تعالى حاصلا فى الحيز والجهة محال (وثالثها) لو كان البارى تعالى حاصلا فى المكان والجهة لكان الامر المسمى بالجهة اما أن يكون موجودا مشارا اليه واما أن لا يكون كذلك والقسمان باطلان فكان القول بكونه تعالى حاصلا فى الحيز والجهة باطلا

﴿أما بيان فساد القسم الاول﴾ فلانه لو كان المسمى بالحيز والجهة موجودا مشارا اليه فحينئذ يكون المسمى بالحيز والجهة بعدا وامتدادا والحاصل فيه أيضا يجب أن يكون له فى نفسه بعد وامتداد والا امتنع حصوله فيه وحينئذ يلزم تداخل البعدين وذلك محال للدلائل الكثيرة المشهورة فى هذا الباب وأيضا فيلزم من كون البارى تعالى قديما أزليا كون الحيز والجهة

أزليين وحينئذ يلزم أن يكون قد حصل فى الازل موجود قائم بنفسه سوى الله تعالى وذلك باجماع أكثر العقلاء باطل

﴿وأما بيان فساد القسم الثانى فهو من وجهين﴾ أحدهما أن العدم نفى محض وعدم صرف وما كان كذلك امتنع كونه ظرفا لغيره وجهة لغيره (وثانيهما) ان كل ما كان حاصلا فى جهة فجهته ممتازة فى الحس عن جهة غيره فلو كانت تلك الجهة عدما محضا لزم كون العدم المحض مشارا اليه بالحس وذلك باطل فثبت أنه تعالى لو كان حاصلا فى حيز وجهة لأفضى الى أحد هذين القسمين الباطلين فوجب أن يكون هذا القول باطلا (فان قيل) فهذا أيضا وارد عليكم فى قولكم الجسم حاصل فى الحيز والجهة (فنقول) نحن على هذا الطريق لا نثبت للجسم حيزا ولا جهة أصلا البتة بحيث تكون ذات الجسم نافذة فيه وسارية فيه بل المكان عبارة عن السطح الباطن من الجسم الحاوى المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوى وهذا المعنى محال بالاتفاق فى حق الله تعالى فسقط هذا السؤال

﴿البرهان الرابع﴾

لو امتنع وجود البارى تعالى الا بحيث يكون مختصا بالحيز والجهة لكانت ذات البارى مفتقرة فى تحققها ووجودها الى الغير وكل ما كان كذلك فهو ممكن لذاته فينتج أنه لو امتنع وجود البارى الا فى الجهة والحيز لزم كونه ممكنا لذاته ولما كان هذا محالا كان القول بوجوب حصوله فى الحيز محالا

بيان المقام الاول وهو امتناع حصول ذات الله تعالى الا اذا كان مختصا بالحيز والجهة (فنقول) لا شك أن الحيز والجهة أمر مغاير لذات الله تعالى فحينئذ تكون ذات الله تعالى مفتقرة فى تحققها الى أمر يغايرها وكل ما افتقر تحققه الى ما يغايره كان ممكنا لذاته والدليل عليه أن الواجب لذاته هو الذى لا يلزم من عدم غيره عدمه والمفتقر الى الغير هو الذى يلزم من عدم غيره عدمه فلو كان الواجب لذاته مفتقرا الى الغير لزم أن يصدق عليه النقيضان وهو محال فثبت أنه تعالى لو وجب حصوله فى الحيز لكان ممكنا لذاته واجبا لذاته وهو محال *(وبيان المقام الثانى فى تقرير هذه الحجة)* هو أن الممكن محتاج الى الحيز والجهة أما عند من يثبت الخلاء فلا شك أن الحيز والجهة تقرر مع عدم التمكن وأما عند من نفى الخلاء فلا لانه وان كان معتقدا أنه لا بد من متمكن يحصل فى الجهة الا أنه لا يقول بأنه لا بد لتلك الجهة من متمكن معين بل أى شئ كان فقد كفى فى كونه شاغلا لذلك الحيز اذا ثبت هذا فلو كانت ذات الله تعالى محتاجة الى الحيز والجهة لزم كونه جسما ومشابهته للحوادث وقد علم أنهما محالان فى حقه تبارك وتعالى لما تقرر من الدلائل فثبت أن الله تعالى منزه عن الجسمية والعرضية والجوهرية والحلول فى مكان أو جهة

(المسئلة السادسة) اعلم أنه سبحانه وتعالى أمر بعبادته والامر بعبادته موقوف على معرفة وجوده ولما لم يكن العلم بوجوده ضروريا بل استدلاليا لا جرم أورد ههنا ما يدل على وجوده واعلم أنا بينا فى الامور العقلية أن الطريق الى اثبات وجوده سبحانه وتعالى اما

الامكان واما الحدوث واما مجموعهما وكل ذلك اما فى الجواهر أو فى الاعراض فيكون مجموع الدلائل الدالة على وجوده سبحانه وتعالى ستة لا مزيد عليها (أحدها) الاستدلال بامكان الذوات واليه الاشارة بقوله تعالى والله الغنى وأنتم الفقراء وبقوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام فانهم عدو لى الا رب العالمين وقوله وأن الى ربك المنتهى وقوله قل هو الله أحد الله الصمد وقوله قل الله ثم ذرهم وقوله ففروا الى الله وقوله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (وثانيها) الاستدلال بامكان الصفات واليه الاشارة بقوله تعالى خلق السموات والارض وبقوله الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء (وثالثها) الاستدلال بحدوث الاجسام واليه الاشارة بقوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين وسيأتى (ورابعها) الاستدلال بحدوث الاعراض وهذه الطريقة أقرب الطرق الى أفهام الخلق وذلك محصور فى أمرين دلائل الانفس ودلائل الآفاق والكتب الالهية فى الاكثر مشتملة على هذين البابين والله تعالى جمع ههنا بين هذين الوجهين * أما دلائل الانفس فهى أن كل أحد يعلم بالضرورة أنه ما كان قبل ذلك وأنه صار الآن موجودا وأن كل ما وجد بعد العدم فلا بد له من موجد وذلك الموجد ليس هو نفسه ولا الابوين ولا سائر الناس لان عجز الخلق عن مثل هذا التركيب معلوم بالضرورة فلا بد من موجد يخالف هذه الموجودات حتى يصح منه ايجاد هذه الاشخاص الا أن لقائل أن يقول ههنا لم لا يجوز أن يكون المؤثر طبائع الفصول والافلاك والنجوم ولما كان هذا السؤال محتملا ذكر الله تعالى عقبه ما يدل على افتقار هذه الاشياء الى المحدث والموجب وهو قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وهو المراد من دلائل الآفاق ويندرج فيها كل ما يوجد من تغيرات أحوال العالم من الرعد والبرق والرياح والسحاب واختلاف الفصول * وحاصلها يرجع الى أن الاجسام الفلكية والاجسام العنصرية مشتركة فى الجسمية فاختصاص بعضها ببعض الصفات من المقادير والاشكال والاحياز لا يمكن أن يكون للجسمية ولا لشئ من لوازمها والا وجب الاشتراك فى الكل بتلك الصفات فلا بد وأن يكون الامر منفصلا وذلك الامر ان كان جسما عاد البحث فى أنه لم اختص بتلك المؤثرية من بين تلك الاجسام وان لم يكن جسما فاما أن يكون موجبا أو مختارا والاول باطل والا لم يكن اختصاص بعض الاجسام ببعض الصفات أولى من العكس فلا بد وأن يكون قادرا فثبت بهذه الدلالة افتقار جميع الاجسام الى مؤثر قادر ليس بجسم ولا جسمانى وعند هذا ظهر أن الاستدلال بحدوث الاعراض على وجود الصانع لا يكفى الا بعد الاستعانة بامكان الاعراض والصفات اذا عرفت هذا فنقول ان الله تعالى انما خص هذا النوع من الدلالة بالايراد فى أول كتابه لوجهين (الاول) أن هذا الطريق لما كان أقرب الطرق الى أفهام الخلق وأشدها التصاقا بالعقول وكانت الادلة المذكورة فى القرآن يجب أن تكون أبعدها عن الدقة وأقربها الى الافهام لينتفع به كل أحد من الخواص والعوام لا جرم أن الله ذكره فى أول كتابه (الثانى) أنه ليس الغرض من الدلائل القرآنية المجادلة بل الغرض منها تحصيل العقائد الحقية فى القلوب وهذا النوع من

الدلائل

الدلائل أقوى من سائر الطرق فى هذا الباب لان هذا النوع من الدلائل كما يفيد العلم بوجود الخالق فهو يذكر نعم الخالق علينا فان الوجود والحياة من النعم العظيمة علينا وتذكير النعم مما يوجب المحبة وترك المنازعة وحصول الانقياد فلهذا السبب كان ذكر هذا النوع من الادلة أولى من سائر الانواع (واعلم) أن للسلف طرقا طريفة فى هذا الباب (أحدها) يروى أن بعض الزنادقة أنكر الصانع عند جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه فقال جعفر هل ركبت البحر قال نعم قال هل رأيت أهواله قال بلى هاجت يوما رياح هائلة فكسرت السفن وغرقت الملاحين فتعلقت أنا ببعض ألواحها ثم ذهب عنى ذلك اللوح فاذا أنا مدفوع فى تلاطم الامواج حتى دفعت الى الساحل فقال جعفر قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى تنجيك فلما ذهبت هذه الاشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك أم كنت ترجو السلامة بعد قال بل رجوت السلامة قال ممن كنت ترجوها فسكت الرجل فقال جعفر ان الصانع هو الذى كنت ترجوه فى ذلك الوقت وهو الذى أنجاك من الغرق فأسلم الرجل (وثانيها) جاء فى كتاب ديانات العرب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعمران بن حصين كم لك من اله قال عشرة قال فمن لغمك وكربك ودفع الامر العظيم اذا نزل بك من جملتهم قال الله قال عليه السلام مالك من اله الا الله (وثالثها) كان أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه سيفا على الدهرية وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه فبينما هو يوما فى مسجده قاعدا اذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله فقال لهم أجيبونى عن مسئلة ثم افعلوا ماشئتم فقالوا له هات فقال ماتقولون فى رجل يقول لكم انى رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوأة من الاثقال قد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها هل يجوز ذلك فى العقل قالوا لا هذا شئ لا يقبله العقل فقال أبو حنيفة ياسبحان الله اذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جميعا وقالوا اصدقت وأغمدوا سيوفهم وتابوا فلله الحمد (ورابعها) سألوا الشافعى رضى الله تعالى عنه ما الدليل على وجود الصانع فقال ورقة التوت طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم قالوا نعم قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم والنحل فيخرج منها العسل والشاة فتربى اللحم ويخرج اللبن ويأكلها الظباء فتتغذيها وينعقد فى نوافجها المسك فمن الذى جعل هذه الاشياء متنوعة الافرازات والغذاء واحد فاستحسنوا منه ذلك وتابوا (وخامسها) سئل أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه مرة أخرى فتمسك بأن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس فدل على الصانع (وسادسها) تمسك أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه بقلعة حصينة ملساء لافرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الابريز ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلابد من الفاعل وعنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ وبالفضة البياض وبالذهب الصفار وقال لهم اسمعوا وانظروا عمل الصانع البياض والصفار * والطيور تتولد من البيض الذى هو مكون من ثلاثة

أجزاء وهي القشرة والزلال والمح وعند انفصال البيضة من المبيض لا تكون مكونة الا من المح فقط ثم تتغطى بالمادة الزلالية المنفرزة وبعده تتغطى بالقشرة وهذه القشرة هي التي تغلفها وتقيها ويوجد في أسفل القشرة غشاء رقيق جدا ويوجد في المح هيئة درنة هلامية هي الجرثومة ولاجل نمو هذه تحتاج البيضة للتلقيح ولذا ترقد اناث الطيور على بيضها وبيض أغلب الطيور غذاء جيد اذا أمكن الحصول عليه قبل أن يتلف بمضي الزمان عليه والدجاج يحصل منه بيض كثير المقدار وبيض الدجاج هو أول غذاء تأمر به الاطباء للناقهين وللذين تهضم معدتهم اللحوم والاطعمة المعتادة بعسر وهو يناسب الاشخاص الذين هم في حالة الصحة أيضا وكل دجاجة يحصل منها في السنة الواحدة خمسون بيضة فبعد أن تبيض منها البيض في فصل الربيع تستشعر بالاحتياج للرقود على البيض فتظهره بصراخ مخصوص وقشر البيض اذا كلس أو جفف يستعمل في الطب مجففا ويستعمل الزلال بنجاح في بعض التسممات والمح أيضا له استعمالات ويخرج منه زيوت نافعة فلا بد من الفاعل المختار (وسابعها) سأل هارون الرشيد مالكا رضي الله تعالى عنه عن ذلك فاستدل باختلاف الاصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات واختلاف الحيوانات (وثامنها) سئل أبو نواس عنه فقال

تأمل في نبات الارض وانظر * الى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات * بأحداق كما الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

(وتاسعها) سئل اعرابي عن الدليل فقال البعرة تدل على البعير والروث على الحمير وآثار الاقدام على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أما تدل على الصانع الحكيم القدير العليم الحليم (وعاشرها) سئل طبيب بم عرفت ربك فقال باهليلج يجفف أطلق ولعاب ملين أمسك وعلامات موت أشفى وعلامات صحة أميت (وحادي عشرها) حكم الله تعالى بهيئة يعترف بها كل عاقل قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقال تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين

مقالة مهمة

في بيان قوله تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) وفيه مسائل

(المسئلة الاولى) ان هذا النوع أيضا من الدلائل الدالة على كمال القدرة والرحمة والحكمة وهو أنه تعالى خلق هذه النجوم لمنافع العباد * وهي من وجوه (الوجه الاول) انه تعالى خلقها ليهتدي الخلق بها الى الطرق والمسالك في ظلمات البر والبحر حيث لا يرون شمسا ولا قمرا لانه عند ذلك يهتدون بها الى المسالك والطرق التي تريدون المرور بها (الثاني) هو أن الناس يستدلون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة ويستدلون بحركة الشمس في النهار على القبلة ويستدلون بأحوال الكواكب في الليالي على معرفة القبلة أيضا (الثالث) أنه تعالى ذكر في غير هذه الآية كون هذه الكواكب زينة للسماء

فقال تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) وقال تعالى (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) وقال تعالى (والسماء ذات البروج) الرابع يمكن أن يقال لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر أى فى ظلمات التعطيل والتشبيه فان المعطل ينفى كونه تعالى فاعلا مختارا والمشبه يثبت كونه تعالى جسما مختصا بالمكان فهو تعالى خلق هذه النجوم ليهتدى بها فى هذين النوعين من الظلمات أما الاهتداء بها فى ظلمات بر التعطيل فذلك لانا نشاهد هذه الكواكب مختلفة فى صفات كثيرة فبعضها سيارة أى كواكب ليلية وبعضها ثابتة والثوابت بعضها فى المنطقة و بعضها فى القطبين وأيضا الثوابت لامعة والسيارة أجسام معتمة وأيضا بعضها كبيرة درية عظيمة الضوء وبعضها صغيرة خفية قليلة الضوء فمن هذا قدر وامقادير ها على سبع مراتب * اذا عرفت هذا فنقول قد دللنا على أن الاجسام متماثلة وبينا أنه متى كان الامر كذلك كان اختصاص كل واحد منها بصفة معينة دليلا على أن ذلك ليس الا بتقدير الفاعل المختار فهذا وجه الاهتداء بها فى ظلمات بر التعطيل وأما وجه الاهتداء بها فى ظلمات بحر التشبيه فنقول انه لا عيب يقدح فى الهية هذه الكواكب الا أنها أجسام فتكون مؤلفة من الاجزاء والابعاض وأيضا انها متناهية ومحدودة وأيضا انها متغيرة ومتحركة ومنتقلة من حال الى حال فهذه الاشياء ان لم تكن عيوبا فى الالهية امتنع الطعن فى الهيتها وان كانت عيوبا فى الالهية وجب تنزيه الاله عنها بأسرها فوجب الجزم بأن اله العالم والسماء والارض منزه عن الجسمية والاعضاء والابعاض والحد والنهاية والمكان والجهة فهذا بيان الاهتداء بهذه الكواكب فى بر التعطيل بحر التشبيه وهذا وان كان عدولا عن حقيقة اللفظ الى مجازه الا أنه قريب مناسب لعظمة كتاب الله (الوجه الخامس) فى منافع هذه الكواكب وهى ماذكره الله تعالى فى قوله ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا فنبه على سبيل الاجمال على أن فى وجود كل واحد منها حكمة عالية ومنفعة شريفة وليس كل مالا يحيط عقلنا به على التفصيل وجب نفيه فمن أراد أن يقدر حكمة الله تعالى فى ملكه وملكوته بمكيال خياله ومقياس قياسه فقد ضل ضلالا مبينا * ثم انه تعالى لما ذكر الاستدلال بأحوال هذه النجوم قال تعالى قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون اذا علمت ذلك فاعلم أن النجوم الثوابت تنقسم بالنسبة الى لمعانها الى سبع مراتب فى العظم (فأولها) ذات العظم الاول (وثانيها) ذات العظم الثانى الى آخرها ولا يمكن رؤية ذات العظم السابع أو الثامن (ثم انه يوجد) فى السماء بعض أشياء مبيضة مسماة بالسحابية (فنها) ماهو متألف من تراكم جملة نجوم (ومنها) ماهو متألف من اجتماع جملة مواد مبيضة والمجرة التى هى فى صورة عصابة مستطيلة عارية عن الانتظام ذات ابيضاض تمر فى السماء من الشمال الى الجنوب تسميها العامة بدرب التبان ليست الا جملة سحابات متألفة * ثم انك اذا توهمت فى السماء دوائر متوازية وخطوط أنصاف النهار مقابلا كل منها للدوائر المتوازية التى على الارض وخطوط أنصاف النهار التى بها كل لنظيره ظهر لك أن أهل دائرة الاستواء الارضية ترى كواكب دائرة معدل النهار السماوية تمر على سمت رؤسهم وكان كل من قطبى

السماء فى أفقهم وسائر النجوم تخط نصف دائرة عمودا على الافق فلذلك كان أهل هذا السمت يسمون أرباب الفلك المستقيم فيمكنهم رؤية سائر أجزاء السماء على الولاء واذا تاملت الى سكان القطبين ظهر لك أن النجوم ترسم حول القطب دائرة موازية للافق الذى يختلط مع دائرة الاستواء فيقال حينئذ لسكان القطبين أرباب الفلك المتوازى فتظهر حينئذ نجمة القطب فى سمت رؤسهم ونجوم معدل النهار تكون فى أفقهم ولا تخفى على أعينهم أبدا نجوم نصف الكرة التى هم ساكنون فى قطبها ولا يرون شيأ من نجوم النصف الآخر الذى قطبه معارض لقطبهم الذى هم عليه واذا تأملت ما بين دائرة الاستواء وكلا القطبين ظهر لك أن النجوم ترسم دوائر يعظم ميلها على الافق على حسب عظم القرب من القطب فيسمى سكان هذه النواحى أرباب الفلك المائل ونجمة القطب تكون دائما فوق رؤسهم وكذلك سائر النجوم المجاورة وارتفاع نجمة القطب عندهم يكون عدد درجه قدر عدد درج عرض المكان الذى يقع فيه الرصد فيمكن أن يؤخذ بارتفاع نجمة القطب درجة العرض ولا يمكن أن ترى فى مكان النجوم المجاورة للقطب المقابل أصلا على مسافة مساوية لمسافة ما تبصره من نجوم القطب الاول * ولما كانت تسمية أفراد النجوم بأسماء مخصوصة على هيئة حيوان أو صنم على ما مثله القدماء قسموه بالنسبة للوجود فى شمال منطقة البروج أو فى جنوبها الى قسمين

الاول الصور الشمالية	الثانى الصور الجنوبية
بنات نعش وهما الدب الاكبر والاصغر	قيطس الحرباء
ذات الكرسى	الحوت الجنوبى
المجمرة الملتهبة الشمالية	الفسق وهو الخيار
الفرس النائى	الشعرة اليمانية
المرأة المسلسلة	الشعرة الشامية
الثعبان	نهر الاردن
برشاوش	الارنب
ذو القبان	الشجاع
الزرافة	الغراب
المثلث الشمالى	الباطية
الفهد	السفينة
الاسد	الكركدان
العواء	قنطورس
الاكليل الشمالى	الذئب
السهم	النعامة
النسر الواقع	النظارة
الدجاجة	المجمرة الجنوبية

النسر الطائر
الاكليل الجنوبي
اذطينوس
الغرنوق الكركي
الدلفين
العنقاء
الفرس الاول
الطاوس الهندي
الحية
المثلث الجنوبي
الجاثي على ركبتيه
الحوت ذو الجناح

الحوت المذهب
غلام الهند
الذبابة الجنوبية
الشجاع الذكر

وهذه الكواكب غير الكواكب التي في منطقة البروج مثل الدبران والقلايص والثريا وغير ذلك

(المسئلة الثانية) اعلم أن في قوله تعالى وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر اشارة الى أن كل شيء من الاشياء المذكورة خلقه على وفق الحكمة فعين تعالى أوضاع النجوم والكواكب في الكرة السماوية ومنها تتعين أوضاع الاماكن الارضية فالخطوط والدوائر والمدارات كما هي منقسمة في الكرة السماوية كذلك هي منقسمة أيضا في الكرة الارضية فالخط الذي يدل على دائرة وسط فلك البروج هي دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف وهي بيضاء تمتد الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف من دائرة الاستواء وهاتان الدائرتان تسميان المدارين وهما يدلان على موضع الشمس التي تنتهي اليه في الصعود ثم تهبط الى مثل محلها الذي صعدت منه وهكذا وأما الدائرتان القطبيتان فهما على البعد من القطب بثلاث وعشرين درجة ونصف وهما ما يكون عليهما النهار الدائم والليل الدائم مدة كون الشمس في نقطتي الانقلابين ثم ان المدارين ودائرتي القطب يقسمان الارض الى خمسة مناطق منطقة شديدة الحرارة ومنطقتان معتدلتان ومنطقتان شديدتا البرودة فالاولى هي مابين المدارين وفيها أشد الاماكن حرا بسبب وجود الشمس دائما في سمت بعض نقطها ويسمى أهلها أرباب الظلين لان الشمس في وجودها في نصف النهار تنبعث أشعتها في تلك المواضع ستة أشهر جهة الشمال وفي الستة الاشهر الاخرى يمتد الشعاع جهة الجنوب والثانية والثالثة كل منهما بين احد المدارين ودائرة قطبيه ولا تكون الشمس في سمت رأس أهلهما أبدا فيسمى أهلهما أرباب اختلاف الظل لان أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس في الجنوب وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية يرونها في الشمال وأما الرابعة والخامسة فاحداهما من مبدا الدائرة القطبية الشمالية الى القطب الشمالي والاخرى من مبدا الدائرة الجنوبية الى القطب الجنوبي وفيهما غاية اشتداد البرودة ويسمى أهلهما

أرباب الظل الدوار

(المسئلة الثالثة) اذا علمت هذا أيضا فاعلم أن منافع النجوم كثيرة (منها) أن الله تعالى زين السماء بها كما تقدم (ومنها) أنه يحصل بسببها فى الليل قدر من الضوء (ومنها) أنه يحصل بسببها تفاوت فى الفصول الاربعة فانها أجسام عظيمة نورانية (ومنها) أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر بدليل قوله تعالى وعلامات وبالنجم هم يهتدون ذكر تعالى أنه أظهر فى البر والبحر علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها الى مقصوده فقال وعلامات والمراد بالعلامات معالم الطرق وهى الاشياء التى يهتدون بها * وهذه العلامات قسمان كلية وجزئية * فالكلية هى ما رسم اقليما تاما أو قسما من الارض أو الارض بتمامها فاذا كانت الارض بتمامها مرسومة سميت كرة * والجزئية هى ما يرسم بلدة أو قسما ويسمى كتاب الطريق الذى يسلك به الملاحون فى البحر ويهتدون به الى معرفة المراسى وغيرها فيرسم عليها سواحل البحر أو البحر نفسه والبلاد وقال الاخفش رأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطريق * وقوله وبالنجم هم يهتدون المراد بالنجم الجنس كقولك كثر الدرهم فى أيدى الناس وعن السدى هو الثريا والفرقدان وبنات نعش وسهيل ومكول شيث وغير ذلك وقرأ الحسن وبالنجم بضمتين وبضمة فسكون وهو جمع نجم كرهن ورهن والسكون تخفيف وقيل حذف الواو من النجم تخفيفا * واختلف المفسرون فمنهم من قال قوله وبالنجم هم يهتدون مختص بالبحر لانه تعالى لما ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين تعالى أن من يسيرون فيه يهتدون بالنجم * ومنهم من قال بل هو مطلق يدخل فيه السير فى البر والبحر فلذلك تنقسم الكرة السماوية وتنقسم الكرة الارضية بما انقسمت به الكرة السماوية وهذا القول أولى لانه أعم فى كونه نعمة ولان الاهتداء بالنجم قد يحصل بانقسام الكرتين معا ومن الفقهاء من يجعل ذلك دليلا على أن المسافر اذا عميت عليه القبلة فانه يجب عليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات التى فى الارض وهى الجبال والرياح وذلك صحيح لانه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات فى معرفة الطرق والمسالك فكذلك يمكن الاستدلال بها فى معرفة طلب القبلة (واعلم) أن اشتباه القبلة اما أن يكون بعلامات لائحة أو لا يكون فان كانت لائحة أوجب أن يجب الاجتهاد ويتوجه الى حيث غلب على الظن أنه هو القبلة * وقوله تعالى أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر المراد يهديكم بالنجوم فى السماء والعلامات فى الارض اذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر وأسهل العلامات أن ترسم هيئة الكرة لكن لما كانت مستديرة كروية لا يمكن رسمها واحضار صورتها على وجه محرر الا بكرة ولكن بعدة طرق توصل الى احضار سطحها على الورق مع حفظ التناسب بين المسافات على وجه تقريبي * وبيان ذلك أن تكون الصورة مسطوحة على شكل الكرة الارضية أو بعض أجزائها لتدل على وضع البلاد والاقاليم والجبال والبحور والانهر والمدائن وغيرها ولا بد أن تكون مقادير الارض عليها متناسبة كوجودها على الارض وتكون معلمة بدوائر الخطوط السماوية بحساب درجة العرض ودرجة الطول

﴿مقالة جميلة﴾

في بيان قوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) اعلم أن الله تعالى تارة يبدأ بدلائل الانفس وبعدها بدلائل الآفاق كما في هذه الآية وذلك لان نفس الانسان أقرب الاشياء اليه فلاجرم بدأ بالاقرب وتارة يبدأ بدلائل الآفاق ثم بدلائل الأنفس امالان دلائل الآفاق أبهر وأعظم فوقعت البداءة بها لهذا السبب أولا ـ حل أن دلائل الأنفس حاضرة ظاهرة لاحاجة للعاقل الى التأمل فيها انما الذي يحتاج الى التأمل فيه دلائل الآفاق لان الشبه فيها أكثر فلاجرم وقعت البداءة بها وفيها سؤالات

(السؤال الاول) قوله سبع سموات طباقا يقتضى كون بعضها منطبقا على البعض وهذا يقتضى أن لايكون بها فرج *والجواب أنه يحتمل أن يكون المراد بكونها طباقا كونها متوازية لان كل كوكب يحيز وهذه الكواكب مجموع الاجرام السماوية الفلكية المالئة للفضاء وليس لتلك الاجرام حد معلوم كما أن القدرة الالهية لاحصر لتعلقاتها ويحتمل أن تكون طباقا باعتبار حركاتها وحيزها وطبيعتها فانها تنقسم الى نجوم تسمى بشموس وكواكب وتوابع وذوات أذناب وكلها بحسب الظاهر طبقات على حسب البعد عنا

(السؤال الثاني) ان النجوم يشرق منها ضوء مخصوص بها والشمس هي نجمة من تلك يظهر لنا زيادة ضوئها واتساع قطرها بسبب قربها الينا بخلاف غيرها من النجوم اذ منها مالا يتيسر لنا مشاهدته لافراط البعد بيننا وبينه

(السؤال الثالث) كيف قال وجعل القمر فيهن نورا والقمر ليس فيها بأسرها (فالجواب) هذا كما يقال السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع أحياز العراق بل ذاته في حيز من جملة أحياز العراق فكذا ههنا أو أن المراد بالقمر عامة الكواكب السيارة وذلك أن للارض تابعا واحدا وهو القمر وللمشترى على ماقالوا أربعة أقمار ولزحل سبعة وله أيضا خاتم وهذا المراد بقوله وجعل القمر فيهن نورا (فائدة) اعلم أن أهل الهيئة قد أظهروا بالأرصاد أن صورة ماعدا عطارد والزهرة من الكواكب السيارة تشبه صورة الارض في كونها منتفخة جهة خط الاستواء ومبطوطة جهة القطبين وهذه الكواكب السيارة جميعها تسمى بالكواكب اللبلبية* فان قلت ان السراج ضوؤه عرضى وضوء القمر عرضى متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولى من تشبيه الشمس به* فالجواب أن الليل عبارة عن ظل الارض والشمس لما كانت سببا لزوال ظل الارض كانت شبيهة بالسراج وأيضا فالسراج له ضوء والضوء أقوى من النور فجعل تعالى الاضعف للقمر والاقوى للشمس فلذلك قال تعالى وجعل الشمس سراجا

﴿في بيان قوله تعالى الذي خلق سبع سموات طباقا وفيه مسائل﴾

(الاولى) ذكر صاحب الكشاف في طباقا ثلاثة أوجه (أولها) طباقا أي مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل اذا خصفها طبقا على طبق وهذا وصف بالمصدر (وثانيها) أن يكون التقدير ذات طباق (وثالثها) أن يكون التقدير طوبقت طباقا

(المسئلة الثانية) دلالة هذه السموات على قدرة الله تعالى من وجوه (أحدها) من حيث انها بقيت في جو الخلاء معلقة بلا عماد ولا سلسلة (وثانيها) من حيث أن كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ماهو أزيد منه وأنقص (وثالثها) لاحصر لتلك الاجرام بحيث يظهر كأن السماء كلها مغطاة بها اذا شوهدت ومقاديرها الظاهرة غير محررة ومقاديرها الحقيقية مجهولة وتنقسم بالنظر لتلك المقادير الى نجوم من القدر الاول والثاني والثالث وهكذا وماوراء القدر السادس لايشاهد جيدا لكثرة البعد عنا (ورابعها) أنه اختص كل واحد بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء الى جهة معينة (وخامسها) كونها في ذواتها محدثة وكل ذلك يدل على استنادها الى قادر تام القدرة كما قال تعالى والى السماء كيف رفعت أي رفعا بعيد المدى بلا امساك وبغير عمد والبعد بيننا وبينها مجهول وأظن أن أقربها الينا يكون بعده عنا أقله مائة ألف قدر بعد الشمس عنا ولو قدر أن مجموعنا الشمس في هذا البعد لاستندعنا في سمك خيط من حرير والبعد بينها وبين بعضها أعني مواضعها بالنسبة لبعضها يظهر أنه لايتغير أصلا كما قال تعالى وبنينا فوقكم سبعا شدادا أي سبع سموات شدادا جمع شديدة يعني محكمة قوية الخلق لايؤثر فيها مرور الزمان فاذا علمت هذا فاعلم أن الكرة الارضية محاطة من جميع جهاتها بجسم شفاف هو خليط من جواهر قابلة كما قلنا لأن تبقى هوائية في الحرارة الاعتيادية والضغط الاعتيادي وهذه الطبقة الغير المشاهدة تسمى بالجو وتحيط بالارض كلفافة تكاد أن تكون تامة الشفافية وان كانت عظيمة السمك جدا وجميع مايوجد على سطح الارض يقذف في ذلك الجو كما قلنا آنفا جواهر مختلفة تختلط ببعضها أو تتحد أو تحلل فتنتشر بها ثانيا الكائنات التي صعدتها أولا لكن بهيئة أخرى وشكل جديد وهذا الجو مؤلف من طبقات كثيرة تتناقص كثافتها كلما بعدت عن سطح الارض وهذه الطبقات التي ارتفاعها الى سمكها ثمانية وأربعون ميلا تقريبا ليست قوية الكثافة حتى تمنع انعكاس الضوء أو انكساره وأهل الهيئة جعلوا هذه المسافة حدا للجو لكن يقال هل هذا الحد حقيقي بحيث يوجد وراءه خلو تام هذا غير مظنون لأنه لايوجد في الكون خلو مطلق فيما وراء ذلك ومع ذلك فليس فراغا مطلقا فالجو فيها لابد وأن يكون متخلخلا خلخلة يعسر معرفتها بالحساب ويأخذ هذا التخلخل في الزيادة حتى يصل الى المحل الذي تنتهي اليه القوة التي وضعها الله تعالى فيه لجذب الارض فالموجود من القوى قوتان احداهما القوة الجاذبة الى المركز والثانية القوة الدافعة عن المركز فلما انضمت هذه القوة الى القوة الاولى حصل في الكواكب قوة تماسك شديدة وهذه القوة قوة قدرة الله تعالى * ونظيره قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا (فان قيل) لفظ البناء يستعمل في أسافل البيت والسقف في أعلاه فكيف قال وبنينا فوقكم سبعا (قلنا) البناء يكون أبعد عن الآفة والانحلال من السقف فذكر قوله وبنينا اشارة الى أنه وان كان سقفا لكنه في البعد عن الانحلال كالبناء بتأثير هذه القوة فالغرض من اختيار هذا اللفظ هذه الدقيقة

قوله ولو قدر الخ كذا بالأصل ولعله محرر اه

في بيان قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا وفيه مسائل

(الاولى) أنه تعالى خلق الاجسام وخلق لها قوة التماسك في أجزائها المفردة وخلق منها تعالى قوة الانجذاب في جميع الاجرام هذه تقريرا للتوحيد وابطالا للاشراك في قوله ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ويحتمل أن يقال لما أشركوا بالله كان مقتضى شركهم زوال السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية انه كان حليما غفورا أي ماترك تعذيبهم الا حلما منه والا فكانوا يستحقون اسقاط السماء وانطباق الارض عليهم وانما أخر ازالة السموات الى قيام الساعة حلما ويحتمل أن يكون ذلك من باب التسليم واثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضا كأنه تعالى قال آلهتكم ماخلقوا من الارض شيأ ولا في السماء جزأ ولا قدروا على الشفاعة فلا عبادة لهم وهب أنهم فعلوا شيأ من الاشياء فهل يقدرون على امساك السموات والارض ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لانهم ما كانوا يقولون به كما قال تعالى عنهم ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ويؤيد هذا قوله ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده فاذا تبين أن لا معبود الا الله من حيث ان غيره لم يخلق من الاشياء شيأ وان قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ماخلق فلا شريك له انه كان حليما غفورا

(المسئلة الثانية) ان نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة في قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا مانقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا مايدوم فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفي كل حالة له علينا تعالى نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فالاول خلقه تعالى الاجرام السماوية والارضية ومافيهن والثاني ربط المسببات بأسبابها فالقوى التي بها تركب الأجسام ثلاثة الجذب والاتحاد والتماسك في الجواهر الفردة ومنها جعل تعالى قوة الجذب والدفع بين الأجرام الاول الجذب فهو قوة بها تنضم الاجزاء الفردة الى بعضها وتتقارب حتى يتكون عنها جسم بسيط أو مركب وقد يكون بين أجسام متعددة لمناسبة طبيعية بينها وهي التي بها أيضا تقع الأجسام المنقذفة في الجو ساقطة على الارض ثم انها تزيد فيما بين الأجسام على حسب كبر الكتل وتنقص على حسب بعد المسافة فكلما كبرت الكتل زادت وكلما بعدت بينهما المسافة نقصت وتختلف بالنظر لما تركبت منه الاجسام ولطبيعتها بل ولاجزاء الجسم الواحد اذ كثير من الأجسام ماتنضم أجزاؤه وتتحد بمجرد المماسة ومنها مايحتاج لتوسط درجات من الحرارة أو غيرها وهي بين أجزاء بعض الأجسام أكثر منها بين أجزاء البعض الآخر والقوة الدافعة كذلك في كل ماسبق وكل من قوتي الجذب والدفع معلوم أنهما خاصيتان موجودتان في جميع الاجسام وبهما الكون والفساد وهما موجودان في الانسان أيضا ويسميان بالائتلاف والتنافر ويجدهما الانسان في نفسه اذا نظر الى أشخاص ولو لم يكن

بعرفهم فانه يجد في نفسه أنه يألف منهم بعضا وينفر بعضا (وأما التماسك) فهو قوة الجذب
الحاصلة بين الأجزاء المتماثلة وهو في الجامدات أقوى منه في المائعات ولذا لا تنفصل أجزاء
الصلب من بعضها الا بعنف وأما الغازات فلا تماسك فيما بين أجزائها * وأما الاتحاد فهو قوة
الجذب الحاصلة بين الأجزاء الغير المتماثلة أي الغير المكونة للاجسام البسيطة ويكون بين
جزأين وثلاثة وأربعة وكونه بين خمسة نادر وحالات الاجسام من الصلابة والميوعة والسيولة
لا تمنع من اتحادها فيقع الاتحاد بين الاجسام الجامدة والمائعة وبينهما وبين الهوائية * فاذا
علمت هذا فاعلم أنه تعالى جعل التماسك في الجواهر الفردة أي التي لا تقبل الانقسام فكلما
عظمت الاجسام كانت قابلية الجذب بها أكثر من غيرها لانه تجذب الشيء بقدر عظم الشيء
الجاذب ويضعف جذبها بقدر مربع بعد الشيء المجذوب يعني أن الجاذبية قوية مرتين في جسم
عظيم مرتين وضعيفة أربع مرات في جسم ضعيف مرتين وضعيفة ست عشرة مرة في جسم
بعيد أربع مرات وهكذا فلذلك كانت الكواكب الاصغر كتلة تكون مجذوبة ومرفوعة
من كوكب أكبر منها كتلة فلهذا قال سبحانه وتعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا
ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا وهو سبحانه حكيم خبير خلق
هذه الاشياء بالحكمة والحكمة صفة ثابتة لله تعالى لا يمكن زوالها فيمكن منه ايجاد أمثال
هذه مرة أخرى باحوال غير هذه الاحوال والحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فان من
يعلم أمرا ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم والفاعل الذي فعله على وفق العلم هو الحكيم
وهو الذي يعلم عواقب الامور وبواطنها

* في قوله تعالى والسماء ذات الحبك *

وفي تفسيره مباحث الاول والسماء ذات الحبك قيل الطرايق وعلى هذا فيحتمل أن يكون
المراد طرائق الكواكب وممراتها المجذوبة اليه المحبوكة فيه كما يقال في الحبائك ويحتمل أن
يكون المراد ما في السماء من الاشكال بسبب النجوم أي باعتبار حركاتها وحيزها وطبيعتها
فانها تنقسم الى نجوم تسمى بالشموس وكواكب وتوابع أي أقمار وذوات أذناب وكلها بحسب
الظاهر لها ممرات على حسب دورانها وطبقات على حسب البعد عنا وعلى هذا فالمراد به
السماء المزينة بزينة الكواكب وقيل حبكها اصفاقها يقال في الثوب الصفيق حسن الحبك
أي القوة السارية الممسوكة بها الاجرام وعلى هذا قوله تعالى والسماء ذات الرجع لشدتها
وقوتها

* في قوله تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها *

قوله أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها (فيه مسائل) الاولى في المقصود من هذا الاستدلال
وجهان (الاول) أنه استدلال على منكري البعث فقال تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء
فنبههم على أمر يعلم بالمشاهدة وذلك لان خلق الانسان على صغره وضعفه اذا أضيف الى
خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير فبين تعالى أن خلق السماء أعظم واذا كان

كذلك

كذلك فخلقهم على وجه الاعادة أولى أن يكون مقدور الله تعالى فكيف ينكرون ذلك ونظيره قوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس والمعنى أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء أى عندكم وفى تقديركم فان كلا الامرين بالنسبة الى قدرة الله تعالى واحد (والوجه الثانى) أن المقصود من هذا الاستدلال بيان كونهم مخلوقين وهذا القول ضعيف لوجهين (أحدهما) أن من أنكر كون الانسان مخلوقا فلأن ينكره فى السماء أولى (وثانيهما) أن أول السورة كان فى بيان الحشر والنشر فحمل هذا الكلام عليه أولى

﴿المسئلة الثانية﴾ قال الكسائى والفراء والزجاج هذا الكلام تم عند قوله أم السماء ثم قوله تعالى بناها ابتداء كلام آخر وعند أبى حاتم الوقف على قوله بناها قال لأنه من صلة السماء والتقدير أم السماء التى بناها فحذف التى ومثل هذا الحذف جائز قال القفال يقال الرجل جاءك عاقل أى الرجل الذى جاءك عاقل اذا ثبت أن هذا جائز فى اللغة فنقول الدليل على أن قوله بناها صلة لما قبله أنه لو لم يكن صلة لكان صفة فقوله بناها صفة ثم قوله رفع سمكها صفة فقد توالت صفتان لا تعلق لاحداهما بالأخرى فكان يجب ادخال العاطف فيما بينهما كما فى قوله وأغطش ليلها فلما لم يكن كذلك علمنا أن قوله بناها صلة للسماء ثم قال رفع سمكها ابتداء بذكر صفته وللفراء أن يحتج على قوله بأنه لو كان قوله بناها صلة للسماء لكان التقدير أم السماء التى بناها وهذا يقتضى وجود سماء ما بناها الله وذلك باطل

﴿المسئلة الثالثة﴾ الذى يدل على أنه تعالى هو الذى بنى السماء وجوه وحجج (أحدها) أن السماء جسم وكل جسم محدث لأن الجسم لو كان أزليا لكان فى الازل اما أن يكون متحركا أو ساكنا والقسمان باطلان فالقول بكون الجسم أزليا باطل أما الحصر فلانه اما أن يكون مستقرا من حيث هو فيكون ساكنا أو لا يكون مستقرا من حيث هو فيكون متحركا وانما قلنا انه يستحيل أن يكون متحركا لان ماهية الحركة تقتضى المسبوقية بالغير وماهية الازل تنافى المسبوقية بالغير والجمع بينهما محال وانما قلنا انه يستحيل أن يكون ساكنا لان السكون وصف ثبوتى وهو ممكن الزوال وكل ممكن الزوال مفتقر الى الفاعل المختار وكل ما كان كذلك فهو محدث فكل سكون محدث فيمتنع أن يكون أزليا وانما قلنا ان السكون وصف ثبوتى لانه يتبدل كون الجسم متحركا بكونه ساكنا مع بقاء ذاته فاحدهما لا بد وأن يكون أمرا ثبوتيا فان كان الثبوت هو السكون فقد حصل المقصود وان كان الثبوت هو الحركة وجب أيضا أن يكون السكون ثبوتيا لان الحركة عبارة عن الحصول فى المكان بعد أن كان فى غيره والسكون عبارة عن الحصول فى المكان بعد أن كان فيه بعينه فالتفاوت بين الحركة والسكون ليس فى الماهية بل فى المسبوقية بالغير وعدم المسبوقية بالغير وذلك وصف عارض خارج عن الماهية واذا كان كذلك فاذا ثبت أن تلك الماهية أمر وجودى فى احدى الصورتين وجب أن تكون كذلك فى الصورة الاخرى وانما قلنا ان سكون السماء جائز الزوال لانه لو كان واجبا لذاته لامتنع زواله فكان يجب أن لا تتحرك السماء لكنا نراها الآن متحركة فعلمنا أنها

لو كانت ساكنة فى الازل لكان ذلك السكون جائز الزوال وانما قلنا ان ذلك السكون لما كان ممكنا لذاته افتقر الى الفاعل المختار لانه لما كان ممكنا لذاته فلا بد له من مؤثر وذلك المؤثر لا يجوز أن يكون موجبا الا ان ذلك الموجب ان كان واجبا وكان غنيا فى ايجابه لذلك المعلول عن شرط لزم من دوامه دوام ذلك الاثر فكان يجب أن لا يزول السكون وان كان واجبا ومفتقرا فى ايجابه لذلك المعلول الى شرط واجب لذاته لزم من دوام العلة ودوام الشرط دوام المعلول أما ان كان الموجب غير واجب لذاته أو كان شرط ايجابه غير واجب لذاته كان الكلام فيه كالكلام فى الاول فيلزم التسلسل وهو محال أو الانتهاء الى موجب واجب لذاته والى شرط واجب لذاته وحينئذ يعود الالزام الاول فثبت أن ذلك المؤثر لا بد وأن يكون فاعلا مختارا فاذا كل سكون فهو فعل فاعل مختار وكل ما كان كذلك فهو محدث لان المختار انما يفعل بواسطة القصد والقصد الى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل محال فثبت أن كل سكون فهو محدث فثبت أنه يمتنع أن يكون الجسم فى الازل لا متحركا ولا ساكنا فهو اذا غير موجود فى الازل فهو محدث واذا كان محدثا افتقر فى ذاته وفى تركيب أجزائه الى موجد وذلك هو الله تعالى فثبت بالعقل أن بانى السماء هو الله تعالى لا غيره

﴿الحجة الثانية﴾ كل ما سوى الواجب فهو ممكن وكل ممكن محدث وكل محدث فله صانع وانما قلنا كل ما سوى الواجب ممكن لانا لو فرضنا موجودين واجبين لذاتهما لاشتركا فى الوجود ولتباينا بالتعين فيكون كل منهما مركبا مما به المشاركة ومما به المباينة وكل مركب مفتقر الى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته فكل واحد من الواجبين بالذات ممكن بالذات هذا خلف ثم ينتقل الكلام الى ذينك الجزأين فان كانا واجبين كان كل واحد من تلك الاجزاء مركبا ويلزم التسلسل وان لم يكونا واجبين كان المفتقر اليهما أولى بعدم الوجوب فثبت أن ما عدا الواجب ممكن وكل ممكن فله مؤثر وكل ما افتقر الى المؤثر محدث لان الافتقار الى المؤثر لا يمكن أن يتحقق حال البقاء لاستحالة ايجاد الموجود فلا بد وأن يكون اما حال الحدوث أو حال العدم وعلى التقديرين فالحدوث لازم فثبت أن ما سوى الواجب محدث وكل محدث فلا بد له من محدث فلا بد للسماء من بان

(الحجة الثالثة) صريح العقل يشهد بأن جرم السماء لا يمتنع أن يكون أكبر مما هو الآن بمقدار خردلة فاختصاص هذا المقدار بالوقوع دون الازيد والانقص لا بد وأن يكون بمخصص فثبت أنه لا بد للسماء من بان وقلنا سابقا ان الجواهر الدقيقة أى الفردة جعل تعالى بها قوة الانضمام أى التماسك (فان قيل) لم لا يجوز أن يقال انه تعالى خلق شيأ وأعطاه قدرة يتمكن ذلك المخلوق بتلك القدرة من خلق الاجسام فيكون خالق السماء وبانيها هو ذلك الشئ (فالجواب) من العلماء من قال المعلوم بالعقل أنه لا بد للسماء من محدث وأنه لا بد من الانتهاء آخر الامر الى قديم واجب الوجود لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى فأما نفى الواسطة فانما يعلم بالسمع فقوله فى هذه الآية بناها يدل على أن بانى السماء هو الله وحده لا غيره ومنهم من قال بل العقل يدل على بطلانه لانه لما ثبت أن كل ما عداه محدث ثبت أنه قادر لا موجب والذى كان

مقدورا

مقدورا له انما صح كونه مقدورا له بكونه ممكنا فانك لو رفعت الامكان بقي الوجوب أو الامتناع وهما يحيلان المقدورية واذا كان ما لاجله صح في البعض أن يكون مقدورا لله وهو الامكان والامكان عام في الممكنات وجب أن يحصل في كل الممكنات صحة أن تكون مقدورة لله تعالى واذا ثبت ذلك ونسبت قدرته الى الكل على السوية وجب أن يكون قادرا على الكل واذا ثبت ان الله قادر على كل الممكنات فلو قدرنا قادرا آخر قدر على بعض الممكنات لزم وقوع مقدور واحد بين قادرين من جهة واحدة وذلك محال لانه اما أن يقع بأحدهما دون الآخر وهو محال لانهما لما كانا مستقلين بالاقتضاء فليس وقوعه بهذا أولى من وقوعه بذلك أو بهما معا وهو أيضا محال لانه يستغني بكل واحد منهما عن الآخر فيكون محتاجا اليهما معا وغنيا عنهما معا وهو محال فثبت بهذا أنه لا يمكن وقوع ممكن آخر بسبب آخر سوى قدرة الله تعالى وهذا الكلام جيد لكن على قول من لا يثبت في الوجود مؤثرا سوى الواحد فهذا جملة ما في الباب

(واعلم) أنه تعالى لما بين في السماء أنه بناها بين بعد ذلك أنه كيف بناها وشرح تلك الكيفية من وجوه (أولها) ما يتعلق بالمكان فقال تعالى رفع سمكها واعلم أن امتداد الشئ اذا أخذ من أعلاه الى أسفله سمي عمقا واذا أخذ من أسفله الى أعلاه سمي سمكا فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا أن البعد بيننا وبينها مجهول وأظن أن أقربها الينا يكون بعده عنا أقله مائة ألف مرة قدر بعد الشمس عنا وبين أصحاب الهيئة مقادير الاجرام الفلكية وأبعاد ما بين كل واحد منها وبين الارض (فعطارد) يبعد عن الشمس ثلاثة عشر مليونا وواحدا وستين ألفا من الفراسخ كل فرسخ ثلاثة أميال (والزهرة) تبعد عن الشمس بخمسة وعشرين مليونا والارض تبعد عن الشمس بأربعة وثلاثين مليونا وخمسمائة ألف من الفراسخ (والمريخ) يبعد عن الشمس بثلاثة وخمسين مليونا من الفراسخ (والمشترى) يبعد عن الشمس بمائة وثمانين مليونا من الفراسخ (وزحل) يبعد عن الشمس بثلاثمائة وتسعة وعشرين مليونا من الفراسخ (والبعد الابعد للقمر) بالنسبة للارض واحد وتسعون ألفا وأربعمائة وخمسون فرسخا (وبعده الاقرب) ثمانون ألفا ومائة وخمسة عشر فرسخا فيكون البعد الاوسط نحو ستة وثمانين ألف فرسخ وقالوا ان الشمس أعظم من الارض بألف ألف مرة وثلاثمائة وثمان وعشرين ألف مرة * وقد استنبط بعض علماء الهيئة من تحول كلف الشمس الذي يظهر على ظهرها ورجوعه في أزمنة مخصوصة أن الشمس تدور على نفسها في خمسة وعشرين يوما واثنتي عشرة ساعة (واعلم) أن العالم هو سائر المحدثات فهو صفة عظيمة تكل العقول عن الاحاطة بعلم ما احتوى عليه من المخلوقات * ثم ان الله تعالى قدر بن هذه الدنيا بمقدار عظيم لا يمكن احصاؤه من النجوم والكواكب والارض التي يتراءى لنا عظمها لشدة قربنا منها باقامتنا على ظهرها هي من الاجرام الصغيرة بالنسبة للكواكب العظيمة وليس لذلك العالم حد معلوم كما أن القدرة الالهية لا حصر لمتعلقاتها وتنقسم الاجرام السماوية باعتبار حركاتها أو طبيعتها الى نجوم تسمى بالشموس وكواكب وتوابع وذوات أذناب وكلها بحسب الظاهر مثبتة في القبوة المسماة بالسماء الشبيهة بسطح باطن كرة عظيمة تشغل الارض

مركزها

﴿الصفة الثانية في قوله تعالى فسوّاها﴾ وفيه وجهان (الاول) المراد بالتسوية تأليفها وقيل بل المراد نفي الشقوق عنها كقوله تعالى ماترى في خلق الرحمن من تفاوت والقائلون بالقول الاول قالوا فسوّاها عام فلا يجوز تخصيصه بالتسوية في بعض الاشياء ثم قالوا هذا يدل على كون السماء كرة لانه لولم يكن كرة لكان بعض جوانبه سطحا والبعض زاوية والبعض خطا ولكان بعض أجزائه أقرب الينا والبعض أبعد فلا تكون التسوية الحقيقية حاصلة فوجب أن يكون كرة حتى تكون التسوية الحقيقية حاصلة ثم قالوا لما ثبت أنها محدثة مفتقرة الى فاعل مختار فأي ضرر في الدين ينشأ من كونها كرة

﴿الصفة الثالثة في قوله تعالى وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ وفيه مسئلتان (الاولى) أغطش قد يجيء لازما يقال أغطش الليل اذا صار مظلما ويجيء متعديا يقال أغطشه الله اذا جعله مظلما والغطش الظلمة والاغطش شبه الأعمش ثم ههنا سؤال وهو أن الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس فقوله وأغطش ليلها يرجع معناه الى أنه جعل المظلم مظلما وهو بعيد والجواب معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان انما حصلت بتدبير الله وتقديره وحينئذ لا يبقى الاشكال

﴿المسئلة الثانية﴾ قوله تعالى وأخرج ضحاها أي أخرج نهارها وانما عبر عن النهار بالضحى لان الضحى أكمل أجزاء النهار وانما أضاف الليل والنهار الى السماء لان الليل والنهار انما يحدثان بسبب غيبوبة الشمس وطلوعها فلهذا السبب أضاف الليل والنهار الى السماء

﴿في بيان قوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾

وفيه قولان (الاول) وهو المشهور الظاهر أنها النجوم الخنس جمع خانس والخنوس الانقباض والاستخفاء تقول خنس من بين القوم وانخنس وفي الحديث الشيطان يوسوس الى العبد فاذا ذكر الله خنس أي انقبض ولذلك سمي الخناس والكنس جمع كانس وكانسة يقال كنس اذا دخل الكناس وهو مقر الوحش يقال كنست الظباء في كنسها وتكنست المرأة اذا دخلت هودجها تشبه بالظبي اذا دخل الكناس * ثم اختلفوا في خنوس النجوم وكنوسها على ثلاثة أوجه فالقول الاظهر أن ذلك اشارة الى رجوع الكواكب السيارة واستقامتها فرجوعها هو الخنوس وكنوسها اختفاء بعضها من ضوء الشمس ولاشك أن هذه حالة عجيبة وفيها أسرار عظيمة باهرة وهذه الكواكب هي أجسام معتمة لها حركة رحوية على محورها وحركة أخرى بها تخط حول الشمس مدارا على شكل قطع ناقص يشغل هذه الكواكب نقطة احتراقه أي مركزه العمومي وهاتان الحركتان تتجهان من المغرب الى المشرق فكأن السبب المحدث لهما واحد ويشرق من هذه الكواكب ضوء مستعار من غيرها فلا نشاهدها الا بواسطة انعكاس منها الينا وكلما كانت أبعد عن الشمس التي هي مركز الحركة والحرارة كان زمن اجتيازها الدائرة التي تخطها حولها أطول ولا تخرج من تلك الحركة الرحوية من الدائرة الكسوفية وتنقسم هذه الكواكب الى كواكب أولية والى كواكب ثانوية

تسمى أيضا بالشبيهة بالثوابت * وقال علماء الهيئة ان الكواكب السبعة السيارة كانت
معروفة قبل جاهلية اليونان والثانوية أربعة موضوعة بين المريخ والمشترى وهى السنبلة وأبو
الفلق أو الصبح وقرينة المشترى والمجرة السيارة وقد ظهر بالارصاد أن صورة ماعدا عطارد
والزهرة من الكواكب السيارة تشبه صورة الارض فى كونها منتفخة جهة خط الاستواء
ومبطوحة جهة القطبين ثم ان جملة الكواكب السيارة لا تجرى فى سطح واحد بل هى
متماثلة الافلاك فالكواكب السيارة المعروفة من قديم الزمان لا تخرج فى سيرها أبدا عن
منطقة فلك البروج بخلاف السنبلة وأبى الفلق فانهما يميلان فوق هذا الفلك زيادة عن الباقى
ولزحل خاصية به وهو أنه تحيط به حلقة مظلمة غير مماسة له تدور حوله فى عشر ساعات وربع
ويظهر عرضها كأنه مساو لثلث قطر هذا الكوكب وتسمى هذه الحلقة خاتم زحل
(القول الثانى) ماروى عن على عليه السلام وعطاء ومقاتل وقتادة أنها هى جميع الكواكب
وخنوسها عبارة عن ظلها على نفسها من ضوء الشمس وكنوسها ظهورها بضوء الشمس
(القول الثالث) ان السبعة السيارة تختلف مطالعها ومغاربها بدليل قوله تعالى رب المشارق
والمغارب ولا شك أن فيها مطلعا واحدا ومغربا واحدا هما أقرب المطالع والمغارب الى سمت
رؤسنا ثم انها تأخذ فى التباعد من ذلك المطلع الى سائر المطالع طول السنة ثم ترجع اليه يعنى
القرب والبعد فخنوسها عبارة عن تباعدها فى ذلك المطلع وكنوسها عبارة عن عودها اليه
فعلى هذه الاقوال يكون القسم واقعا بجميع الكواكب ويحتمل أن يكون واقعا بالسبعة
السيارة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه
(القول الرابع) أن الخنس الجوارى الكنس وهو قول ابن مسعود والنخعى بقر الوحش وقال
سعيد بن جبير هى الظباء وعلى هذا الخنس من الخنس فى الانف وهو تقعير فى الانف فان
البقر والظباء أنوفها على هذه الصفة والكنس جمع كانس وهى التى تدخل الكناس * والقول
الصحيح هو القول الاول والدليل عليه أمران * الاول أنه قال بعد ذلك والليل اذا عسعس وهذا
بالنجوم أليق منه ببقر الوحش * الامر الثانى أن محل قسم الله تعالى كلما كان أعظم وأعلى
رتبة كان أولى ولا شك أن الكواكب أعلى رتبة من بقر الوحش * (تنبيه) * ان الخنس جمع
خانس من الخنوس وأما جمع خنساء وأخنس من الخنس فخنس بالسكون والتخفيف ولا يقال
فيه الخنس بالتشديد الا أن يجعل الخنس فى الوحشية أيضا من الخنوس وهو اختفاؤها فى
الكناس اذا غابت عن الاعين

* فى بيان قوله تعالى والليل اذا عسعس *

ذكر أهل اللغة ان عسعس من الاضداد يقال عسعس اذا أقبل وعسعس اذا أدبر وأنشدوا
فى ورودها بمعنى أدبر قول العجاج

حتى اذا الصبح لها تنفسا * وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وأنشد أبو عبيدة فى ورودها بمعنى أقبل * مدرعات الليل لما عسعسا * ثم منهم من قال المراد
هنا أقبل الليل لانه على هذا التقدير يكون القسم واقعا باقبال الليل وهو قوله اذا عسعس

وبادباره أيضا وهو قوله والصبح اذا تنفس ومنهم من قال بل المراد أدبر * وقوله والصبح اذا تنفس أي اشتد ضوءه وتكامل فقوله والليل اذا عسعس اشارة الى أول طلوع الصبح وهو مثل قوله تعالى والليل اذ أدبر والصبح اذا أسفر فقوله والصبح اذا تنفس اشارة الى تكامل طلوع الصبح فلا يكون فيه تكرار وأما قوله والصبح اذا تنفس أي اذا أسفر كقوله والصبح اذا أسفر ففيه مجاز * ثم في كيفية المجاز قولان (أحدهما) أنه اذا أقبل الصبح أقبل باقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز وقيل تنفس الصبح (والثاني) أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي جلس بحيث لا يتحرك واجتمع الحزن في قلبه فاذا تنفس وجد راحة فههنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وهو استعارة لطيفة

* في بيان قوله تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها *

قبل الخوض في التفسير لا بد من ذكر مسائل (الاولى) المقصود من هذا الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي واعلم أنه تعالى نبه عباده دائما بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لان الذي يقسم به الله تعالى يحصل به وقع في القلب فتكون الدواعي الى تأمله أقوى

(المسئلة الثانية) قد عرفت أن جماعة من أهل الاصول قالوا التقدير ورب الشمس ورب سائر ما ذكره الى تمام القسم واحتج قوم على بطلان هذا المذهب فقالوا ان في جملة هذا القسم والسماء وما بناها وذلك هو الله تعالى كما تقدم شرحه موضحا فيلزم أن يكون المراد ورب السما وربها وذلك كالتناقض أجاب القاضي عنه بأن قوله وما بناها لا يجوز أن يكون المراد منه هو الله تعالى لان ما لا تستعمل في خالق السماء الاعلى ضرب من المجاز ولانه لا يجوز منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه ولانه تعالى لا يكاد يذكر مع غيره على هذا الوجه فاذا لا بد من التأويل وهو أن ما مع ما بعده في حكم المصدر فيكون التقدير والسماء وبنائها واعترض صاحب الكشاف عليه فقال لو كان الامر على هذا الوجه لزم من عطف قوله تعالى فألهمها عليه فساد النظم

(المسئلة الثالثة) القراء مختلفون في فواصل هذه السورة وما أشبهها نحو والليل اذا يغشى والضحى والليل اذا سجى فقرؤها تارة بالامالة وتارة بالتفخيم وتارة بعضها بالامالة وبعضها بالتفخيم قال الفراء يكسر ضحاها والآيات التي بعدها وان كان أصل بعضها الواو ونحو تلاها وطحاها ودحاها فانه لما ابتدئت السورة بحرف الياء تبعها ما هو من الواو لان الالف المنقلبة عن الواو قد توافق المنقلبة عن الياء ألا ترى أن تلوت وطحوت ونحوهما قد يجوز في أفعالها أن تنقلب الى الياء نحو تلي ودحي فلما حصلت هذه الموافقة استجاز وا امالته كما استجاز وا امالة ما كان من الياء وأما وجه من ترك الامالة مطلقا فهو أن كثيرا من العرب لا يميلون هذه الالفات ولا ينحون فيها نحو الياء ويقوي ترك الامالة للالف أن الواو في موسر منقلبة عن الياء والياء في ميقات وميزان منقلبة عن الواو ولم يلزم من ذلك أن يحصل فيه ما يدل على ذلك الانقلاب فكذا ههنا ينبغي أن تترك الالف غير ممالة ولا ينحى بها نحو الياء وأما امالة البعض

وترك امالة البعض كما فعله حمزة فحسن أيضا وذلك لان الالف انما تمال نحو الياء لتدل على الياء اذا كان انقلابها عن الياء ولم يكن في تلاها وطحاها ودحاها ألف منقلبة عن الياء انما هي منقلبة عن الواو بدلالة تلوت ودحوت

(المسئلة الرابعة) ان الله تعالى قد أقسم بسبعة أشياء الى قوله قد أفلح وهو جواب القسم قال الزجاج المعنى لقد أفلح لكن اللام حذفت لان الكلام طال وصار طوله عوضا عنها (قوله تعالى والشمس وضحاها) ذكر المفسرون في ضحاها ثلاثة أقوال قال مجاهد والكلبي ضوءها وقال قتادة هو النهار كله وهو اختيار الفراء وابن قتيبة وقال مقاتل هو حر الشمس ونقرر ذلك بحسب اللغة فنقول قال الليث الضحو ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك والضحاء ممدودا اذا امتد النهار وقرب أن ينتصف وقال أبو الهيثم الضح نقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الارض وأصله الضحى فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها ألفا وقالوا ضحى فالضحى هو ضوء الشمس ونورها ثم سمي به الوقت الذي تشرق فيه الشمس على ما في قوله تعالى الا عشية أو ضحاها فمن قال من المفسرين في ضحاها ضوءها فهو على الاصل وكذا من قال هو النهار كله لان جميع النهار هو من نور الشمس ومن قال في الضحى انه حر الشمس فلأن حرها وضوءها متلازمان فتى اشتد حرها فقد اشتد ضوءها وبالعكس وهما لا يمسكان وهذا أضعف الاقوال (واعلم) أنه تعالى انما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح فان أهل العالم كانوا كالاموات في الليل فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة فصارت الاموات أحياء ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل ويكون غاية كمالها وقت الضحوة فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها* وأما قوله والقمر اذا تلاها فقال الليث تلا يتلو اذا تبع شيأ* وفي كون القمر تاليا وجوه (أحدها) بقاء القمر طالعا عند غروب الشمس وذلك انما يكون في النصف الاول من الشهر اذا غربت الشمس فان القمر يتبعها في الاضاءة في الجهة المظلمة من الارض وهو قول عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (وثانيها) ان الشمس اذا غربت فالقمر يتبعها ليلة الهلال في الغروب وهو قول قتادة والكلبي (وثالثها) قال الزجاج تلاها حين استدار وكمل في أي جزء من الارض فكأنه يتلو الشمس في الضياء والنور يعني اذا كمل نوره صار كالقائم مقام الشمس في الانارة وذلك في الليالي البيض (ورابعها) أنه يتلوها من تأثرها فيه بحسب الحس وفي ارتباط مصالح هذا العالم* وأما قوله والنهار اذا جلاها فمعنى التجلية الاظهار والكشف* والضمير في جلاها الى ماذا يعود فيه وجهان (أحدهما) وهو قول الزجاج أنه عائد الى الشمس وذلك لان النهار عبارة عن نور الشمس فكلما كان النهار أجلى ظهورا كانت الشمس أجلى ظهورا لان قوة الاثر وكماله تدل على قوة المؤثر فكأن النهار يبرز ضوء الشمس ويظهره كقوله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو أي لا يخرجها (الثاني) وهو قول الجمهور أنه عائد الى الظلمة أو الى الارض بحيث تحجب الضوء على نفسها وان لم يجر لها ذكر يقولون أصبحت باردة يريدون الغداة وأرسلت يريدون السماء* وأما قوله تعالى والليل اذا يغشاها يعني يغشى

الليل الشمس فيزيل ضوأها وهذه الآية تقوى القول الاول فى الآية التى قبلها من وجهين (الاول) أنه لما جعل الليل يغشى الشمس ويزيل ضوأها حسن أن يقال النهار يجليها على ضد ما ذكر فى الليل (والثانى) أن الضمير فى يغشاها للشمس بلا خلاف ولذلك ان جزأ من الارض غشاه الضوء على الجزء الآخر فكذا الجلاها يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير فى الفواصل من أول السورة الى ههنا للشمس قال القفال وهذه الاقسام الاربعة ليست الا بالشمس فى الحقيقة بحسب أوصاف أربعة (أولها) الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار وذلك هو الوقت الذى يكمل فيه انتشار الحيوان واضطراب الناس للمعاش (ومنها) تلو القمر لها وأخذه الضوء عنها (ومنها) تكامل طلوعها وبدوها بمجىء النهار (ومنها) تأثيرها على الكواكب وفعلها هذه الحركات بمجىء الليل والنهار ومن تأمل قليلا فى عظمة الشمس ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهى والتركب من الاجزاء والاسرار المخلوقة بها من الجذب والدفع وغيرهما انتقل منه الى عظمة خالقها فسبحانه ما أعظم شأنه * وأما قوله تعالى والسماء وما بناها ففيه سؤالات

(السؤال الاول) ان الذى ذكره صاحب الكشاف من أن ما ههنا لو كانت مصدرية لكان عطف فألهمها عليه يوجب الفساد فى النظم حق والذى ذكره القاضى من أنه لو كان هذا قسما بخالق السماء لما كان يجوز تأخيره عن ذكر الشمس فهو اشكال جيد والذى يخطر ببالى فى الجواب عنه أن أعظم المحسوسات هو الشمس فذكرها سبحانه مع أوصافها الاربعة الدالة على عظمها ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك ووصفها بصفات ثلاث وهى تدبيره سبحانه للسماء والارض وللمركبات وما وضع بها من الاسرار ونبه على النتائج من المركبات بذكر أشرفها وهى النفس والغرض من هذا الترتيب هو أن يتوافق العقل والحس على عظمة السر السارى فى جرم الشمس ثم يحتج العقل الساذج بالشمس بل بجميع السماويات والارضيات والمركبات على اثبات مبدئ لها فحينئذ يحظى العقل ههنا بادراك جلال الله تعالى وعظمته على ما يليق به والحس لا ينازعه فيه فكان ذلك كالطريق الى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات الى بقاع عالم الربوبية وبيداء كبرياء الصمدانية فسبحان من عظمت حكمته وكملت كلمته

(السؤال الثانى) ما الفائدة فى قوله والسماء وما بناها والجواب أنه سبحانه لما وصف الشمس بالصفات الاربع الدالة على عظمتها أتبعه ببيان ما يدل على حدوثها وحدوث جميع الاجرام السماوية فنبه بهذه الآية على تلك الدلالة وذلك لان الشمس والسماء متناهية وكل متناه فانه مختص بمقدار معين مع أنه كان يجوز فى العقل وجود ما هو أعظم منه وما هو أصغر منه فاختصاص الشمس وسائر السماوية بالمقدار المعين لا بد وأن يكون بتقدير مقدر وتدبير مدبر وكأن بانى البيت يبنيه بحسب مشيئته فكذا مدبر الشمس وسائر السماويات قدرها بحسب مشيئته فقوله وما بناها كالتنبيه بهذه الدقيقة على حدوث الشمس وسائر السماويات

(السؤال الثالث) لم قال وما بناها ولم يقل ومن بناها الجواب من وجهين (الاول) ان

قوله ولذلك ان جزأ الخ المعنى ظاهر وفى التركيب ما لا يخفى اه

المرادهو والاشارة الى الوصفية كأنه قيل والسماء وذلك الشئ العظيم القادر الذى بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذى سوّاها (والثانى) أن ما تستعمل فى موضع من كما فى قوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء والاعتماد على القول الاول

(السؤال الرابع) لم ذكر فى تعريف وجود ذات الله تعالى هذه الاشياء الثلاثة وهى السماء والارض والنفس والجواب أن الاستدلال على الغائب لا يمكن الا بالشاهد والشاهد ليس الا العالم الجسمانى وهو قسمان بسيط ومركب والبسيط قسمان العلوية واليه الاشارة بقوله والسماء والسفلية واليه الاشارة بقوله والارض وهى أقسام وأشرفها ذوات الانفس واليه الاشارة بقوله ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها

(فى بيان قوله تعالى والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب)

(اعلم) أنه تعالى أكثر فى كتابه ذكر السماء والشمس والقمر لان أحوالها فى أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة وفيه مسئلتان

(المسئلة الاولى) قوله ما الطارق هو كل ما أتاك ليلا سواء كان كوكبا أو غيره فلا يكون الطارق نهارا والدليل عليه قول المسلمين فى دعائهم نعوذ بالله من شر طوارق الليل * وروى أنه عليه السلام نهى عن أن يأتى الرجل أهله طروقا والعرب تستعمل الطروق فى صفة الخيال لان تلك الحالة انما تحصل فى الاكثر فى الليل ثم انه تعالى لما قال والطارق كان هذا مما لا يستغنى سامعه عن معرفة المراد منه فقال وما أدراك ما الطارق قال سفيان بن عيينة كل شئ فى القرآن فيه ما أدراك فقد أخبر الرسول به وكل شئ فيه ما يدريك لم يخبر به كقوله وما يدريك لعل الساعة قريب * ثم قال النجم الثاقب أى هو طارق عظيم الشان رفيع القدر قال الفراء النجم الثاقب هو النجم المرتفع على النجوم والعرب تقول للطائر اذا لحق ببطن السماء ارتفاعا قد ثقب وهذه النجوم المسماة بذلك حقيقة أعنى النجوم الثوابت يشرق منها ضوء مخصوص بها اذ منها ما لا يتيسر لنا مشاهدته وهى كواكب مضيئة بذاتها امتناسبة البعد مع بعضها أو على قول علماء الهيئة الشمس منها فهى كنجمة تكون تحت سلطنتها ويظهر لنا زيادة ضوئها واتساع قطرها بسبب قربها الينا

(المسئلة الثانية) انما وصف النجم بكونه ثاقبا لوجوه (أحدها) أنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل درى لانه يدرؤه أى يدفعه * واختلفوا فى قوله النجم الثاقب قال بعضهم أشير به الى جماعة النجوم كما قلنا فقيل الطارق كما قال ان الانسان لفى خسر *(تنبيه)* اعلم أن الطارق فى الاصل اسم فاعل من طرق طرقا وطروقا اذا جاء ليلا * قال الماوردى وأصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وانما سمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه الى طرق الباب غالبا ثم اتسع فى كل ما ظهر بالليل كائنا ما كان ثم أتسع فى التوسع حتى أطلق على الصور الخيالية البادية بالليل قال

طرق الخيال ولا كليلة مدلج * سربا بأرحلنا ولم نتعرج

والمراد هنا النجوم البادية بالليل وقوله تعالى وما أدراك ما الطارق تنويه بشانه اثر تفخيمه

بالاقسام به وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها ادراك الخلق فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم فما الاولى مبتدأ وأدراك خبر والثانية خبر والطارق مبتدأ حسبما بين فى نظائره أى أى شئ أعلمك ما الطارق وقوله تعالى النجم الثاقب خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف وقع جوابا عن استفهام نشأ مما قبله كأنه قيل ما هو فقيل النجم المضيء فى الغاية كأنه يثقب الظلام أو الافلاك بضوئه وينفذ فيها والمراد به الجنس وهذا الجنس هو مجموع النجوم الثوابت المسماة بالشموس ثم الاشارة الى أن ذلك الوصف غير كاشف عن كنه أمره وان ذلك مما لا تبلغه أفكار الخلائق ثم فى تفسيره بالنجم الثاقب من تعظيم شأنه واجلال محله ما لا يخفى * وعلماء الهيئة قالوا ان النجوم الثوابت هى كواكب مضيئة بذاتها متناسبة البعد مع بعضها وأقربها الينا هو قدر ما بيننا وبين الشمس بمائة ألف مرة ومنها ما يكون غير ممكن حساب مسافته لبعده عنا وقد حسب بعضهم الضوء الواصل الينا منها والقاطع فى كل ثانية أبلغ من سبعين ألف فرسخ كل فرسخ ثلاثة أميال فوجده لا يصل الينا الا فى أبلغ من ثلاث سنوات ولا حصر لعدد النجوم الثوابت ولا يمكن أن نرصد منها بمجرد البصر الا نحو أربعة آلاف ويمكن بالاستعانة بالآلات أن يعد منها جملة آلاف ألوف

﴿فى بيان قوله تعالى﴾

(وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا فيه مسائل

﴿المسئلة الأولى﴾ سمى السماء سقفا لانها شبيهة بسطح باطن كرة عظيمة تشغل الارض مركزها وقوله تعالى محفوظا أى محفوظا من الوقوع والسقوط اللذين يجرى مثلهما لاسقف البناء (واعلم) أن الله تعالى جعل كل جرم من الاجرام مركبا من جواهر فردة لا تقبل الانقسام وجعل تعالى فيها قوة الانضمام أى التماسك ثم الاجسام اما بسيطة أو مركبة فالجسم البسيط ويسمى بالعنصرى هو الذى يتكون من أجزاء دقيقة ذات طبيعة واحدة وتسمى بالاجزاء المكملة والجسم المركب هو المتكون من أجزاء دقيقة متغايرة الطبيعة وتسمى بالاجزاء المكونة فكل جزء من الاجزاء المكونة مركب من أجزاء مكملة بعدد الجواهر المركب منها الجسم فالمركب من قصدير ونحاس كل جزء من أجزائه مشتمل على جزء من قصدير وجزء من نحاس وكل من هذين الجزأين على حدته مكمل ومجموعهما جزء مكون وكذا المادة نوعان أحدهما الخواص الخاصة وهذه تختلف فى الاجسام كاللون والشكل والرائحة والثانى الخواص العامة أعنى التى تشترك فيها جميع الاجسام وهى الحيز وعدم التداخل والثقل وقبول كل من الحركة والتجزى والانضغاط والمرونة والتمدد ومن اجتماع هذه الاشياء فى المادة قوة الجذب والميل * ثم ان الكرة الارضية المعتبرة فى أبعادها وحركاتها كجرم سماوى مركبة من مواد مختلفة تظهر لنا على أربعة أحوال أجرام جامدة وأجرام مائعة واجرام هوائية وسائل ضوئى فالاجرام الجامدة يتألف منها الجزء الجامد من الارض والاجرام السائلة تغطى معظم ذلك الجزء فتشغل المواضع المنخفضة من سطح الارض وتترك

الاجزاء المرتفعة منكشفة بحيث يظهر كأنما أخرجت نافذة منها فتتكون منها الجزائر والبرور المرتفعة وأما الاجرام الهوائية فتحيط بالاجرام الجامدة والمائعة ونعنى الجو الذى هو مخلوط من أجزاء مختلفة وغير محسوس بالبصر وأجزاؤه التى يتألف منها تحفظ على الدوام حالتها الغازية أى الهوائية فى الحرارة الاعتيادية للكرة وأما السائل الضوئى الآتى من الجو أى الحرارة والضوء فيظهر أنهما كما ينفذان فى الفضاء ينفذان أيضا فى باطن الكرة فيظهر منهما تنبه عظيم وأعظم ما يتعجب منه شدة تأثيرهما وقوتهما على جميع هذه السطوح من الجواهر والسوائل ومع ذلك فهى كغيرها من الاجسام مطيعة لنواميس الميل والجذب * (تنبيه) * اعلم أن القدرة الالهية جعلت لتركيب الاجسام قوى هى الجذب والاتحاد والتماسك أما الجذب فهو قوة بها تنضم الاجزاء المكونة الى بعضها وتتقارب حتى يتكون عنها جسم بسيط أو مركب * وأما التماسك فهو قوة الجذب الحاصلة بين الاجزاء المتماثلة وهو فى الجامدات أقوى منه فى المائعات ولذا لا تنفصل أجزاء الصلب من بعضها الا بعنف وأما الغازات فلا تماسك فيما بين أجزائها * وأما الاتحاد فهو قوة الجذب الحاصلة بين الاجزاء الغير المتماثلة أى الغير المكونة للاجسام البسيطة ويكون بين جزأين وثلاثة وأربعة وكونه بين خمسة نادر (واعلم) أن القوة الحيوية ناشئة فى جميع الاجسام وكل نوع من الاجسام النامية ناشئ عن تلك القوى فالقوة الحيوية منتشرة فى جميع الكائنات غير أنها تكون فى كل نوع بحسبه فيكون فى كل مخلوق على حدته قوة حيوية مخصوصة وهى فى الآدمى أتم وأكمل لكثرة الاعضاء فيه بدليل أننا اذا بحثنا عما تحته من الحيوانات الى أن نصل الى درجة النبات وجدنا أنه كلما تناقص عدد الاعضاء تناقصت تلك القوة حتى تصير فى النبات مغايرة لها فى الحيوان وكذا اذا بحثنا فى النبات وجدنا أنه كلما تناقصت فيه الاعضاء تناقصت فيه تلك القوة حتى تنتهى الى النباتات التى لا يشاهد فيها أعضاء تناسل فتكون القوة الحيوية فيها على حالة لا يعرف منها كون الجسم من النباتات أو الاحجار ثم اذا بحث عما هو تحت ذلك من الاجسام وجد أن بعضها لا أثر لتلك القوة فيه الا فى تبلور الاملاح فكانت القوة الحيوية فى الاجسام انتهت فى تبلور الاملاح * فالقادر الحكيم قد خصص كل جرم من الاجرام بقوتى الدفع والجذب على حسب ما جعل تعالى فيه من كثرة العناصر المركب منها فان قال قائل هل تقولون ان الله تعالى هو الخالق لهذه القوى أو تقولون انه تعالى خلق فى السماء طبيعة مؤثرة وفى الارض طبيعة قابلة فاذا اجتمعتا حصل ذلك فى جميع الاجرام السماوية والارضية فالجواب أنه على كلا القولين لا بد من الصانع المختار وأنه هو الخالق لذلك على سائر الاحوال والاطوار * وأما التفصيل فنقول لا شك أن الله تعالى قادر على خلق هذه الاجرام ابتداء من غير هذه الوسائط لان الجرم لا معنى له الا أنه جسم قائم من عناصر بسيطة والعناصر مكملة من جواهر دقيقة والجسم قابل لذلك وعلى كل فانه تعالى قادر على خلق هذه الاعراض فى الجسم ابتداء بدون هذه الوسائط الا أنا نقول قدرته على خلقها ابتداء لا تنافى قدرته عليها بسبب خلق هذه القوى المؤثرة والقابلة فى الاجسام

وظاهر قول المتقدمين انكار ذلك ولا بد في ذلك من أدلة (أحدها) أن الله تعالى انما أجرى العادة بأن لا يفعل ذلك الا على ترتيب وتدريج لان المكلفين اذا تحملوا المشقة في جريان الفلك في البحر طلبا للرزق وأجهدوا أنفسهم في ذلك حالا بعد حال علموا أنهم احتاجوا الى تحمل هذه المشاق لطلب هذه المنافع الدنيوية فلأن يتحملوا مشاق أقل منها لطلب المنافع الاخروية التي هي أعظم من المنافع الدنيوية أولى والبارى تعالى قادر على خلق الشفاء من غير تناول الدواء لكنه أجرى عادته مع توفيقه بتوقفه عليه لانه اذا تحمل مرارة الادوية دفعا لضرر المرض فلأن يتحمل مشاق التكليف دفعا لضرر العقاب أولى واحق فلو خلق تعالى جميع الاجرام من غير قوة الجذب والدفع لحصل العلم الضروري باسنادها الى القادر الحكيم فيكون ذلك كالمنافي للتكليف والابتلاء أما اذا خلقها تعالى بهذه الوسائط فحينئذ يفتقر المكلف في اسنادها الى القادر العليم الى نظر دقيق وفكر غامض الاسرار يستوجب الثواب ولهذا قيل لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب فربط تعالى الاسباب بمسبباتها وفي ذلك عبرة لأولى الابصار والالباب كما قال تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار واذا تبين لك ذلك فاعلم أن علماء الهيئة قالوا ان الشمس التي هي في وسط الكواكب الشمسية هي كوكب مضيء وهو أعظم من الارض بألف ألف مرة وثمانمائة وثمان وعشرين ألف مرة وان عطارد أعظم منها بست عشرة مرة وان الزهرة أعظم من الارض بتسع مرات وان المريخ أعظم منها بست مرات والمشترى أعظم منها بألف وأربعمائة وسبعين مرة وان زحل أعظم منها بثمانمائة مرة وسبع وثمانين مرة فمن أجل ذلك كانت الشمس تجذب اليها سائر الكواكب السيارة وقد قدمنا الاشارة الى ذلك وقد زعم بعض الحكماء أنه توصل برصد الكواكب الى معرفة القوى التي يترتب عليها تدبير الحركات وتحديدها فقال الموجود من القوى قوتان احداهما القوة الجاذبة الى المركز والأخرى القوة الدافعة عنه * فالقوة الأولى تجذب الكواكب في الفراغ لان عادتها أن تجذب الشيء بقدر عظم الشيء الجاذب ويضعف جذبها بقدر مربع بعد الشيء المجذوب يعني أن الجاذبية قوية مرتين في جسم عظيم مرتين وضعيفة أربع مرات في جسم بعيد مرتين وضعيفة ست عشرة مرة في جسم بعيد أربع مرات وهكذا فلذلك كانت الشمس تجذب اليها سائر الكواكب السيارة لما أن الشمس أعظم منها * وأما القوة الثانية وهي الدفع عن المركز فانها تجعل الكوكب يتحرك على خط مستقيم فلما انضمت هذه القوة الى الأولى جعلت الكواكب ترسم قطوعا ناقصة أي حمائلية حول الشمس وجعلت الشمس دائما في احدى نقطتي الاحتراق وعظم هذه القوة يكون على حسب القرب من الشمس فلذلك كانت الكواكب البعيدة من الشمس بطيئة السير في ممرها

(المسئلة الثانية في قوله تعالى وهم عن آياتها معرضون) وفيه معنيان (الاول)

معناه معرضون عما وضع الله تعالى فيها من الادلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القديم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة (الثاني) قرئ عن آيتها على التوحيد والمراد الجنس أي هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الارض بشمسها وأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون

(المسئلة الثالثة) في قوله تعالى (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) وفيه مسائل

(الأولى) اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال وهم عن آياتها معرضون فصل تلك الآيات ههنا لانه تعالى لو خلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل انما يكون ذلك بسبب حركاتها في أفلاكها فلهذا قال كل في فلك يسبحون

(المسئلة الثانية في بيان ما ذكر) وتقريره أن تقول قد ثبت بالأرصاد أن حركة الكواكب السيارة مختلفة فمنها حركة تشملها باسرها آخذة من المغرب الى المشرق وهي الحركة اليومية المتأثرة من الشمس وكل ما كان منها أسرع حركة اذا قارن ماهو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا في القمر ظاهر جداً فانه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعداً منها الى أن يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته في ممر البروج فيزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا أدركه ستره بطرفه الشرقي وتنكشف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربي فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة كواكب سيارة لها أيضا حركة من المغرب الى المشرق ثم ان كل ما كان من الكواكب أقرب الى الشمس كان أسرع حركة وما كان أبعد عنها كان أبطأ حركة فهذا ما نقوله في حركات الافلاك في أطوالها

(المسئلة الثالثة في حركات عروضها) وأما حركاتها في عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها الى الشمال والجنوب اذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة في الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب يخلو عن المنافع الحاصلة منه وكان الذي يقرب منه متشابه الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة أفنت الرطوبات فاحالتها كلها الى البخارية وبالجملة فيكون الموضع المحاذي لممر الكواكب على كيفية وخط مالا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون في موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والفجاجة وفي موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفي موضع آخر ربيع غير تام ولو لم تكن عودات متتالية وكان الكوكب يتحرك بطيئا لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الافراط وكان يعرض قريبا مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت وأما اذ كان هناك ميل يحفظ

الحركة في جهة مدة ثم ينتقل الى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصوناً عن طرفي الافراط والتفريط وبالجملة العقول لا تقف الا على قليل من أسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية

(المسئلة الرابعة) انه لا يجوز أن يقول وكل في فلك يسبحون الا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وان لم تكن مذكورة أولاً كأنها مذكورة لعود هذا الضمير اليها

(المسئلة الخامسة) الفلك في كلام العرب كل شيء دائر وجمعه أفلاك واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك وقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه وقال الكلبي ماء مجموع تجري فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لا تكون الا في الماء قلنا لا نسلم فانه يقال في الفرس الذي يمد يديه في الجري سابح وقال الاكثرون انه خلاء تسبح فيه الافلاك بل الحق أن هذه الاقسام ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات

(المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف كل التنوين فيه عوض عن المضاف اليه أي كلهم في فلك يسبحون واحتج أبو علي بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله يسبحون قال الجمع بالواو والنون لا يكون الا للعقلاء وبقوله تعالى والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين والجواب انما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت الجملة ما محلها (قلت) النصب على الحال من الشمس والقمر أولا محل لها الاستئنافها *فان قلت لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون في فلك قلت هذا كقوله كساهم الامير حلة أو قلدهم سيفاً أي كل واحد منهم

(مسئلة مهمة)

في قوله تعالى (ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) اعلم أنا بينا أن مدار أمر القرآن العظيم على تقرير هذه المسائل الاربع وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر ولا شك أن مدار اثبات المعاد على اثبات التوحيد والقدرة والعلم فلما بالغ الله تعالى في تقرير أمر المعاد عاد الى ذكر الدلائل الدالة على التوحيد وكمال القدرة والعلم لتصير تلك الدلائل مقررة لأصول التوحيد ومقررة أيضاً لاثبات المعاد (حكى) الواحدي عن الليث أنه قال الأصل في الست والستة سدس وسدسة ابدل السين تاء ولما كان مخرج الدال والتاء قريباً أدغم أحدهما في الآخر واكتفي بالتاء والدليل عليه أنك تقول في تصغير ستة سديسة وكذلك الاسداس وجميع تصرفاته يدل عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وفي الآية مباحث

(المبحث الاول) قال علماء الهيئة من البديهي أن الشمس والقمر وسائر الكواكب تخرج كل يوم فوق الأفق جهة المشرق وتختفي جهة المغرب بعد أن يرسم كل منها قوساً في ممره

ولا تصدر هذه الحوادث العجيبة الا عن أحد شيئين اما عن دوران سائر الفلك فى أربع وعشرين ساعة حول الارض أو عن دوران الارض فى هذه المدة على نفسها والاول مذهب المتقدمين من الحكماء وذهب الحكماء المتأخرون الى اختيار الثانى واستبعاد الاول وقالوا ان الشمس أعظم من الارض بألف بألف مرة وثمان وعشرين ألف مرة وان البعد بينهما هو أربع وثلاثون ألف ألف فرسخ وخمسمائة ألف فرسخ كل فرسخ ثلاثة أميال بحيث ان كلة المدفع التى عزمها فى كل ثانية سبعمائة ذراع بلدى اذا فرضنا بقاء سرعتها فى سيرها لا تصل الى الشمس الا فيما يزيد عن اثنتى عشرة سنة فكيف يتصور سرعة حركة الشمس بحيث تقطع كل كل يوم دائرة أعظم من ذلك البعد بست مرات بأن تقطع فى كل يوم وليلة ما تقطعه كلة المدفع فى اثنتين وسبعين مرة وتصير سرعتها أعظم من تعميرة المدافع بست وعشرين ألف مرة ومائتين وثمانين مرة لان اثنتين وسبعين سنة تحتوى على ستة وعشرين ألف يوم ومائتين وثمانين يوما فهل يتصور مثل هذا الامر ويزيد ذلك زيادة عجيبة بالنسبة الى ما يجعل للنجوم الثوابت التى قربها الينا هو أعظم من بعد الشمس عنا بمائتى ألف مرة فالواجب حينئذ أن تقطع فوق مائتين وخمسين ألف ألف فرسخ فى كل ثانية فلذلك قالت علماء الهيئة انه لا يتصور أن الفلك بأسره أسير لحركته حول الارض التى هى جسم صغير جدا بالنسبة اليه فتعين عندهم الذهاب الى الطريقة الاخرى وهى دوران الارض على نفسها ودليل دوران الارض على نفسها اسهل وموافق لما شاهدوا فى السماء فعلى مذهبهم فى دوران الارض على نفسها يظهر على التعاقب كل جزء من أجزائها للشمس ونظيرا الشمس غيرها من الثوابت فهى غير متحركة ولكن تظهر للرائى كأنها ترسم دائرة حول الارض فى جهة مضادة لحركة الارض وتحفظ أوضاعها النسبية وتحرك الارض تسعة آلاف فرسخ فى اليوم والليلة فهو أسهل من حركة الفلك ومما عضد به مذهبهم أن سائر النجوم الثوابت التى يتيسر ارصادها فى السماء تدور حول نفسها وموجب استثناء الارض من هذه القاعدة الكلية وانما كانت حركة الارض غير محسوسة لنا لتساوى حركتها ولان سائر ما على ظهرها يدور معها بحيث اننا نرى الاشياء كأنها على وضع نسبى ونظير ذلك أننا اذا سرنا فى تختروان يجرى بسرعة وصرفنا النظر الى رأس شجرة أو أعالى مبان ظهر لنا قرارنا وبعد الاشياء الخارجة فى جهة على عكس مقصدنا ويتم التمثيل اذا كنا لا نشعر بالحركة ولا نعرف أن الحركة لا تنسب الى محلنا

❊(المبحث الثانى)❊ أن الاجرام الكروية كانت فى ابتدائها سائلة كما قلنا ومتى كانت كذلك كانت متحركة واحتج من قدح فى كروية الارض بأمرين (أحدهما) أن الارض لو كانت كرة لكان مركزها منطبقا على مركز العالم ولو كان كذلك لكان الماء محيطا بها من كل الجوانب لان طبيعة الماء تقتضى طلب المركز فيلزم كون الماء محيطا بكل الارض (والثانى) ما نشاهد فى الارض من التلال والجبال العظيمة والاغوار المقعرة جدا * أجابوا عن الاول بأن العناية الالهية قسمت الكرة الارضية الى أرض يابسة والى مياه انقسما مختلفا فالارض اليابسة نحو الثلث وجعل بها أحواض لحفظ الماء والباقى مياه ونصف الكرة

الشمالي يشتمل وحده على أربعة أخماس الارض والنصف الجنوبي ليس فيه من الارض الا خمس واحد ثم ان سطح الارض منه ماهو مستو سهل ومنه ماهو مرتفع أو منخفض * وعن الثاني أن هذه التضاريس لا تخرج الارض عن كونها كرة قالوا لو اتخذنا كرة من خشب قطرها ذراع مثلا ثم أثبتنا فيها أشياء بمنزلة جاورسات أو شعيرات وقد رنا فيها كأمثالها فانها لا تخرجها عن الكروية ونسبة الجبال والغيران الى الارض دون نسبة تلك الحبات الى الكرة الصغيرة فان المحقق أننا اذا دنونا من سن جبل نرى أولا شاهقه ثم وسطه ثم قاعدته واذا ابعدت عنا سفينة نراها كأنها غارت أجزاؤها السفلى فى البحر فاذا خفيت عن الاعين رأينا رأس قلعها فلو كانت صورة مسطحة لكان أسفل السفينة الذى هو أكثف من القلع لا يغيب عنا من بعد فحينئذ خفاؤه عنا انما هو بسبب تحديب كروى وكل هذه الامور متحدة الوقوع سواء سلكنا جهة الشرق والغرب أو جهة الجنوب أو الشمال فينتج من ذلك أن الارض منحنية من سائر النواحى فهى كروية

﴿المبحث الثالث﴾ انه يستدل على استدارة الارض بأدلة أخرى منها أن الاسفار الواقعة حول الارض أرتنا أننا اذا توجهنا جهة ومشينا على استقامة واحدة رجعنا الى النقطة التى انتقلنا منها ومنها أن القمر عند كسوفه ترد الارض عليه ظلها فتظهر صورة الظل مستديرة وكثير من البراهين يقتضى أن الارض تكاد أن تكون صادقة الاستدارة وأن دورها تسعة آلاف فرسخ وقطرها ألفان وثمانمائة وخمسة وستون فرسخا

﴿فى قوله تعالى خلق السموات والارض وفيه مسائل﴾

﴿المسئلة الاولى فى بيان الاستدلال بأحوال الارض على وجود الصانع﴾ اعلم أن الاستدلال بأحوال الارض على وجود الصانع أسهل من الاستدلال بأحوال السموات على ذلك وذلك لان الخصم يدعى أن اتصاف السموات بمقاديرها وأحيازها وأوضاعها أمر واجب لذاته يمتنع التغير فيستغنى عن المؤثر فيحتاج فى ابطال ذلك الى اقامة الدلائل على تماثل الاجسام الارضية فانا نشاهد تغيرها فى جميع صفاتها أعنى حصولها فى أحيازها وألوانها وطعومها وطباعها ونشاهد أن كل واحد من أجزاء الجبال والصخور الصم يمكن كسرها وذوبانها وصهرها وازالتها عن مواضعها وجعل العالى سافلا والسافل عاليا واذا كان الامر كذلك ثبت أن اختصاص كل واحد من أجزاء الارض بما هو عليه من المكان والحيز والمماسة والقرب من بعض الاجسام والبعد من بعضها ممكن التغير والتبدل واذا ثبت أن اتصاف تلك الاجرام بصفاتها أمر جائز وجب افتقارها فى ذلك الاختصاص الى مدبر قديم عليم سبحانه وتعالى عن قول الظالمين واذا عرفت مأخذ الكلام سهل عليك التفريع

﴿المسئلة الثانية﴾ ان الارض تظهر جزأ فجزأ الى الشمس وظهور الضوء لتلك الاجزاء بواسطة انكساره فى الهواء لو قلنا انه حصل بقدرة الله تعالى ابتداء من حيث انه تعالى أجرى عادته بخلق الضوء فى الهواء عند طلوع الشمس فلا كلام وان قلنا الشمس توجب حصول الضوء فى الجرم المقابل له كان اختصاص الشمس بهذه الخاصية دون سائر الاجسام مع كون

الاجسام بأسرها متماثلة يدل على وجود الصانع سبحانه وتعالى * فان قيل لم لا يجوز أن يقال المحرك لاجرام السموات والارض ملك عظيم الجثة والقوة وله خلفاء وحينئذ لا يكون اختلاف الليل والنهار دليلا على الصانع (قلنا) أما على قولنا فلما دل الدليل على أن قدرة العبد غير صالحة للايجاد فقد زال السؤال وأما على قول المعتزلة فنفي أبوهاشم هذا الاحتمال بالسمع

﴿المسئلة الثالثة﴾ العالم كرة واذا كان الامر كذلك امتنع أن يكون اله العالم حاصلا في جهة الا أنا نقول اذا اعتبرنا كسوفا قمريا حصل في أول الليل بالبلاد الغربية كان عين ذلك الكسوف حاصلا في البلاد الشرقية في أول النهار فعلمنا أن أول الليل بالبلاد الغربية هو بعينه أول النهار بالبلاد الشرقية وذلك لا يمكن الا اذا كانت الارض مستديرة من المشرق الى المغرب وأيضا اذا توجهنا الى الجانب الشمالي فكلما كان توغلنا أكثر كان ارتفاع القطب الشمالي أكثر وبمقدار ما يرتفع القطب الشمالي ينخفض القطب الجنوبي وذلك يدل على أن الارض مستديرة من الشمال الى الجنوب ومجموع هذين الاعتبارين يدل على أن الارض كرة فاذا ثبت هذا فنقول اذا فرضنا انسانين وقف أحدهما على نقطة المشرق والآخر على نقطة المغرب صار أخمص قدميهما متقابلين (١) وأيضا اذا وقف انسان على خط الزوال الى أي بلد وكان انسان آخر واقفا في خط زوال ليلي متقاطرين فالذي هو فوق بالنسبة الى أحدهما يكون تحت بالنسبة الى الثاني فلو فرضنا أن اله العالم حصل في الحيز الذي هو فوق بالنسبة الى أحدهما فذلك الحيز بعينه هو تحت بالنسبة الى الثاني وبالعكس فثبت أنه تعالى لو حصل في حيز معين لكان ذلك الحيز تحت بالنسبة الى أقوام معينين وكونه تعالى تحت أهل الدنيا محال بالاتفاق فوجب أن لا يكون حاصلا في حيز معين وأيضا فعلى هذا التقدير أنه كل ما كان فوق بالنسبة الى أقوام كان تحت بالنسبة الى أقوام آخرين وكان يمينا بالنسبة الى ثالث وشمالا بالنسبة الى رابع وقدام الوجه بالنسبة الى خامس وخلف الرأس بالنسبة الى سادس فان كون الارض كرة يوجب ذلك الا أن حصول هذه الاحوال باجماع العقلاء محال في حق اله العالم الا اذا قيل انه محيط بالارض من جميع الجوانب لكون هذا فلكا محيطا بالارض وحاصله يرجع الى أن اله العالم هو بعض الافلاك المحيطة بهذا العالم وذلك لا يقول به مسلم والله سبحانه وتعالى أعلم * وأما قوله تعالى ثم استوى على العرش ففيه حجج (الحجة الاولى) لو كان اله العالم فوق العرش لكان اما أن يكون مماسا للعرش أو مباينا له ببعد متناه أو ببعد غير متناه والاقسام الثلاثة باطلة فالقول بكونه فوق العرش باطل * أما بيان فساد القسم الاول فهو بتقدير أنه مماس للعرش كان الطرف الاسفل منه مماسا للعرش أيضا فهل يبقى فوق ذلك الطرف شيء غير مماس للعرش أو لم يبق فان كان الاول فالشيء الذي منه صار مماسا لطرف العرش غير ما هو منه غير مماس لطرف العرش فيلزم أن تكون ذات الله تعالى مركبة من الاجزاء والابعاض فتكون ذاته في الحقيقة مركبة من سطوح متلاقية موضوعة بعضها فوق بعض وذلك هو القول بكونه جسما مركبا من الاجزاء والابعاض وذلك محال وان

(١) قوله وأيضا اذا وقف الخ كذا بالاصل ولتحرر اه

كان الثاني فحينئذ يكون ذات الله تعالى سطحا رقيقا لا ثخن له أصلا ثم يعود التقسيم فيه وهو أنه ان حصل له تمدد في اليمين والشمال والأمام والخلف كان مركبا من الاجزاء والابعاض وان لم يكن له تمدد ولا ذهاب في الاحياز بحسب الجهات الست كان ذرة من الذرات وجزأ لا يتجزأ مخلوطا بالهباآت وذلك لا يقوله عاقل * وأما القسم الثاني وهو أن يقال بينه وبين العالم بعد متناه فهذا أيضا محال لانه على هذا التقدير لا يمتنع أن يرتفع العالم من حيزه الى الجهة التي فيها حصلت ذات الله تعالى الى أن يصير العالم مماسا له وحينئذ هو كالمحال المذكور في القسم الاول * وأما القسم الثالث وهو أن يقال انه تعالى مباين للعالم ببينونة غير متناهية فهذا أظهر فسادا من كل الاقسام لانه تعالى لما كان مباينا للعالم كانت البينونة بينه تعالى وبين غيره محدودة بطرفين وهما ذات الله تعالى وذات العالم ومحصورا بين هذين الحاصرين والبعد المحصور بين الحاصرين والمحدود بين الحدين والطرفين يمتنع كونه بعدا غير متناه (فان قيل) أليس أنه تعالى متقدم على العالم من الازل الى الابد فتقدمه على العالم محصور بين حاصرين ومحدود بين حدين وطرفين أحدهما الازل والثاني أول وجود العالم ولم يلزم من كون هذا التقدم محصورا بين حاصرين أن يكون لهذا التقدم أول وبداية فكذا ههنا وهذا هو الذي عول عليه محمد بن الهيثم في دفع هذا الاشكال عن هذا القسم فالجواب المعقول عليه أن هذا محض مغالطة لانه ليس الازل عبارة عن وقت معين وزمان معين حتى يقال انه تعالى متقدم على العالم من ذلك الوقت الى الوقت الذي هو أول العالم فان كل وقت معين يفرض من ذلك الوقت الى الوقت الآخر يكون محدودا بين حدين ومحصورا بين حاصرين وذلك لا يعقل فيه أن يكون غير متناه بل الازل عبارة عن نفي الاولية من غير أن يشار به الى وقت معين البتة * اذا عرفت هذا فنقول اما أن نقول انه تعالى مختص بجهة معينة وحاصل في حيز معين واما أن لا نقول ذلك فان قلنا بالاول كان البعد الحاصل بين ذينك الطرفين محدودا بين ذينك الحدين والبعد المحصور بين الحاصرين لا يعقل كونه غير متناه لان كونه غير متناه عبارة عن عدم الحد والقطع والطرف وكونه محصورا بين الحاصرين معناه اثبات الحد والقطع والطرف والجمع بينهما يوجب الجمع بين النقيضين وهو محال ونظيره ماذكرناه أنا متى عينا قبل العالم وقتا معينا كان البعد بينه وبين الوقت الذي حصل فيه أول العالم بعدا متناهيا لا محالة وأما ان قلنا بالقسم الثاني وهو أنه تعالى غير مختص بحيز معين وغير حاصل في جهة معينة فهذا عبارة عن نفي كونه في الجهة لان كون الذات المعينة حاصلة لا في جهة معينة في نفسها قول محال ونظيره هذا قول من يقول الازل ليس عبارة عن وقت معين بل اشارة الى نفي الاولية والحدوث فظهر أن هذا الذي قاله ابن الهيثم تخييل خال عن التحصيل

(الحجة الثانية) أنه ثبت في العلوم العقلية أن المكان اما السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي واما البعد المجرد والفضاء الممتد وليس يعقل في المكان قسم ثالث * اذا عرفت هذا فنقول ان كان المكان هو الاول فنقول ثبت أن أجسام العالم متناهية فخارج العالم الجسماني لا خلاء ولا ملاء ولا مكان ولا جهة فيمتنع أن

يحصل الاله فى مكان خارج العالم وان كان المكان هو الثانى فنقول طبيعة البعد طبيعة واحدة متشابهة فى تمام الماهية فلو حصل الاله فى حيز لكان ممكن الحصول فى سائر الأحياز وحينئذ يصح عليه الحركة والسكون وكل ما كان كذلك كان محدثا بالدلائل المشهورة المذكورة فى علم الأصول وهى مقبولة عند جمهور المتكلمين فيلزم كون الاله محدثا وهو محال فثبت أن القول بأنه تعالى حاصل فى الحيز والجهة قول باطل على كل الاعتبارات

﴿الحجة الثالثة﴾ وهى حجة استقرائية اعتبارية لطيفة جدا وهى أنا رأينا أن الشئ كلما كان حصول معنى الجسمية فيه أقوى وأثبت كانت القوة الفاعلية فيه أمكن وكلما كان حصول معنى الجسمية أقل وأضعف كان حصول القوة الفاعلية فيه أظهر وأكمل * وتقريره أن نقول وجدنا الارض أكثف الأجسام وأقواها جسمية فلا جرم لم يحصل فيها الا خاصية قبول الأثر من الاجرام المؤثرة فيها فتحرك القوة الكامنة بها فأما أن يكون للارض تأثير فى غيره فقليل * وأما الماء فهو أقل كثافة وجسمية من الارض فلا جرم حصلت فيه قوة مؤثرة فان الماء الجارى طبعه اذا اختلط بالارض أثر فيها أنواعا من التأثيرات * وأما الهواء فانه أقل جسمية وكثافة من الماء فلا جرم كان أقوى على التأثير من الماء فلذلك قال بعضهم ان الحياة لا تكمل الا بالنفس وزعموا أنه لا معنى للروح الا الهواء المستنشق * وأما الحرارة والضوء فانهما أقل كثافة من الهواء وانهما الا مسكان فلا جرم كانت أقوى الأجسام العنصرية على التأثير فبقوة الحرارة والضوء تكون المواليد الثلاثة أعنى المعادن والنبات والحيوان وأما الافلاك فلا جرم كان أعظمها ضوأ وهى الشمس هى المستولية على مزاج الأجرام الارضية وتوليد الانواع والاصناف المختلفة من تلك التربيات فهذا الاستقراء المطرد يدل على أن الشئ كلما كان أكثر جسمية وجرمية وجسمية كان أكثر قوة وتأثيرا وكلما كان أقوى قوة وتأثيرا كان أقل جسمية وجرمية وجسمية وهذا يكون فى العناصر وكما كان أكثر قوة وتأثيرا كان لا جرمية ولا جسمية وهذه الحياة لسارية فى الكائنات واذا كان الأمر كذلك أفاد هذا الاستقراء ظنا قويا بأنه حيث حصل كمال القوة والقدرة على الاحداث والابداع لم يحصل هنالك البتة استواء الجسمية والجرمية والاختصاص بالحيز والجهة وهذا وان كان بحثا استقرائيا الا أنه عند التأمل التام شديد المناسبة للقطع بكونه تعالى منزها عن الجسمية والموضع والحيز وبالله التوفيق * فهذه جملة الوجوه العقلية فى بيان كونه تعالى منزها عن الاختصاص بالحيز والجهة

﴿وأما بيان الحجج والدلائل السمعية فكثيرة﴾ أولها قوله تعالى قل هو الله أحد فوصفه بكونه أحدا والأحد مبالغة فى كونه واحدا والذى يمتلئ منه العرش ويفضل عن العرش يكون من أجزاء كثيرة جدا فوق أجزاء العرش وذلك ينافى كونه واحدا ورأيت جماعة من الكرامية عند هذا الالزام يقولون انه تعالى ذات واحدة ومع كونها واحدة حصلت فى كل هذه الاحياز دفعة واحدة قالوا فلاجل أنه حصل دفعة واحدة فى جميع الاحياز امتلأ العرش منه فقلت حاصل هذا الكلام يرجع الى أنه يجوز حصول الذات الشاغلة للحيز

والجهة في أحياز كثيرة دفعة واحدة والعقلاء اتفقوا على أن العلم بفساد ذلك من أجلى العلوم الضرورية وأيضا فان جوز ثم ذلك فلم لا تجوزون أن يقال ان جميع العالم من العرش الى ماتحت الثرى جوهر واحد وموجود واحد الا أن ذلك الجزء الذي لا يتجزأ حصل في جملة هذه الاحياز فظن أنها أشياء كثيرة ومعلوم أن من جوزه فقد التزم منكرا من القول عظيما فان قالوا انما عرفنا ههنا حصول التغاير بين هذه الذوات لان بعضها يفنى مع بقاء الباقي وذلك يوجب التغاير وأيضا فنرى أنها متحركة وأجزاءها ساكنة والمتحرك الجملة فوجب القول بالتغاير وهذه المعاني غير حاصلة في ذات الله تعالى فظهر الفرق * اذا عرفت هذا فنقول أما قولك بأنا نشاهد أن هذا الجزء يبقى مع أنه يفنى ذلك الجزء الآخر وذلك يوجب التغاير فنقول لا نسلم أنه فنى شئ من الأجزاء بل نقول لم لا يجوز أن يقال ان جميع أجزاء العالم جزء واحد فقط ثم انه حصل ههنا وهنالك وأيضا حصل موصوفا بالسواد والبياض وجميع الالوان والطعوم فالذي يفنى انما هو حصوله هنالك فاما أن يقال انه فنى في نفسه فهذا غير مسلم وأما قوله نرى بعض الأجسام متحركا وجميع أجزائها ساكنا وذلك يوجب التغاير لان الحركة والسكون لا يجتمعان فنقول اذا حكمنا بان الحركة والسكون لا يجتمعان لاعتقادنا أن الجسم الواحد لا يحصل دفعة واحدة في حيزين فاذا رأينا أن الساكن بقي هنا وأن المتحرك ليس هنا قضينا أن المتحرك غير الساكن وأما بتقدير أنه يجوز كون الذات الواحدة حاصلة في حيزين دفعة واحدة لم يمتنع كون الذات الواحدة متحركة ساكنة معا لان أقصى ما في الباب أن بسبب بقائه يتناسب الأجزاء وبسبب الحركة حصل في الحيز الآخر الا أنا لما جوزنا أن تحصل الذات الواحدة دفعة واحدة في حيزين معا لم يبعد أن تكون الذات الساكنة هي عين الذات المتحركة فثبت أنه لو جاز أن يقال انه تعالى في ذاته واحد لا يقبل القسمة ثم مع ذلك يمتلئ العرش منه لم يبعد أيضا أن يقال العرش في نفسه جوهر فرد وجزء لا يتجزء ومع ذلك فقد حصل في كل تلك الاحياز وحصل منه كل العرش ومعلوم أنه يفضي الى باب الجهالات (وثانيها) أنه تعالى قال ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فلو كان اله العالم في العرش لكان حامل العرش حاملا للاله فوجب أن يكون الاله محمولا حاملا ومحفوظا حافظا وذلك لا يقوله عاقل (وثالثها) أنه تعالى قال والله الغني حكم بكونه غنيا على الاطلاق وذلك يوجب كونه غنيا عن المكان والجهة (ورابعها) أن فرعون لما طلب حقيقة الاله تعالى من موسى عليه السلام لم يزد موسى عليه السلام على ذكر صفة الخلاقية ثلاث مرات فانه قال وما رب العالمين ففي المرة الاولى قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين وفي الثانية قال ربكم ورب آبائكم الاولين وفي الثالثة قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون وكل ذلك اشارة الى الخلاقية وأما فرعون لعنه الله فانه قال يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات فاطلع الى اله موسى فطلب الاله في السماء فعلمنا أن وصف الاله بالخلاقية وعدم وصفه بالمكان والجهة دين موسى وسائر جميع الانبياء عليهم السلام وجميع وصفه تعالى بكونه في السماء دين فرعون واخوانه

من

من الكفرة (وخامسها) أنه تعالى قال في هذه الآية ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش وكلمة ثم للتراخي وهذا يدل على أنه تعالى انما استوى على العرش بعد تخليق السموات والارض فان كان المراد من الاستواء الاستقرار لزم أن يقال انه ما كان مستقرا على العرش بل كان معوجا مضطربا ثم استوى عليه بعد ذلك وذلك يوجب وصفه تعالى بصفات سائر الأجسام من الاضطراب والحركة تارة والسكون أخرى وذلك لا يقوله عاقل (وسادسها) أنه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام أنه انما طعن في الهية الكواكب والقمر والشمس بكونها آفلة غاربة فلو كان اله العالم جسما لكان أبدا غاربا آفلا وكان منتقلا من الاضطراب والاعوجاج الى الاستواء والسكون والاستقرار فكل ما جعله ابراهيم عليه السلام طعنا في الهية الشمس والكواكب والقمر يكون حاصلا في اله العالم فكيف يمكن الاعتراف بالهيته (وسابعها) أنه تعالى ذكر قبل قوله ثم استوى على العرش شيأ وبعده شيأ آخر أما الذي ذكره قبل هذه الكلمة فهو قوله ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض وقد بينا أن خلق السموات يدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته من وجوه كثيرة وأما الذي ذكره بعد هذه الكلمة فأشياء (أولها) قوله يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا أعني أن الكواكب الليلية تطلب حثيثا أي تتحرك وتطلب بعضها وذلك أحد الدلائل الدالة على وجود الصانع وهو الله تعالى وعلى قدرته وحكمته (وثانيها) قوله والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهو أيضا من الدلائل الدالة على وجوده وقدرته وعلمه (وثالثها) قوله ألا له الخلق والأمر وهو أيضا اشارة الى كمال قدرته وحكمته * فاذا ثبت هذا فنقول أول الآية اشارة الى ذكر ما يدل على الوجود والقدرة والعلم وآخرها يدل أيضا على هذا المطلوب واذا كان الامر كذلك فقوله تعالى ثم استوى على العرش وجب أن يكون أيضا دليلا على كمال القدرة والعلم لانه لو لم يدل عليه بل كان المراد كونه مستقرا على العرش كان ذلك كلاما أجنبيا عما قبله وعما بعده فان كونه تعالى مستقرا على العرش لا يمكن جعله دليلا على كماله في القدرة والحكمة وليس أيضا من صفات المدح والثناء لأنه تعالى قادر على أن يجلس جميع أعداد البق والبعوض على العرش وعلى ما فوق العرش فثبت أن كونه جالسا على العرش ليس من دلائل اثبات الصفات والذات ولا من صفات المدح والثناء فلو كان المراد من قوله ثم استوى على العرش كونه جالسا على العرش لكان ذلك كلاما أجنبيا عما قبله وعما بعده وهذا يوجب نهاية الركاكة فثبت أن المراد منه ليس ذلك بل المراد منه كمال قدرته في تدبير الملك والملكوت حتى تصير هذه الكلمة مناسبة لما قبلها ولما بعدها وهو المطلوب (ورابعها) أن السماء عبارة عن كل ما ارتفع وسما وعلا والدليل عليه أنه تعالى سمى السحاب سماء حيث قال وينزل من السماء ماء ليطهركم به واذا كان الامر كذلك فكل ماله ارتفاع وعلو وسمو كان سماء فلو كان اله العالم موجودا فوق العرش لكان ذات الاله تعالى سماء لساكن العرش فثبت أنه تعالى لو كان فوق العرش لكان سماء والله تعالى حكم بكونه خالقا لكل السموات في آيات كثيرة منها هذه الآية وهي قوله ان ربكم الله الذي خلق

السموات والارض فلو كان فوق العرش سماء لسكان أهل العرش لكان خالقا لنفسه وذلك محال * واذا ثبت هذا فنقول قوله الذى خلق السموات والارض هى آية محكمة دالة على أن قوله ثم استوى على العرش من المتشابهات التى يجب تأويلها وهذه نكتة لطيفة ونظير هذا أنه تعالى قال فى أول سورة الانعام وهو الله فى السموات ثم قال بعده بقليل قل لمن مافى السموات والارض قل لله فدلت هذه الآية المتأخرة على أن كل مافى السموات فهو ملك لله فلو كان الله فى السموات لزم كونه ملكا لنفسه وذلك محال فكذا ههنا فثبت بمجموع هذه الدلائل العقلية والنقلية أنه لا يمكن حمل قوله ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان (الاول) أن نقطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة ولا نخوض فى تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها الى الله تعالى (والثانى) أن نخوض فى تأويلها وفيه قولان ملخصان بل ثلاثة (الاول) ماذكره القفال فقال العرش فى كلامهم هو السرير والذى يجلس عليه الملوك ثم جعل العرش كناية عن نفس الملك يقال ثل عرشه أى انتقض ملكه وفسد واذا استقام له ملكه واطرد أمره وحكمه قالوا استوى على عرشه واستقر على سرير ملكه هذا ماقاله القفال وأقول ان الذى قاله حق وصدق وصواب ونظيره قولهم للرجل الطويل فلان طويل النجاد وللرجل الذى يكثر الضيافة فلان كثير الرماد وللرجل الشيخ فلان اشتعل رأسه شيبا وليس المراد فى شئ من هذه الالفاظ اجراءها على ظواهرها انما المراد منها تعريف المقصود على سبيل الكناية فكذا ههنا بذكر الاستواء على العرش والمراد نفاذ القدرة وجريان المشيئة ثم قال القفال رحمه الله تعالى والله تعالى دل على ذاته وعلى صفاته وكيفية تدبير العالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم ورؤسائهم استقر فى قلوبهم عظمة الله تعالى وجلاله وكماله الا أن كل ذلك مشروط بنفى التشبيه فاذا قال انه عالم مثلا فهموا منه أنه لا يخفى عليه تعالى شئ ثم علموا بعقولهم أنه لم يحصل ذلك العلم بفكرة ولا روية ولا باستعمال حاسة واذا قال قادر علموا منه أنه متمكن من ايجاد الكائنات وتكوين الممكنات ثم علموا بعقولهم أنه غنى فى ذلك الايجاد والتكوين عن الآلات والأدوات وسبق المادة والمدة والفكرة والروية وهكذا القول فى كل صفاته واذا أخبر أن له بيتا يجب على عباده حجه فهموا منه أنه نصب لهم موضعا يقصدونه لمسئلة ربهم وطلب حوائجهم كما يقصدون بيوت الملوك والرؤساء لهذا المطلوب ثم علموا بعقولهم نفى التشبيه وأنه لم يجعل ذلك البيت مسكنا لنفسه ولم ينتفع به فى دفع الحر والبرد عن نفسه واذا أمرهم بتحميده وتمجيده فهموا منه أنه أمرهم بنهاية تعظيمه ثم علموا بعقولهم أنه لا يفرح بذلك التحميد والتعظيم ولا يغتم بتركه والاعراض عنه * اذا عرفت هذه المقدمة فنقول انه تعالى أخبر أنه خلق السموات والارض كما أراد وشاء من غير منازع ولا مدافع ثم أخبر بعده أنه استوى على العرش أى حصل له تدبير المخلوقات على ماشاء وأراد فكان قوله ثم استوى على العرش أى بعد أن خلقها استوى على عرش الملك والجلال * ثم قال القفال والدليل على أن هذا هو المراد قوله فى سورة يونس ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام

ثم استوى على العرش يدبر الأمر كما يأتي ذكرها بعد فقوله يدبر الامر جرى مجرى التفسير لقوله استوى على العرش وقال في هذه الآية التي نحن في تفسيرها ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر وهذا يدل على أن قوله ثم استوى على العرش اشارة الى ماذكرناه (فان قيل) فاذا حملتم قوله ثم استوى على العرش على أن المراد استوى على الملك وجب أن يقال الله تعالى لم يكن مستوليا قبل خلق السموات والارض قلنا انه تعالى انما كان قبل خلق العوالم قادرا على تخليقها وتكوينها وما كان مكونا ولا موجدا لها باعيانها بالفعل لان احياء زيد واماتة عمرو واطعام هذا وارواء هذا لا يحصل الا عند هذه الاحوال فاذا فسرنا العرش بالملك والملك بهذه الاحوال صح أن يقال انه تعالى انما استوى على ملكه بعد خلق السموات والارض بمعنى أنه انما ظهر تصرفه في هذه الاشياء وتدبيره لها بعد خلق السموات والارض وهذا جواب حق صحيح في هذا الموضع * القول الثاني في الجواب أن يقال استوى بمعنى استولى * القول الثالث أن نفسر العرش بالملك ونفسر استوى بمعنى علا واستعلى على الملك فيكون المعنى أنه تعالى استعلى على الملك بمعنى أن قدرته نفذت في ترتيب الملك والملكوت * وأما قوله تعالى يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ففيه مسائل

* (المسئلة الاولى) * قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص يغشي بتخفيف الشين وفي الرعد هكذا وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر بالتشديد وفي الرعد هكذا * قال الواحدي رحمه الله تعالى الاغشاء والتغشية الباس الشئ بالشئ وقد جاء التنزيل بالتشديد والتخفيف فمن التشديد قوله تعالى فغشاها ما غشي ومن التخفيف قوله فاغشيناهم فهم لا يبصرون والمفعول الثاني محذوف على معنى فأغشيناهم العمى وفقد الرؤية

* (المسئلة الثانية) * قوله يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا يحتمل أن يكون المراد يلحق الليل بالنهار وأن يكون المراد يلحق النهار بالليل واللفظ يحتملهما معا وليس فيه تغيير والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار أي يدرك النهار الليل ويطلبه * قال القفال رحمه الله تعالى انه سبحانه وتعالى أخبر في هذا الكتاب الكريم بما في تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة والفوائد الجليلة فان بتعاقبهما يتم أمر الحياة وتكمل المنفعة والمصلحة

* (المسئلة الثالثة) * قوله يطلبه حثيثا قال الليث الحث الاعجال يقال حثثت فلانا فاحتثث فهو حثيث ومحثوث أي مجد سريع (واعلم) أنه سبحانه وصف هذه الحركة بالسرعة والشدة وذلك هو الحق لان تعاقب الليل والنهار انما يحصل من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي تخرج كل يوم فوق الافق جهة المشرق وتختفي جهة المغرب وتلك الحركات أشد الحركات سرعة وأكملها شدة فبمقدار ماقالوا ان الانسان اذا كان في العدو الشديد الكامل فالى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك في الدقيقة ثمانية عشر ميلا ونصف وربع ميل واذا كان

الأمر كذلك كانت تلك الحركة فى غاية الشدة والسرعة فلهذا السبب قال تعالى يطلبه حثيثا ونظير هذه الآية قوله سبحانه وتعالى لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون فشبه ذلك السير وتلك الحركة بالسباحة فى الماء والمقصود التنبيه على سرعتها وسهولتها وكمال اتصالها ثم قال تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وفيه مسائل

(المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع على معنى الابتداء والباقون بالنصب على معنى وجعل الشمس والقمر قال الواحدى والنصب هو الوجه لقوله تعالى واسجدوا لله الذى خلقهن فكما صرح فى هذه الآية أنه سخر الشمس والقمر كذلك يجب أن يحمل على أنه خلقها فى قوله ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض والشمس والقمر والنجوم وهذا النصب على الحال أى خلق هذه الاشياء حال كونها موصوفة بهذه الصفات والآثار والافعال* وحجة ابن عامر قوله تعالى وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض ومن جملة ما فى السموات الشمس والقمر فلما أخبر أنه تعالى سخرها حسن الاخبار عنها بأنها مسخرة كما أنك اذا قلت ضربت زيدا استقام أن تقول زيد مضروب *(المسئلة الثانية)* فى هذه الآية لطائف* الاولى أن الشمس لها نوعان من الحركة أحدهما حركتها بحسب ذاتها على محورها وتقطعها فى خمسة وعشرين يوما وست ساعات وست عشرة دقيقة وثمان ثوان وعطارد له دورتان دورة على نفسه فى أربع وعشرين ساعة وخمس دقائق ودورة أخرى حمائلية فى ثمانية وثمانين يوما والزهرة لها دورتان دورة على نفسها فى ثلاث وعشرين ساعة واحدى وعشرين دقيقة ودورة أخرى حمائلية فى مائتين وأربعة وعشرين يوما وسبع عشرة ساعة وللمريخ دورتان دورة على نفسه فى أربع وعشرين ساعة واحدى وثلاثين دقيقة ودورة أخرى حمائلية فى سنة واحدة وثلاثمائة واثنين وعشرين يوما* وزحل له دورتان دورة على نفسه فى عشر ساعات وست عشرة دقيقة ودورة أخرى حمائلية فى تسع وعشرين سنة ومائة وستة وستين يوما وللمشترى دورتان دورة على نفسه فى تسع ساعات وست وخمسين دقيقة ودورة أخرى حمائلية فى احدى عشرة سنة وثلاثمائة وخمسة عشر يوما* وللقمر دورتان دورة على نفسه فى سبعة وعشرين يوما وثمان ساعات تقريبا ودورة حمائلية حول الارض فى سبعة وعشرين يوما وسبع ساعات وثلاثة أرباع ساعة ولكن لا يبتدئ فى التجدد الا بعد تمام سبعة وعشرين يوما ونصف يوم فلا بد له من يومين وأربع ساعات حتى يمكن أن يقترن بالارض وبالشمس * ثم انه بسبب الحركة فى فلكه التى تكون من المغرب الى المشرق يظهر لنا كأنه يختلف كل يوم عن الشمس باحدى وخمسين دقيقة وذلك أن القمر فى حال تجدده يوجد فى دائرة نصف النهار فى وقت الزوال كالشمس فيكونان متحدى الزمن على هذه الدائرة ثم اذا كان القمر فى الربع الاول كانت الساعة ستة بعد انتصاف النهار واذا كان فى حالة التمام كان دخوله فيها فى نصف الليل ودخل فى الربع الأخير وقد مضى ست ساعات بعد نصف الليل حتى يصل درجة التجدد فى نصف النهار فلا يمكن أن نعد بين هلالين الاثمانية

وعشرين يوما ونصف يوم بالنسبة للقمر ويمكن أن نحسب يوما زائدا بالنسبة للشمس والحركة التي يكون بها الليل والنهار أن الشمس والقمر وسائر الكواكب تخرج كل يوم فوق الافق جهة المشرق وتختفي جهة المغرب وهذه الحركة تتم في اليوم والليلة * اذا عرفت هذا فنقول كون الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه يحتمل وجوها (أحدها) أنا قد دللنا في هذا الكتاب العالي الدرجة أن الاجسام متماثلة ومتى كان كذلك كان اختصاص جسم الشمس بذلك المخصوص والحرارة والضوء الباهرين والتسخير الشديد والتأثير القاهر والتدبيرات العجيبة في العالم العلوي والسفلي لا بدّ وأن يكون لاجل أن الفاعل الحكيم والمقدر العليم خص ذلك الجسم بهذه الصفات وهذه الاحوال فجسم كل واحد من الكواكب والنيرات كالمسخر في قبول تلك القوى والخواص عن قدرة المدبر الحكيم الرحيم العليم (وثانيها) أن يقال ان لكل واحد من أجرام الشمس والقمر والكواكب سيرا خاصا وسيرا آخر كما قلنا بسبب التأثرات فالحق سبحانه خص جرم الشمس بقوة سارية في أجرام سائر الافلاك باعتبارها صارت مستولية عليها قادرة على تحريكها على سبيل القهر فأجرام الافلاك والكواكب صارت كالمسخرة لهذا القهر والقسر ولفظ الآية مشعر بذلك وأودع تعالى قوة سارية في شئ مجهول علينا تدور الشمس حوله فجعل سبحانه لكل مجموع شمسي قوة قاهرة باعتبارها قوى على قهر جميع الافلاك والكواكب وتحريكها على خلاف مقتضى طبائعها حيث خص كل واحد من هذه الاجسام بخاصية معينة وصفة معينة وقوة مخصوصة فلهذا السبب قال تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره (وثالثها) أن القوى قوتان احداهما القوة الجاذبة الى المركز والاخرى القوة الدافعة عنه فالقوة الاولى تجذب الكواكب في الفراغ لان عادتها أن تجذب الشئ بقدر عظم الشئ الجاذب وبضعف جذبها بقدر مربع بعد الشئ المجذوب يعني أن الجاذبية قوية مرتين في جسم عظيم مرتين وضعيفة أربع مرات في جسم بعيد مرتين وضعيفة ست عشرة مرة في جسم بعيد أربع وهكذا كما قلنا آنفا فلذلك كانت الشمس تجذب اليها سائر الكواكب السيارة لما أن الشمس أعظم منها وأما القوة الثانية وهي الدفع عن المركز فانها تجعل الكوكب يتحرك على خط مستقيم فلما انضمت هذه القوة الى الاولى جعلت الكواكب ترسم قطوعا ناقصة وعظم هذه القوة يكون على حسب القرب من الشمس فلذلك كانت البعيدة من الشمس بطيئة السير في ممرها وكل واحد من الكواكب والدوائر والحوامل والممثلات يختص بنوع من تلك الحركات وأيضا فلكل واحد من تلك الكواكب مدارات مخصوصة فأسرعها هو المنطقة وكل ما كان أقرب اليه فهو أسرع حركة مما هو أبعد منه * ثم انه سبحانه جعل مجموع هذه الحركات على اختلاف درجاتها وتفاوت مراتبها سببا لحصول المصالح في هذا العالم كما قال تعالى في أول سورة البقرة ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات أي سواهن على وفق مصالح هذا العالم وهو بكل شئ عليم أي هو عالم بجميع المعلومات فيعلم أنه كيف ينبغي ترتيبها وتسويتها حتى تحصل مصالح هذا العالم فهذا أيضا نوع عجيب في تسخير الله تعالى

هذه الافلاك والكواكب * فالثوابت منها تنقسم بالنسبة الى لمعانها الى سبع مراتب فأولها ذات العظم الاول وثانيها ذات العظم الثانى وثالثها ذات العظم الثالث الى آخره ولا يمكن رؤية ذات العظم السابع الا بالآلات وتوجد رتبة فوق ذات العظم السابع لا ترى أبدا الا نادرا ولا يمكن أن يرصد منها بمجرد البصر الانحو أربعة آلاف ويمكن بالاستعانة بالآلات أن يعد منها جملة آلاف ألوف فتكون داخلة تحت قوله تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وربما جاء بعض المتعصبين والحمقى وقال انك أكثرت فى تفسير كتاب الله تعالى من علم الهيئة والنجوم ووضعته على خلاف المعتاد للقدماء فيقال لهذا المسكين انك لو تأملت فى كتاب الله تعالى حق التأمل لعرفت فساد ماذكرته * وتقريره من وجوه (الاول) أن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والارض وتعاقب الليل والنهار وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم وذكر هذه الامور فى أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى فلو لم يكن البحث عنها والتأمل فى أحوالها جائزا لما ملأ الله كتابه منها (الثانى) أنه تعالى قال أولم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج فهو تعالى حث على التأمل فى أنه كيف بناها ولا معنى لعلم الهيئة الا التأمل فى أنه تعالى كيف بناها وكيف خلق كل واحدة منها (الثالث) أنه تعالى قال لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون فبين أن عجائب الخلقة وبدائع الفطرة فى أجرام السموات أكثر وأعظم وأكمل منها فى أبدان الناس ثم انه تعالى رغب فى التأمل فى أبدان الناس فى قوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون فما كان أعلى شأنا وأعظم برهانا منها أولى بأن يجب التأمل فى أحوالها ومعرفة ما أودع الله تعالى فيها من العجائب والغرائب (الرابع) أنه تعالى مدح المتفكرين فى خلق السموات والارض فقال ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا ولو كان ذلك ممنوعا منه لما فعل (الخامس) أن من صنف كتابا شريفا مشتملا على دقائق العلوم العقلية والنقلية بحيث لا يساويه كتاب فى تلك الدقائق فالمعتقدون فى شرفه وفضيلته فريقان منهم من يعتقد كونه كذلك على سبيل الجملة من غير أن يقف على مافيه من الدقائق واللطائف على سبيل التفصيل والتعيين ومنهم من وقف على تلك الدقائق على سبيل التفصيل والتعيين واعتقاد الطائفة الاولى وان بلغ الى أقصى الدرجات فى القوة والكمال الا أن اعتقاد الطائفة الثانية يكون أكمل وأقوى وأوفى وأيضا فكل من كان وقوفه على دقائق ذلك الكتاب ولطائفه أكثر كان اعتقاده فى عظمة ذلك المصنف وجلالته أكمل * اذا ثبت هذا فنقول من الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث وكل محدث فله محدث فحصل له بهذا الطريق اثبات الصانع تعالى وصار من زمرة المستدلين ومنهم من ضم الى تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم العلوى والعالم السفلى على سبيل التفصيل فيظهر له فى كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة وأسرار عجيبة فيصير ذلك جاريا مجرى البراهين المتواترة والدلائل المتوالية على عقله فلا يزال ينتقل كل لحظة ولمحة من برهان الى برهان آخر

ومن

ومن دليل الى دليل آخر فكثرة الدلائل وتواليها له أثر عظيم فى تقوية اليقين وازالة الشبهات فاذا كان الامر كذلك ظهر أنه تعالى انما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والاسرار

﴿المسئلة الثالثة﴾ تقدم تفسير قوله تعالى مسخرات بأمره بما سبق ذكره مفصلا وأما المفسرون فلهم فيه وجوه (أحدها) المراد نفاذ ارادته لان الغرض من هذه الآية تبيين عظمته وقدرته وليس المراد من هذا الامر الكلام ونظيره قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقوله انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ومنهم من حمل هذا الامر على الامر الثانى الذى هو الكلام وقال انه تعالى أمر هذه الاجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة

﴿المسئلة الرابعة﴾ ان الشمس والقمر من النجوم فذكرهما ثم عطف على ذكرهما ذكر النجوم والسبب فى افرادهما بالذكر أنه تعالى جعلهما سببا لعمارة هذا العالم والاستقصاء فى تقريره لا يليق بهذا الموضع فالشمس هى ينبوع الحرارة والضوء وحياة الكائنات وتجذب فى حركتها أكراصغيرة معتمة لو فرض أن بعدها عنا كبعد الثوابت عنا لما شوهدت وتلك الاكر هى الكواكب المنسوبة لمجموعنا ونصف قطرها أعظم من نصف قطر الارض بمائة مرة تقريبا وحجمها أعظم من حجمها بمائة ألف ألف مرة تقريبا وتبسم نهارنا حيثما تقع أشعتها الضوئية على نصف كرتنا ويرخى الليل أستاره علينا حيثما تغيب تلك الاشعة عنا ويحصل من سيرها الظاهرى المائل حول الارض الفصول الاربعة ومقياس الزمن الذى لا يختل نسقه ولا يتعطل سيره انما يؤخذ من كونها تحرك جميع ما هو معرض لتأثيرها حركة لا تتغير

﴿فى بيان القمر﴾

هو كوكب الليل وسراجه وهو جرم مظلم كروى نصف قطره أقل من ثلث ما للارض بكثير وأكثر من الربع بيسير وهو كاذكرنا يستفيد نوره من نور الشمس وفى حالة ما اذا كانت الكواكب الثلاثة أعنى القمر والارض والشمس موضوعة بحيث يمر الخط المستقيم بمراكزها يستتر الضوء عنا بالقمر أو بالارض لكونهما جرمين مظلمين طبيعة ويكون ذلك هو المسمى بخسوف القمر أو كسوف الشمس فاذا لا يمكن أن يشاهد خسوف ولا كسوف الا فى زمن الاستقبال أو الاجتماع فخسوف القمر يحصل زمن الاستقبال وكسوف الشمس يحصل زمن الاجتماع ولجسم القمر تأثير قوى على الارض باستقامة لقصر المسافة بينهما فان تسلطن المد والجزر فى البحر المحيط والهواء وحدوث كثير من الحوادث الجوية والامراض المختلفة التى تحير فيها الاطباء ربما كانت حاصلة من تأثير القمر

(فى بيان خواص الكواكب)

ثم انه تعالى خص كل كوكب بخاصية عجيبة وتدبير غريب لا يعلم بتمامه الا الله تعالى وجعله معينا لها فى تلك التأثيرات والمباحث المستقصاة فى علم الهيئة أن الشمس لها التأثيرات العمومية والقمر له التأثير الارضى فلهذا السبب بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر الشمس وثنى

بالقمر ثم أتبعه بذكر سائر النجوم وأما قوله تعالى ألا له الخلق والامر ففيه مسائل

(المسئلة الاولى) احتج بعض العلماء بهذه الآية على أنه لا موجد ولا مؤثر الا الله سبحانه وتعالى والدليل عليه أن كل من أوجد شيأ أو أثر فى حدوث شئ فقد قدر على تخصيص ذلك الفعل بذلك الوقت فكان خالقا ثم الآية دلت على أنه لا خالق الا الله لانه قال ألا له الخلق والامر وهذا يفيد الحصر بمعنى أنه لا خالق الا الله وذلك يدل على أن كل أمر يصدر عن فلك أو ملك فخالق ذلك الامر فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى وحيث ثبت هذا الاصل تفرعت عليه مسائل (احداها) أنه لا اله الا الله اذ لو حصل الهان لكان الاله الثانى خالقا ومدبرا وذلك يناقض مدلول هذه الآية فى تخصيص الخلق بهذا الواحد (وثانيتها) أنه لا تأثير للكواكب فى أحوال هذا العالم والا لحصل خالق سوى الله وذلك ضد مدلول هذه الآية (وثالثتها) أن القول باثبات الطبائع والعقول والنفوس على ما يقوله الفلاسفة وأصحاب الكلمات باطل والا لحصل خالق غير الله (ورابعتها) خالق أعمال العباد هو الله وحده والا لحصل خالق غير الله تعالى (وخامستها) القول بأن العلم يوجب العالمية والقدرة توجب القادرية باطل والا لحصل مؤثر غير الله ومقدر غير الله وخالق غير الله تعالى وهو باطل

(المسئلة الثانية) احتج العلماء بهذه الآية على أن كلام الله قديم قالوا انه تعالى ميز بين الخلق وبين الامر ولو كان الامر مخلوقا لما صح هذا التمييز أجاب الجبائى عنه بأنه لا يلزم من افراد الامر بالذكر عقيب الخلق أن لا يكون الامر داخلا فى الخلق فانه تعالى قال تلك آيات الكتاب وقرآن مبين وآيات الكتاب داخلة فى القرآن وقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان مع أن الاحسان داخل فى العدل وقال قل من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال وهما داخلان تحت الملائكة وقال الكعبى ان مدار هذه الحجة على أن المعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه فان صح هذا الكلام بطل مذهبكم لانه تعالى قال فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته فعطف الكلمات على الله فوجب أن تكون الكلمات غير الله وكل ما كان غير الله فهو محدث مخلوق فوجب كون كلمات الله محدثة مخلوقة وقال القاضى أطبق المفسرون على أنه ليس المراد بهذا الامر كلام التنزيل بل المراد به نفاذ ارادة الله تعالى لان الغرض بالآية تعظيم قدرته وقال آخرون لا يبعد أن يقال الامر وان كان داخلا تحت الخلق الا أن الامر بخصوص كونه أمرا يدل على نوع آخر من الكمال والجمال فقوله ألا له الخلق والامر معناه له الخلق والايجاد فى المرتبة الاولى ثم بعد الايجاد والتكوين فله الأمر والتكليف فى المرتبة الثانية ألا ترى أنه لو قال له الخلق وله التكليف وله الثواب والعقاب كان ذلك حسنا مفيدا مع أن الثواب والعقاب داخلان تحت الخلق فكذا هنا وقال آخرون معنى قوله ألا له الخلق هو أنه ان شاء خلق وان شاء لم يخلق فكذا قوله والامر يجب أن يكون معناه أنه ان شاء أمر وان شاء لم يأمر واذا حصل الامر متعلقا لزم أن يكون ذلك الامر مخلوقا كما أنه لما كان حصول المخلوق متعلقا بمشيئته كان مخلوقا أما لو كان أمر الله قديما لم يكن ذلك الامر بحسب مشيئته بل كان من لوازم ذاته فحينئذ لا يصدق عليه أنه ان شاء

أمر وان شاء لم يأمر وذلك ينفي ظاهر الآية والجواب أنه لو كان الامر داخلا تحت الخلق كان افراد الامر بالذكر تكرارا محضا والاصل عدمه أقصى ما في الباب أنا تحملنا ذلك في صورة لاجل الضرورة لأن الاصل عدم التكرير والله تعالى أعلم

﴿المسئلة الثالثة﴾ هذه الآية تدل على أنه ليس لاحد أن يلزم غيره شيأ الا الله سبحانه وتعالى واذا ثبت هذا فنقول فعل الطاعة لا يوجب الثواب وفعل المعصية لا يوجب العقاب وايصال الألم لا يوجب العوض وبالجملة فلا يجب على الله لاحد من العبيد شئ البتة اذ لو كان فعل الطاعة يوجب الثواب لتوجه على الله من العبد مطالبة ملزمة والالزام جازم وذلك ينافي قوله ألا له الخلق والأمر

﴿المسئلة الرابعة﴾ دلت هذه الآية على أن القبيح لا يجوز أن يقبح لوجه عائد اليه وأن الحسن لا يجوز أن يحسن لوجه عائد اليه لان قوله ألا له الخلق والأمر يفيد أنه تعالى له أن يأمر بما شاء كيف شاء ولو كان القبيح يقبح لوجه عائد اليه لما صح من الله تعالى أن يأمر الا بما حصل منه ذلك الوجه ولا أن ينهى الا عما فيه وجه القبح فلم يكن متمكنا من الأمر والنهي كما شاء وأراد مع أن الآية تقتضي هذا المعنى

(المسئلة الخامسة) دلت هذه الآية على أنه سبحانه وتعالى قادر على خلق عوالم سوى هذا العالم كيف شاء وأراد * وتقريره أنه قال ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض الى والشمس والقمر والنجوم والخلق اذا أطلق أريد به الجسم المقدر أو ما يظهر تقديره في الجسم المقدر ثم بين في آية أخرى أنه أوحى في كل سماء أمرها وبين في هذه الآية أنه تعالى خصص كل واحد من الأجرام السماوية الفلكية المالئة للفضاء والارض أيضا جرم من تلك الأجرام وليس لذكر العالم حد معلوم كما أن القدرة الالهية لا حصر لتعلقاتها وذلك يدل على أن ما حدث بتأثير قدرة الله تعالى فتميز الأمر والخلق ثم قال بعد هذا التفصيل والبيان ألا له الخلق والأمر يعني له القدرة على الخلق والأمر على الاطلاق فوجب أن يكون قادرا على ايجاد هذه الاشياء وعلى تكوينها كيف شاء وأراد فلو أراد خلق ألف عالم بما فيه في أقل من لحظة ولمحة لقدر عليه لان هذه الماهيات ممكنة والحق قادر على كل الممكنات

﴿المسئلة السادسة﴾ قال قوم الخلق صفة من صفات الله وهو غير المخلوق واحتجوا عليه بالآية والمعقول أما الآية فقوله تعالى ألا له الخلق والأمر قالوا وعند أهل السنة الأمر لله لا بمعنى كونه مخلوقا له بل بمعنى كونه صفة له فكذلك يجب أن يكون الخلق لله لا بمعنى كونه مخلوقا له بل بمعنى كونه صفة له وهذا يدل على أن الخلق صفة قائمة بذات الله تعالى وأما المعقول فهو أنا اذا قلنا لم حدث هذا الشئ ولم وجد بعد أن لم يكن فنقول في جوابه لانه تعالى خلقه وأوجده فحينئذ يكون هذا التعليل صحيحا فلو كان كونه تعالى خالقا له نفس حصول ذلك المخلوق لكان قوله انه انما حدث لانه تعالى خلقه وأوجده جاريا مجرى قولنا انه انما حدث لنفسه ولذاته لا لشئ آخر وذلك محال باطل لان صدق هذا المعنى ينفي كونه مخلوقا من قبل الله تعالى فثبت أن كونه تعالى خالقا للمخلوق مغاير لذات ذلك المخلوق وذلك يدل على أن الخلق غير المخلوق وجوابه لو كان الخلق

غير المخلوق لكان ان كان قديما لزم من قدمه قدم المخلوق وان كان حادثا افتقر الى خلق آخر ولزم التسلسل وهو محال

(المسئلة السابعة) ظاهر الآية يقتضى أنه كما لا خالق الا الله فكذلك لا آمر الا الله وهذا يتأكد بقوله تعالى ان الحكم الا لله وقوله فالحكم لله العلى الكبير وقوله لله الأمر من قبل ومن بعد الا أنه مشكل بالآية والخبر أما الآية فقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره وأما الخبر فقوله عليه السلام اذا أمرتكم بشئ فائتوا منه ما استطعتم والجواب أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على أن أمر الله قد حصل فيكون الموجب فى الحقيقة هو أمر الله لا غيره والله أعلم

(المسئلة الثامنة) قوله ألا له الخلق والأمر يدل على أن لله أمرا ونهيا على عباده وأن له تكليفا على عباده والخلاف مع نفاة التكليف احتجوا عليه بوجوه (أولها) أن المكلف به ان كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع فكان الامر به أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال وان كان غير معلوم الوقوع كان ممتنع الوقوع فلا فائدة فى الامر به (وثانيها) أن أمر الكافر والفاسق لا يفيد الا الضرر المحض لانه لما علم الله أنه لا يؤمن ولا يطيع امتنع أن يصدر عنه الايمان والطاعة الا اذا صار علم الله جهلا والعبد لا قدرة له على تجهيل الله وتعذر اللازم تعذر الملزوم فوجب أن يقال لا قدرة للكافر والفاسق على الايمان والطاعة أصلا واذا كان كذلك لم يحصل من الأمر به الا مجرد استحقاقه العقاب فيكون هذا الأمر والتكليف اضرارا محضا من غير فائدة البتة وهو لا يليق بالرحيم الحكيم (وثالثها) أن الأمر والتكليف ان لم يكن لفائدة فهو عبث وان كان لفائدة عائدة الى المعبود فهو محتاج وليس باله وان كان لفائدة عائدة الى العابد فجميع الفوائد منحصرة فى تحصيل النفع ودفع الضرر والله تعالى قادر على تحصيلها بالتمام والكمال من غير واسطة التكليف فكان توسيط التكليف اضرارا محضا من غير فائدة وهو لا يجوز (واعلم) أنه تعالى بين فى هذه الآية أنه يحسن منه أن يأمر عباده وأن يكلفهم بما شاء واحتج عليه بقوله ألا له الخلق والأمر يعنى لما كان الخلق منه ثبت أنه هو الخالق لكل العبيد واذا كان خالقا لهم كان مالكا لهم واذا كان مالكا لهم حسن منه أن يأمرهم وينهاهم لان ذلك تصرف من المالك فى ملك نفسه وذلك مستحسن فقوله سبحانه ألا له الخلق والأمر يجرى مجرى الدليل القاطع على أنه يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بما شاء كيف شاء

(المسئلة التاسعة) دلت الآية على أنه يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بما شاء كيف شاء بمجرد كونه خالقا لهم لا كما يقوله المعتزلة من كون ذلك الفعل صلاحا ولا كما يقولونه أيضا من حيث العوض والثواب لانه تعالى ذكر أن الخلق له أولا ثم ذكر الأمر بعده وذلك يدل على أن حسن الأمر معلل بكونه خالقا لهم موجدا لهم واذا كانت العلة فى حسن الأمر والتكليف هذا القدر سقط اعتبار الحسن والقبح والثواب والعقاب فى اعتبار حسن الأمر والتكليف

(المسئلة العاشرة) دلت هذه الآية على أنه تعالى متكلم آمر ناه مخبر مستخبر وكان من حق هذه المسئلة تقدمها على سائر المسائل والدليل عليه قوله تعالى ألا له الخلق والأمر فدل ذلك على أنه له الامر واذا ثبت هذا وجب أن يكون له النهى والخبرة والاستخبار ضرورة أنه لا قائل بالفرق

(المسئلة الحادية عشرة) انه تعالى بين كونه تعالى خالقا للسموات والارض والشمس والقمر والنجوم وعين لكل منها حيزه فى الكرة ثم قال ألا له الخلق والامر أى لا خالق الا هو ولقائل أن يقول لا يلزم من كونه تعالى خالقا لهذه الاشياء أن يقال لا خالق على الاطلاق الا هو فلم رتب على اثبات كونه خالقا لتلك الاشياء اثبات أنه لا خالق الا هو على الاطلاق فنقول الحق أنه متى ثبت كونه تعالى خالقا لبعض الاشياء وجب كونه خالقا لكل الممكنات وتقريره أن افتقار المخلوق الى الخالق لامكانه والامكان مفهوم واحد فى كل الممكنات وهذا الامكان اما أن يكون علة للحاجة الى مؤثر متعين أو الى مؤثر غير متعين والثانى باطل لان كل ما كان موجودا فى الخارج فهو متعين فى نفسه فيلزم منه أن ما لا يكون متعينا فى نفسه لم يكن موجودا فى الخارج وما لا وجود له فى الخارج امتنع أن يكون علة لوجود غيره فى الخارج فثبت أن الامكان علة للحاجة الى موجد معين فوجب أن يكون جميع الممكنات محتاجا الى ذلك المعين فثبت أن الذى يكون مؤثرا فى وجود شئ واحد هو المؤثر فى وجود كل الممكنات

* وأما قوله تعالى تبارك الله رب العالمين فاعلم أنه سبحانه لما بين كونه خالقا لجميع الاجرام وعين حيزها وبين لها خطوط دوائرها وبين كون الكل مسخرا فى قدرته وقهره ومشيئته وبين أنه له الحكم والأمر والنهى والتكليف بين أنه يستحق الثناء والتقديس والتنزيه فقال تبارك الله رب العالمين جمع عالم والعالم كل موجود سوى الله تعالى فبين كونه ربا والها وموجدا ومحدثا لكل ما سواه ومع كونه كذلك فهو رب محسن ومتفضل وهذا آخر الكلام فى شرح وتفسير هذه الآية والله سبحانه وتعالى أعلم

(فى بيان قوله تعالى إن ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون)

وفى الآية مسائل *(الاولى)* أن الدليل الدال على وجود الصانع تعالى اما الامكان واما الحدوث وكلاهما اما فى الذوات واما فى الصفات فيكون مجموع الطرق الدالة على وجود الصانع أربعة وهى امكان الذوات وامكان الصفات وحدوث الذوات وحدوث الصفات وهذه الاربعة معتبرة تارة فى العالم العلوى وهو عالم السموات والكواكب وتارة فى العالم السفلى والاغلب من الدلائل المذكورة فى الكتب الالهية التمسك بامكان الصفات وحدوثها تارة فى أحوال العالم العلوى وتارة فى أحوال العالم السفلى والمذكور فى هذا الموضع هو التمسك بامكان الاجرام العلوية فى مقاديرها وصفاتها * وتقريره من وجوه (الاول) أن أجرام الافلاك لاشك أنها مركبة من الاجزاء التى لا تتجزأ ومتى كان الامر كذلك كانت لا محالة محتاجة الى الخالق والمقدر * أما بيان المقام الاول فهو أن أجرام الافلاك لاشك أنها قابلة للقسمة

الوهمية وقد دللنا في الكتب العقلية على أن كل ما كان قابلا للقسمة الوهمية فانه يكون في نفسه مركبا من الاجزاء والابعاض فثبت بما ذكرنا أن جرام الافلاك مركبة من الاجزاء التي لا تتجزأ واذا ثبت هذا وجب افتقارها الى خالق ومدبر وذلك لانها لما تركبت فقد وقع بعض تلك الاجزاء في داخل ذلك الجرم وبعضها حصل على سطحها وتلك الاجزاء متساوية في الطبع والماهية وأجزاء أخر مختلفة الطبع والماهية وقعت داخل الجرم وعلى سطحه * واذا ثبت هذا فنقول حصول بعضها في الداخل وبعضها في الخارج أمر ممكن الحصول جائز الثبوت يجوز أن ينقلب الظاهر باطنا والباطن ظاهرا واذا كان الامر كذلك وجب افتقار هذه الاجزاء حال تركيبها الى مدبر وقاهر يخصص بعضها بالداخل وبعضها بالخارج فدل هذا على أن الافلاك مفتقرة في تركيبها وأشكالها وصفاتها الى مدبر قديم (الوجه الثاني) في الاستدلال بصفات الافلاك على وجود الاله القادر أن تقول حركات هذه الافلاك لها بداية ومتى كان الامر كذلك افتقرت هذه الافلاك في حركاتها الى محرك ومدبر أما المقام الاول فالدليل على صحته أن الحركة عبارة عن التغير من حال الى حال وهذه الماهية تقتضي المسبوقة بالحالة المنتقل عنها والازل ينافي المسبوقة بالغير فكان الجمع بين الحركة وبين الازل محالا فثبت أن لحركة الافلاك أولا واذا ثبت هذا وجب أن يقال هذه الاجرام الفلكية كانت معدومة في الازل وان كانت موجودة لكنها كانت واقفة وساكنة وما كانت متحركة وعلى التقديرين فلحركاتها أول وبداية * وأما المقام الثاني وهو أنه لما كان الامر كذلك وجب افتقارها الى مدبر قاهر فالدليل عليه أن ابتداء هذه الاجرام بالحركة في ذلك الوقت المعين دون ما قبله ودون ما بعده لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص وترجيح مرجح وذلك المرجح يمتنع أن يكون موجبا بالذات والا لحصلت تلك الحركة قبل ذلك الوقت لأجل أن موجب تلك الحركة كان حاصلا قبل ذلك الوقت ولما بطل هذا ثبت أن ذلك المرجح قادر مختار وهو المطلوب (الوجه الثالث) في الاستدلال بصفات الافلاك على وجود الاله المختار وهو أن أجزاء الفلك حاصلة فيه لا في الفلك الآخر وأجزاء الفلك الآخر حاصلة فيه لا في الفلك الاول فاختصاص كل واحد منها بقوتي الدفع والجذب أمر ممكن ولا بد له من مرجح ويعود التقرير الاول فيه فهذا هو الدليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية وفيها سؤالات (السؤال الاول) أن كلمة الذي كلمة وضعت للاشارة الى شئ مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة كما اذا قيل لك من زيد فتقول الذي أبوه منطلق فهذا التعريف انما يحسن لو كان كون أبيه منطلقا أمرا معلوما عند السامع فههنا لما قال ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام فهذا انما يحسن لو كان كونه سبحانه وتعالى خالقا للسموات والارض في ستة أيام أمرا معلوما عند السامع والعرب ما كانوا عالمين بذلك فكيف يحسن هذا التعريف * وجوابه أن يقال ان هذا الكلام مشهور عند اليهود والنصارى لانه مذكور في أول ما يزعمون أنه هو التوراة ولما كان ذلك مشهورا عندهم والعرب كانوا يخالطونهم فالظاهر أنهم سمعوه منهم فلهذا السبب حسن هذا التعريف (السؤال الثاني) ما الفائدة في بيان الايام التي خلقها الله فيها * والجواب

أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم فى أقل من لمح البصر والدليل عليه أن العالم مركب من الاجزاء التى لا تتجزأ والجزء الذى لا يتجزأ لا يمكن ايجاده الا دفعة واحدة لانا لو فرضنا أن ايجاده انما يحصل فى زمان فذلك الزمان منقسم لامحالة آنات متعاقبة فهل حصل شئ من ذلك الايجاد فى الآن الاول أو لم يحصل فان لم يحصل منه شئ فى الآن الأول فهو خارج عن مدة الايجاد وان حصل فى ذلك الآن ايجاد شئ وحصل فى الآن الثانى ايجاد شئ آخر فهما ان كانا جزأين من ذلك الجزء الذى لا يتجزأ فحينئذ يكون الجزء الذى لا يتجزأ متجزئا وهو محال وان كان شيأ آخر فحينئذ يكون ايجاد الجزء الذى لا يتجزأ لا يمكن الا فى آن واحد دفعة واحدة وكذا القول فى ايجاد جميع الاجزاء فثبت أنه تعالى قادر على ايجاد جميع العالم دفعة واحدة ولا شك أيضا أنه تعالى قادر على ايجاده وتكوينه على التدريج * وبيان ذلك قوله تعالى وكان عرشه على الماء ثم صار هذا الماء دخانا لقوله تعالى ثم استوى الى السماء وهى دخان ثم صار الدخان ماء لقوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها وقوله والارض بعد ذلك طحاها فهذه الازمنة الستة التى ذكرها الله تعالى بالأيام الستة * واذا ثبت هذا فنقول ههنا مذهبان (الاول) قول أصحابنا وهو أنه يحسن منه كل ما أراد ولا يعلل شئ من أفعاله بشئ من الحكمة والمصالح وعلى هذا القول يسقط قول من يقول لم خلق العالم فى ستة أيام وما خلقه فى لحظة واحدة لانا نقول كل شئ صنعه ولا علة لصنعه فلا يعلل شئ من أحكامه ولا شئ من أفعاله بعلة فسقط هذا السؤال (الثانى) قول المعتزلة وهو أنهم يقولون يجب أن تكون أفعاله تعالى مشتملة على المصلحة والحكمة فعند هذا قال القاضى لا يبعد أن يكون خلق الله تعالى السموات والارض فى هذه المدة المخصوصة أدخل فى الاعتبار فى حق بعض المكلفين * ثم قال القاضى فان قيل فمن المعتبر وما وجه الاعتبار أجاب وقال أما المعتبر فهو أنه لابد من مكلف أو غير مكلف من الحيوان خلقه الله تعالى قبل خلقه للسموات والأرضين أو معهما والا لكان خلقهما عبثا * فان قيل فهلا جاز أن يخلقهما لأجل حيوان يخلقه من بعد قلنا انه تعالى لا يخاف الفوت فلا يجوز أن يقدم خلق ما لا ينتفع به أحد لأجل حيوان سيحدث بعد ذلك وانما يصح منا ذلك فى مقدمات الامور لأنا نخشى الفوت ونخاف العجز والقصور * قال واذا ثبت هذا فقد صح ما روى فى الخبر أن خلق الملائكة كان سابقا على خلق السموات والارض * فان قيل أولئك الملائكة لابد لهم من مكان فقبل خلق السموات لا مكان فكيف يمكن وجودهم بلا مكان قلنا الذى يقدر على تسكين العرش والسموات والارض فى أمكنتها كيف يعجز عن تسكين أولئك الملائكة فى أحيازها بقدرته وحكمته وأما وجه الاعتبار فى ذلك فهو أنه لما حصل هنا معتبر لم يمتنع أن يكون اعتباره بما يشاهده حالا بعد حال أقوى والدليل عليه أن ما يحدث على هذا الوجه فانه يدل على أنه صادر من فاعل حكيم وأما المخلوق دفعة واحدة فانه لا يدل على ذلك (السؤال الثالث) فهل هذه الأيام كأيام الدنيا أو كما روى ابن عباس أنه قال انها ستة أيام من أيام الآخرة التى كل يوم منها كألف

سنة مما تعدون (والجواب) قال القاضي الظاهر في ذلك أنه تعريف لعباده مدة خلقه لهما ولا يجوز أن يكون ذلك تعريفا الا والمدة هذه الايام المعلومة ولقائل أن يقول انما وقع التعريف بالأيام المذكورة في التوراة والانجيل وكان المذكور هنالك أيام الآخرة لا أيام الدنيا لم يكن ذلك قادحا في صحة التعريف (السؤال الرابع) هذه الايام انما تتقدر بحسب طلوع الشمس وغروبها وهذا المعنى مفقود قبل خلقها فكيف يعقل هذا التعريف (والجواب) التعريف يحصل بما أنه لو وقع حدوث السموات والارض في مدة لو حصل هنالك أفلاك دائرة وشمس وقمر لكانت تلك المدة مساوية لستة أيام ولقائل أن يقول فهذا يقتضي حصول مدة قبل خلق العالم يحصل فيها حدوث العالم وذلك يوجب قدم المدة وجوابه أن تلك المدة غير موجودة بل هي مفروضة موهومة والدليل عليه أن تلك المدة المعينة حادثة مع حدوث الذوات وحدوثها لا يحتاج الى مدة أخرى والا لزم اثبات أزمنة لا نهاية لها وذلك محال فكل ما يقولونه في حدوث المدة فنحن نقوله في حدوث العالم

❊المسئلة الثانية❊ أما قوله تعالى ثم استوى على العرش ففيه مباحث (الاول) أن هذا يوهم كونه تعالى مستقرا على العرش وفيه وجوه (الاول) أن الاستواء على العرش معناه كونه معتمدا عليه مستقرا عليه بحيث لولا العرش لسقط ونزل كما أنا اذا قلنا ان فلانا مستو على سريره فانه يفهم منه هذا المعنى الا أن اثبات هذا المعنى من كونه محتاجا الى العرش وأنه لولا العرش لسقط ونزل محال لان المسلمين أطبقوا على أن الله تعالى هو الممسك للعرش والحافظ له ولا يقول أحد ان العرش هو الممسك لله تعالى والحافظ له (والثاني) أن قوله ثم استوى على العرش يدل على أنه قبل ذلك ما كان مستويا عليه وذلك يدل على أنه يتغير من حال الى حال وكل من كان متغيرا كان محدثا وذلك بالاتفاق باطل (الثالث) أنه لما حدث الاستواء في هذا الوقت فهذا يقتضي أنه تعالى كان قبل هذا الوقت مضطربا متحركا وكل ذلك من صفات المحدثات (الرابع) أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى انما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والارض لان كلمة ثم تقتضي التراخي وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل خلق العرش غنيا عن العرش فاذا خلق العرش امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته من الاستغناء الى الحاجة فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنيا عن العرش ومن كان كذلك امتنع أن يكون مستقرا على العرش فثبت بهذه الوجوه أن هذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها بالاتفاق واذا كان كذلك امتنع الاستدلال بها في اثبات المكان والجهة لله تعالى

❊المسئلة الثالثة❊ اتفق قوم على أن فوق السموات جسما عظيما وهو العرش * اذا ثبت هذا فنقول العرش المذكور في هذه الآية هل المراد منه ذلك العرش أو غيره فيه قولان بل ثلاثة * القول الاول وهو الذي اختاره أبو مسلم الاصفهاني أنه ليس المراد منه ذلك بل المراد من قوله ثم استوى على العرش أنه لما خلق السموات والارض سطحها ورفع سمكها فان كل بناء يسمى عرشا وبانيه يسمى عارشا قال تعالى ومن الشجر ومما يعرشون أي يبنون وقال في صفة القرية فهي خاوية على عروشها والمراد أن تلك القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام

سقفها

سقفها وقال وكان عرشه على الماء أى بناؤه وانما ذكر الله تعالى ذلك لانه أعجب فى القدرة فالبانى يبنى البناء متباعدا عن الماء على الارض الصلبة لئلا ينهدم والله تعالى بنى السموات والارض على الماء ليعرف العقلاء قدرته وكمال جلالته * والاستواء على العرش هو الاستعلاء عليه بالقهر والدليل عليه قوله تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه * قال أبو مسلم فثبت أن اللفظ يحتمل هذا الذى ذكرناه فنقول وجب حمل اللفظ عليه ولا يجوز حمله على العرش الذى فى السماء والدليل عليه هو أن الاستدلال على وجود الصانع تعالى يجب أن يحصل بشئ معلوم مشاهد والعرش الذى فى السماء ليس كذلك وأما أجرام السموات والارضين فهى مشاهدة محسوسة فكان الاستدلال باحوالها على وجود الصانع الحكيم جائزا صوابا حسنا ثم قال ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى خلق السموات والارض فى ستة أيام اشارة الى تخليق ذواتها فى ستة أزمان وقوله ثم استوى على العرش يكون اشارة الى وضعها فى أحيازها وتشكيلها بالاشكال الموافقة لمصالحها وعلى هذا الوجه تصير هذه الآية موافقة لقوله سبحانه وتعالى أأنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها فذكر أولا أنه بناها ثم ذكر ثانيا أنه رفع سمكها فسواها وكذلك ههنا ذكر بقوله خلق السموات والارض أنه خلق ذواتها ثم ذكر بقوله ثم استوى على العرش أنه قصد الى تعريشها ووصفها وتشكيلها بالاشكال الموافقة لها (والقول الثانى) وهو القول المشهور لجمهور المفسرين أن المراد من العرش المذكور فى هذه الآية الجسم العظيم الذى فى السماء وهؤلاء قالوا ان قوله ثم استوى على العرش لا يمكن أن يكون معناه أنه تعالى خلقه بعد خلق السموات والارض بدليل أنه تعالى قال فى آية أخرى وكان عرشه على الماء وذلك يدل على أن تكون العرش سابق على تخليق السموات والارضين بل يجب تفسير هذه الآية بوجوه أخر وهو أن يكون المراد ثم يدبر الامر وهو مستوعلى العرش (والقول الثالث) أن المراد من العرش الملك والماء ماتكونت منه الذوات يقال فلان بلى عرشه أى ملكه فقوله ثم استوى على العرش المراد أنه تعالى لما خلق السموات والارض واستدارت الافلاك والكواكب وجعل بسبب دورانها الفصول الاربعة والاحوال المختلفة من المعادن والنبات والحيوان ففى هذا الوقت قد حصل وجود هذه المخلوقات والكائنات والحاصل أن العرش عبارة عن الملك وملك الله تعالى عبارة عن وجود مخلوقاته ووجود مخلوقاته انما حصل بعد تخليق السموات والارض لاجرم صح ادخال حرف ثم الذى يفيد التراخى الاستواء على العرش وتخليق عباده والله تعالى أعلم بمراده

﴿المسئلة الرابعة﴾ أما قوله يدبر الأمر فمعناه أنه يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل مايفعله المصيب فى أفعاله الناظر فى ادبار الأمور وعواقبها فلا يدخل فى الوجود مالا ينبغى والمراد من الأمر الشأن يعنى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والارض * فان قيل ماموقع هذه الجملة قلنا قد دل بكونه خالقا للسموات والارض فى ستة أيام وبكونه مستويا على العرش على نهاية العظمة وغاية الجلالة ثم أتبعها بهذه الجملة ليدل على

أنه لا يحدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي أمر من الامور ولا حادث من الحوادث الا بتقديره وتدبيره وقضائه وحكمه فيصير ذلك دليلا على نهاية القدرة والحكمة والعلم والاحاطة والتدبير وأنه سبحانه مبدع جميع الممكنات واليه تنتهي الحاجات

﴿في بيان قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى﴾

وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ذكروا في نصب تنزيلا وجوها (الاول) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الارض والسموات فنصب تنزيلا بمضمر (والثاني) أن ينصب بانزلنا لان معنى ما أنزلناه الا تذكرة أنزلناه تذكرة (والثالث) أن ينصب على المدح والاختصاص (والرابع) أن ينصب بيخشى مفعولا به أي أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن واعراب بين وقرئ تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف

﴿المسئلة الثانية﴾ فائدة الانتقال من لفظ التكلم الى لفظ الغيبة أمور (أحدها) أن أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها الا مع الغيبة (وثانيها) أنه قال أولا أنزلنا ففخم بالاسناد الى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة الى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة عليهم السلام النازلين معه

﴿المسئلة الثالثة﴾ أنه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه الى أنه تنزيل ممن خلق الارض والسموات على علوها وانما قال ذلك لان تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وانما عظم القرآن ترغيبا في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه وذلك معتاد في الشاهد فان الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل اليه أقرب الى الامتثال

(المسئلة الرابعة) يقال سماء عليا وسموات على وفائدة وصف السموات بالعلى الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها *وأما قوله تعالى الرحمن على العرش استوى ففيه مسائل

(المسئلة الاولى) قرئ الرحمن مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن لانه اما أن يكون رفعا على المدح والتقدير هو الرحمن واما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه الى من خلق *فان قيل الجملة التي هي على العرش استوى ما محلها اذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح (قلنا) اذا جررت فهو خبر مبتدا محذوف لا غير وان رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدا

(المسئلة الثانية) المشبهة تعلقت بهذه الآية في أن معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ولما خلق الخلق لم يحتج الى مكان بل كان غنيا عنه فهو بالصفة التي لم يزل عليها الا أن يزعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في اليسار فيكون في نفسه مؤلفا مركبا وكل ما كان كذلك احتاج الى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) أن الجالس على العرش اما أن يكون

متمكنا من الانتقال والحركة أولا يمكنه ذلك فان كان الاول فقد صار محلا للحركة والسكون فيكون محدثا لامحالة وان كان الثانى كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن اذا شاء الحركة فى رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم (ورابعها) هو أن معبودهم اما أن يحصل فى كل مكان أو فى مكان دون مكان فان حصل فى كل مكان لزمهم أن يحصل فى مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل وان حصل فى مكان دون مكان افتقر الى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجا وهو على الله تعالى محال (وخامسها) أن قوله ليس كمثله شئ يتناول نفى المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شئ الا فى الجلوس والا فى المقدار والا فى اللون وصحة الاستثناء تقتضى دخول جميع هذه الامور تحته فلو كان جالسا لحصل من تماثله فى الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم لزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لان الخالق هو الذى يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسابعها) أنه لو جاز أن يكون المستقر فى المكان الها فكيف يعلم أن الشمس والقمر ليسا باله الا أن طريقنا الى نفى الهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون لاسيما حركة الكواكب السيارة المتحركة من حركة الشمس وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن الها فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح فى الهية الشمس والقمر (وثامنها) أن كرة العالم فى الجهة التى هى فوق بالنسبة الينا هى تحت بالنسبة الى ساكنى ذلك الجانب الآخر من الارض وبالعكس فلو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وان كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين وباتفاق العقلاء لايجوز أن يقال المعبود تحت جميع الاشياء (وتاسعها) أجمعت الامة على أن قوله تعالى قل هو الله أحد من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذى منه يلى ما على يمينه غير الجانب الذى منه يلى ما على يساره فيكون مركبا منقسما فلا يكون واحدا فى الحقيقة فيبطل قوله قل هو الله أحد (وعاشرها) أن الخليل عليه السلام قال لا أحب الآفلين ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبدا غائبا أبدا فكان يندرج تحت قوله لا أحب الآفلين * فثبت بهذه الدلائل أن الاستقرار على الله تعالى محال فعند هذا سار للناس فيه قولان (الاول) أنا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية * وروى الشيخ الغزالى عن بعض أصحاب الامام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه أنه أول ثلاثة من الاخبار قوله عليه السلام الحجر الاسود يمين الله فى الارض وقوله عليه السلام قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وقوله عليه السلام انى لأجد نفس الرحمن من جهة اليمن (واعلم) أن هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) أنه ان قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الاستواء الجلوس وهذا هو التأويل وان لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقى شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى اللهم الا أن يقول أنا قاطع بأنه ليس مراد الله

المكلف وعقله وحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح فى حصول المصالح (واعلم) أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الاسئلة فانه بحر لا ساحل له * من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثنى عشر والسموات بالسبع وكذا الارض وكذا القول بعدد الصلوات ومقادير النصب فى الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالاقرار بأن كل ماقاله الله تعالى حق هو الدين وترك البحث عن هذه الاشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى فى قوله وماجعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا هو الجواب أيضا فى أنه لم يخلقها فى لحظة وهو قادر على ذلك * وعن سعيد بن جبير أنه انما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر أن يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت * (السؤال الثالث) * مامعنى قوله ثم استوى على العرش ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لان الاستيلاء والقدرة فى أوصاف الله تعالى لم تزل ولا يصح دخول ثم فيه (الجواب) الاستقرار غير جائز لانه يقتضى التغير الذى هو دليل الحدوث ويقتضى التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول عليه كقوله تعالى ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين فان المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون * فان قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى وكان عرشه على الماء قلنا كلمة ثم مادخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات * (السؤال الرابع) * مامعنى قوله فاسأل به خبيرا (الجواب) ذكروا فيه وجوها (أحدها) قال الكلبى معناه فاسأل خبيرا به والضمير يعود الى ماذكرناه من خلق السماء والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله تعالى عز وجل لانه لا دليل فى العقل على كيفية خلق الله تعالى السموات والارض فلا يعلمها أحد الا الله تعالى * وعن ابن عباس ان ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وانما قدم لرؤس الآى وحسن النظم (ثانيها) قال الزجاج قوله به معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيرا وهو قول الاخفش ونظيره قوله سأل سائل بعذاب واقع وقال علقمة بن عبدة

فان تسألونى بالنساء فاننى * بصير بأدواء النساء طبيب

(ثالثها) قال ابن جرير الباء فى قوله به صلة والمعنى فسله خبيرا وخبيرا نصب على الحال (رابعها) أن قوله به يجرى مجرى القسم كقوله تعالى واتقوا الله الذى تساءلون به أما قوله واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى ويحتمل أنهم وان عرفوه لكنهم جحدوه ويحتمل أنهم وان عرفوا به لكنهم جهلوا أن هذا الاسم من أسمائه تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الاخير قالوا الرحمن اسم من أسماء الله تعالى مذكور فى الكتب المتقدمة والعرب ماعرفوه قال مقاتل ان أبا جهل

قال

قال ان الذي يقول محمد شعر فقال عليه السلام الشعر غير هذا ان هذا الا كلام الرحمن فقال أبو جهل بخ بخ لعمري والله انه لكلام الرحمن الذي باليمامة هو يعلمك فقال عليه السلام الرحمن الذي هو اله السماء ومن عنده يأتيني الوحي فقال يا آل غالب من يعذرني من محمد يزعم أن الله واحد وهو يقول الله يعلمني والرحمن ألستم تعلمون أنهما الهان ثم قال ربكم الله الذي خلق هذه الاشياء أما الرحمن فهو مسيلمة (قال القاضي) والاقرب أن المراد انكارهم لله لا للاسم لان هذه اللفظة عربية وهم كانوا يعلمون أنها تفيد المبالغة في الانعام ثم ان قلنا بأنهم كانوا منكرين لله كان قولهم وما الرحمن سؤال طالب عن الحقيقة وهو يجري مجرى قول فرعون وما رب العالمين وان قلنا بأنهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم وما الرحمن سؤالا عن الاسم أما قوله أنسجد لما تأمرنا فالمعنى للذي تأمرناه أي تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك الخير أو لامرك لنا وقرئ يأمرنا بالياء كان بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو وزادهم أمره نفورا ومن حقه أن يكون باعثا على الفعل والقبول * قال الضحاك فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعثمان بن مظعون وعمرو بن عتيبة ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين فهذا هو المراد من قوله وزادهم نفورا أي فزادهم سجودهم نفورا

* في بيان قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض *

(اعلم) أن الله تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر ثم انه تعالى ينزله الى بعض المواضع فيكون منتشرا على سطح الارض ثم يقسمه فيسلكه ينابيع في الارض ومع ذلك فالمظنون أن له حدا محدودا من العمق يقف عنده ويدل على وجود المياه في جوف الارض الينابيع التي تخرج من قرار بعض المواضع من عمق وكما يوجد الماء في جوف الارض يوجد أيضا بكثرة في الجو فتتكون منه السحب والضباب ومن الماء ما يكون جامدا فوق الجبال الشامخة وعلى جوانبها وتعتبر تلك المياه كمخزن مائي يكون على الدوام ممدا للينابيع والعيون والنهيرات والانهار لقوله تعالى فسلكه ينابيع في الارض فجعل تعالى في معظم المحال بركا كبيرة وصغيرة متفرقة ومنعزلة عن بعضها تأتي اليها مياه الارض فاذا افاضت عليها تلك المياه أرسلتها في مجار ومنها الى مجرى واحد تذهب بها الى حيث شاء الله تعالى لقوله تعالى وجعل خلالها أنهارا (اعلم) أن جزأ من المياه التي سقطت على سطح الارض وجزأ من المياه الجامدة يرتشحان في الارض فينفذان في خلال الطبقات التي تسمح للماء بالنفوذ في خلالها حتى تعوق سيرها طبقة لا ينفذ منها الماء وهذه الطبقة قد تكون من الطين فتترا كم حينئذ وتتكون منها طبقة مائية تحت الارض مختلفة الاتساع وجعل تعالى محيط هذه الطبقة جملة طبقات متداخلة في بعضها لقوله تعالى وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء * التفجر التفتح بالسعة والكثرة يقال انفجرت قرحة فلان أي انشقت بالمدة ومنه الفجر والفجور وقرأ مالك بن دينار ينفجر يعني وان من الحجارة ما ينشق فيخرج منه

الماء الذي يجري حتى تكون منه الأنهار * قال الحكماء ان الانهار انما تتولد من المياه والابخرة التي تجتمع في باطن الارض فان كان ظاهر الارض المقابل للمياه رخوا انشقت تلك المياه وانفصلت وان كان ظاهر الارض صلبا حجريا اجتمعت تلك المياه ولا يزال يتصل توالبها بسوابقها حتى تكثر كثرة عظيمة فيعرض حينئذ من كثرتها وتواتر مدها أن تنشق الارض وتسيل تلك المياه أودية وأنهارا لقوله تعالى وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء أى وان من الحجارة لما يتصدع فيخرج منه الماء فيكون عينا كقوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الاض * وفيه مسائل

﴿المسئلة الاولى﴾ قوله وأنزلنا من السماء ماء بقدر اختلفوا فى السماء فقال الأكثرون من المفسرين انه تعالى ينزل الماء من السماء فى الحقيقة وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله وفى السماء رزقكم وما توعدون وقال بعضهم المراد السحاب وسماه سماء لعلوه وسببه الابخرة المتصعدة من الكائنات الارضية وتكون معلقة بالجو وهو قسمان (أحدهما) سابح فى الجو كالضباب والسحاب (وثانيهما) ماينزل على الارض كالندى والمطر والثلج والبرد وكلها ناشئة من المياه التى تتصعد على الدوام من الاجسام الرطبة المماسة للهواء فاذا ازداد مقداره عما تقتضيه سعته صار ذلك البخار محسوسا بالبصر سابحا فى الجو يكون ذلك المسمى بالضباب والسحاب فى الحقيقة هو تلك الذرات ثم ان تلك الذرات تتألف وتتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة اليه * وأما قوله فاسكناه فى الارض فقيل معناه جعلناه ثابتا فى الارض أى كلما صعد منه شئ جذب اليها وتوضيح ذلك أنه تعالى جعل الكائنات يصعد منها مواد بخارية وهذا التبخر يختلف باختلاف المحل والافراد وحالة تلك الافراد والاجزاء المركبة لها متى كانت تلك الاجزاء غير تامة التجانس ومن ذلك التبخر يتكون الجو البخاري المحسوس الذي يحيط بتلك الكائنات فى جميع أزمنة وجودها ويمكن أن يعتبر التبخر والتصعد فى هذه الحالة حادثا واحدا يزيد ويسرع بزيادة الحرارة وسعة الاسطحة ويتنوع ويتحدد فتنتشر بها ثانيا الكائنات التى صعدتها أولا لكن بهيئة أخرى وشكل جديد * ومن المياه الساكنة فى الارض البحر المسجور لقوله تعالى واذا البحار سجرت وأصل الكلمة من سجرت التنور اذا أوقدتها وجعل تعالى من خواصه المؤثرات الارضية ومنه طفحت مياه البحر على الارض مرتين مرة قبل آدم عليه السلام بدليل قوله تعالى وجعلنا لكم فيها سبلا وقوله لتسلكوا منها سبلا فجاجا وقوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا وذلك أن المياه هدمت وبددت الاشياء التى كانت بين الجبال ودحرجت أجزاءها ووزعتها فى جميع السهول بل رفعت بعضها على الانحدارات وفتحت أودية عظيمة وحفرتها فى جميع المحال التى جرت فيها تياراتها القوية فيؤخذ من هذه العظيمة أن جميع البحار لما فارقت مجاريها وحفظت سرعة الدوران التى كانت عليها قبل المصادمة دارت بقوة حول الكرة ومعلوم أن المياه اذا قابلتها موانع قوية كالجبال الشاهقة زاغت عن اتجاهها والمرة الثانية طوفان نوح عليه السلام ودليله قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق

عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل * وفي الآية مسائل

* (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف * حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام دخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله ويصنع الفلك أي فكان يصنعها الى أن جاء وقت الموعد

* (المسئلة الثانية) * الامر في قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا يحتمل وجهين (أحدهما) أنه تعالى بين أنه لا يحدث شئ الا بأمر الله تعالى كما قال انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون فكان المراد هذا (والثاني) أن يكون المراد من الأمر ههنا هو العذاب الموعد به

* (المسئلة الثالثة) * في التنور أقوال (الاول) قيل انه سبحانه وتعالى عين موضعا لنوح عليه السلام في الهند ليضع تلك الاشياء في السفينة اذا فار وغلى (الثاني) أنه انفجر من وجه الارض الماء والعرب تسمي وجه الارض تنورا (الثالث) فار التنور يحتمل أن يكون معناه فار الماء من التنور ومعنى فار نبع بقوة وشدة تشبيها له بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة أن نفس التنور لا يفور فالمراد فار الماء من التنور أي تنور الارض الذي عينه الله تعالى له * وتوضيح ذلك أن الارض في ابتداء أمرها كانت سائلة ولم يزل باطنها مشتملا على سوائل وأبخرة ووجه الارض صلب لا منفذ فيه ولا مسام له فاذا أراد سبحانه وتعالى أن تنفذ تلك الابخرة وشئ من ذلك السائل اهتزت بقاع الارض واضطربت كما يضطرب المحموم عند اشتداد الحمى حتى تخرج تلك المواد منها * فلما أراد الله تعالى ايقاع الطوفان في أيام نوح عليه السلام أمر الارض أن تنشق فانشقت وجرت منها تلك السائلات والابخرة مشتعلة ملتهبة فجعل تعالى طفحات نارية محجوبة بأبخرة مائية وتكاثفت ثم تحولت مطرا وتساقطت فاغرقت السهول والجبال ووصلت الى ارتفاع عظيم فشبهت تلك المواد حال خروجها من باطن الارض مشتعلة ملتهبة بالتنور المشتعل الملتهب لالتهابهما واشتعالهما فانبأنا تعالى عنها بقوله وفار التنور كقوله تعالى وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وفيه من المبالغة ما ليس في قول القائل وفجرنا عيون الارض وهذا بيان التمييز في كثير من المواضع اذا قلت ضاق زيد ذرعا أثبت ما لا يثبته قولك ضاق ذرع زيد (وفيه مسائل)

* (المسئلة الاولى) * قال وفجرنا الارض عيونا ولم يقل فتحنا السماء أبوابا لان السماء أعظم من الارض وهي للمبالغة ولهذا قال أبواب السماء ولم يقل أنابيب ولا منافذ ولا مجاري أو غيرها وأما قوله تعالى وفجرنا الأرض عيونا فهو أبلغ من قوله وفجرنا عيون الارض لانه يكون حقيقة لا مبالغة فيه ويكفي في صحة ذلك القول أن يجعل في الارض عيونا ثلاثة ولا يصلح مع هذا في السماء الاقول القائل فأنزلنا من السماء ماء أو مياها ومثل هذا الذي ذكرناه في المعنى لا في الاعجاز والحكمة قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض حيث لا مبالغة فيه وكلامه لا يماثل كلام الله ولا يقرب منه غير أني ذكرته مثلا ولله المثل الاعلى

* (المسئلة الثانية) * هل العيون في عيون الماء حقيقة أو مجاز فنقول المشهور أن لفظ العين مشترك والظاهر أنها حقيقة في العين التي هي آلة الابصار ومجاز في غيرها أما في عيون الماء

فلانها تشبه العين الباصرة التي يخرج منها الدمع أولأن الماء الذي في العين كالنور الذي في العين أولانها غير أنها مجاز مشهور صار غالبا حتى لا يفتقر الى القرينة عند الاستعمال الا للتمييز بين العينين فكما لا يحمل اللفظ على العين الباصرة الا بقرينة كذلك لا يحمل على الفوارة الا بقرينة مثل شربت من العين واغتسلت منها وغير ذلك من الامور التي توجد في الينبوع ويقال عانه يعينه اذا أصابه بالعين وعينه تعيينا حقيقة جعله بحيث تقع عليه العين وعاينه معاينة وعيانا وعين أي صار بحيث تقع عليه العين

(المسئلة الثالثة) قوله تعالى فالتقى الماء قرئ فالتقى الماآن أي النوعان منه ماء السماء وماء الارض فتثنى اسماء الاجناس على تأويل صنف وتجمع أيضا يقال عندي تمران وتمور وأتمار على تاويل نوعين وأنواع منه والصحيح المشهور فالتقى الماء وله معنى لطيف وذلك أنه تعالى لما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة فلما قال وفجرنا الارض عيونا كان من الحسن البديع أن يقول ما يفيد أن الماء نبع منها بقوة فقال فالتقى الماء أي من العين فار الماء بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء ولو جرى جريا ضعيفا لما كان هو يلتقي مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه ويتصل به ولعل المراد من قوله وفار التنور مثل هذا* وقوله تعالى على أمر قد قدر فيه وجوه (الاول) على حال قدرها الله تعالى كما شاء (الثاني) على حال قدر أحد الماءين بقدر الآخر (الثالث) على سائر المقادير وذلك لان الناس اختلفوا فمنهم من قال ماء السماء كان أكثر ومنهم من قال كانا متساويين فقال على أمر قد قدر أي مقدار كان والاول أشارة الى عظمة أمر الطوفان فان تنكير الامر يفيد ذلك كقول القائل جرى على فلان شئ لا يمكن أن يقال اشارة الى عظمته وفيه احتمال آخر وهو أن يقال التقى الماء أي اجتمع على أمر وهو هلاكهم كان مقدورا مقدرا* ولنذكر ههنا طرفا مما يتعلق بهذه مما ذكره علماء الهيئة الباحثون في الارض (وفيه مباحث)

(المبحث الاول) اعلم أن الكيفية التي تظهر بها المرئيات في البحر على التعاقب من ابتداء ظهورها على الأفق حتى ترى بتمامها تلزمنا بالاعتراف بأن كتلة المياه محدبة وسياحة الملاحين والسياحات العديدة التي حصلت منذ قرون برا وبحرا تثبت ما قلناه وتدل على أن كرة الارض منعزلة في الفراغ من المشرق الى المغرب والجليد المتراكم نحو القطبين يمنع السياحين من السياحة حول الارض من الشمال الى الجنوب لكن التحدب الذي يشاهد في هذا الاتجاه في الجزء الذي يطوفه السياح وظهور نجوم متعاقبة أثناء الذهاب من قطب الى آخر والظل المحدود الذي تلقيه الارض على قرص القمر أثناء خسوفه كل هذه أدلة على أن الارض منعزلة في الفراغ أيضا من الشمال الى الجنوب فاستبان مما قلناه أن الارض كرة منعزلة في الفراغ من جميع الجهات وشكل الارض كروي والجبال التي على سطحها لا تقدح في كرويتها فان ارتفاعها قليل بالنسبة لشعاع الارض لان نسبة أعلى جبل من جبالها أقل من نسبة الحويصلات الصغيرة التي نشاهد على سطح البرتقانة وقلة ارتفاع الجبال بالنسبة الى الارض محققة لا شك فيها وانما نتصور أنها كثيرة الارتفاع لاننا نراها من قرب ولا نقابلها

باتساع الارض فينبغي مقابلتها حينئذ بجميع المرئيات المحيطة بنا ولذا نرى الجبال التى ارتفاعها أربعة آلاف ذراع شامخة اذا كان النظر من قرب فاذا انظرنا الى أفق متسع وكان مقداره ثلاثين ميلا الى ست وثلاثين وجدنا الجبال المذكورة قليلة الارتفاع واذا أمكننا رؤية نصف الكرة بتمامها كان ارتفاعها كلاشئ

﴿المبحث الثانى فى الثقل أى الجذب الارضى﴾ اعلم أنه ينتج من انعزال الارض فى الفراغ قاعدة وهى أن جميع الاجسام يميل الى الانجذاب نحو مركز الارض اذ لا شئ ينفصل من كرة أرضنا و يقع فى الفراغ فالاجسام التى تقذف بعيدا عن سطحها تعود اليه بسرعة دائما وهذا الميل هو المعبر عنه بالثقل أو بالجذب الارضى فخاصية الارض أن تجذب نحو مركزها جميع الاجزاء المادّية التى هى مركبة منها وجميع الاجسام التى على سطحها أو التى تكون بعيدة عنها وقد ثبت بالتجاريب أن قوّة الجذب تكون على حسب عكس مربع المسافات وحينئذ تكون كرة الارض عبارة عن جملة جزئيات منضمة الى بعضها بالقوّة الجاذبة الى المركز والظاهر أن شكلها الكروى يدل على أن هذه الجزئيات كانت تنزلق على بعضها فاجتمع أغلبها نحو المركز

﴿المبحث الثالث فى تفرطح الكرة نحو قطبيها﴾ اعلم أن الكرة مفرطحة أى منبعجة قليلا جهة قطبيها ومنتفخة جهة خط الاستواء وقد ثبت هذا التفرطح بحركات البندول الاهتزازية فان عددها فى زمن مقدّر معلوم يكون أكثر جهة القطبين منه فى خط الاستواء ونصف قطر الارض فى خط الاستواء أربعة آلاف ميل وثلاثمائة وخمسة أميال تقريبا أيضا فيكون الفرق بين قطرها الاستوائى وقطرها القطبى من أربعين الى اثنين وأربعين كيلومتر ويتضح من ذلك أن كرة الارض لم تكن جزئياتها المادّية منضمة كما هى الآن بل كانت متحركة تنزلق على بعضها فأثرت فيها القوّة المركزية الطاردة الناشئة عن حركتها اليومية فأحدثت انتفاخها فى كتلتها نحو خط الاستواء وانبعاجها نحو القطبين ثم تصلبت هذه الجزئيات بعد ذلك وحينئذ يعلم أن الارض كانت سائلة فى ابتداء خلقتها

﴿المبحث الرابع فى اختلاف كثافتها من سطحها الى مركزها﴾ اعلم أن الثقل يأخذ فى التناقص تدريجا من القطبين الى خط الاستواء لان شعاعى الارض غير متساويين وأن الاجسام تكون أقل ثقلا كلما كانت أكثر بعدا من المركز وأن القوّة المركزية الطاردة تكون مفقودة نحو القطبين اللذين على محور الدوران وتبلغ أعلى درجة نحو خط الاستواء ويتضح تناقص الثقل بمشاهدة تذبذبات البندول فانها سريعة نحو القطبين بطيئة نحو خط الاستواء * وقيل فى سبب هذا الاختلاف ان كثافة الارض تأخذ فى الازدياد من سطحها الى مركزها وحينئذ فكرة الارض مكوّنة من طبقات ذات مركز واحد مركبة من موادّ مختلفة تأخذ كثافتها فى التزايد من الدائرة الى المركز وهذا لا ينشأ أيضا الا عن حالة سيلان أصلى صارت بسببه الجزئيات المادّية موضوعة بحسب كثافتها النسبية

﴿المبحث الخامس فى الحرارة المركزية أى المستبطنة للارض﴾ نظرية الحرارة المركزية

احدى القواعد الاصلية للعلم بالارض وقد أجمع علماء الهيئة على أن باطن الكرة الارضية ملتهب ومكوّن من موادّ ذائبة

﴿في بيان الاستدلال على حرارتها﴾ ويستدل على وجود الحرارة المركزية بجملة ظواهر (منها) أنه متى تعمق الانسان في باطن الارض أدرك ارتفاع درجة الحرارة مع الوضوح ويكون هذا الارتفاع على حسب التعمق (ومنها) درجة حرارة الآبار الارتوازية أى الصحراوية فانها تثبت ازدياد درجة الحرارة في باطن الارض متى كانت الآبار عميقة (ومنها) المياه المعدنية التى تخرج من باطن الارض وتصل حرارتها أحيانا الى مائة درجة كما في مياه جزيرة ازلانده فانها تثبت ازدياد درجة الحرارة كذلك (ومنها) البراكين فان الغازات الحارة والاندفاعات البركانية الذائبة الواصلة الى درجة الاحمرار التى تخرج من باطنها تثبت أن اغوار الارض ذات حرارة مرتفعة جدّا (ومنها) تصاعد الغازات والابخرة المارقة من الشقوق التى تتكوّن من زلزلة الارض فانها تثبت وجود حرارة مركزية في باطن الارض أيضا (واعلم) أن المشاهدات والارصاد تثبت أن تغير درجة الحرارة الناشئ من الفصول لا يدرك الا في غور قليل من باطن الارض وتثبت أيضا أن درجة حرارة الارض تبقى واحدة لا تتغير في غور قليل يختلف باختلاف المحال ويسمى بطبقة الاعتدال وتكون هذه الدرجة مساوية للحرارة المتوسطة لذلك المحل ثم نشاهد ظاهرة أخرى تحت هذه الطبقة وهى أن درجة الحرارة تأخذ في الازدياد بالتعمق وينبغى أن نذكر هنا القانون الذى به يحصل ازدياد درجة الحرارة بعد كل غور من أغوار الارض * قال علماء هيئة الارض حرارة الارض تزداد درجة واحدة بعد كل أربع وأربعين ذراعا من غور وهذا القول نتيجة عدّة ملاحظات وذلك أن الاحوال الموضعية خصوصا قابلية توصيل الطبقات الارضية للحرارة توجب اختلافا في هذه الازديادات بحسب الاماكن * ولنذكر الملاحظات المختلفة التى اقتضت اختيار هذا العدد المتوسط فنقول قد شاهد بعض المعلمين ذوبان جليد جبال الالب نحو قاعدتها في جميع الفصول فنسب هذا الذوبان الى الحرارة الخاصة بالكرة الارضية ثم أجرى تجاريب في أحوال الارض للبحث عن قانون ازدياد درجة الحرارة في باطن الكرة فاستنتج منها أن الحرارة الارضية تزداد درجة واحدة بعد كل أربعة وأربعين ذراعا من غور * ولما أعاد بعضهم التجاريب التى أجريت قبله قال ان ارتفاع حرارة باطن الارض يختلف باختلاف المحال لانه شاهد أنها تزداد درجة واحدة بعد كل أربعة وثلاثين ذراعا وثلثى ذراع من غور في بعض المحال وفي بعضها بعد خمسة وعشرين ذراعا وثلث ذراع وفي بعض آخر بعد عشرين ذراعا من غور فحكم بأن الازدياد المتوسط درجة واحدة بعد كل ثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع من الغور * وقد استنتج المعلم المذكور من ذلك نتائج فقال قد استفيد مما ذكرناه فوائد (أوّلها) أن التجاريب التى أجريتها تثبت وجود حرارة باطنية خاصة بالكرة الارضية أى انها ليست ناشئة من تأثير الأشعة الشمسية وانها تزداد بالتعمق (ثانيها) أن ازدياد تلك الحرارة ليس على قانون واحد في جميع البلاد فقد يكون في بلد ضعف ما يكون في بلد آخر (ثالثها) أن

هذا

هذا الاختلاف ليس على حسب العروض والاطوال (ورابعها) أن هذا الازدياد سريع في محل بطيء في آخر فقد يصل الى درجة واحدة بعد عشرين ذراعا وقد يصل اليها بعد ستة عشر من التعمق والحد المتوسط لازدياد درجة واحدة لا يمكن أن يكون أقل من ثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع * هذا وقد نتج من الملاحظات التي أجريت في معدن الفحم الحجري الذي في كوبرنوا أن حرارة الارض تزداد درجة واحدة بعد كل ستة وثلاثين ذراعا من الغور وهو قريب من العدد السابق * ومن التجاريب التي أجريت في معادن ايرزجبيرغ من بلاد السكس أن ازدياد الحرارة يكون درجة واحدة بعد كل ستة وخمسين ذراعا من الغور * والاختلافات التي ذكرناها تفيد أن ملاحظة درجة الحرارة في باطن المعادن ليست واسطة متقنة للوصول الى تعيين ازدياد هذه الدرجة في حد معلوم * لكن الآبار الصحراوية تتخذ منها واسطة متقنة للتعيين وذلك أنه متى علم عمق بئر صحراوي فان درجة حرارة الماء المنبجس منها على سطح الارض بواسطة الانبوبة الموصلة تعين درجة حرارة الارض المنبجس منها هذا الماء بلا شك لان الماء لسرعة انبجاسه لا يحدث فيه برودة مدركة * مثال ذلك الماء المنبجس من بئر جرونيل الذي عمقه سبعمائة ذراع وثلاثون ذراعا وثلثا ذراع فان درجة حرارته سبع وعشرون درجة وهذا البئر بباريس وحيث ان درجة الحرارة المتوسطة لباريز عشرة يعلم أن الماء قد اكتسب من أغوار الارض حرارة مقدارها سبعة عشر وهذا العدد يقابل درجة حرارة واحدة لكل أربعة وأربعين ذراعا من التعمق ويستنتج من هذه الملاحظات أن حرارة الارض تزداد درجة واحدة لكل أربعة وأربعين ذراعا من العمق تقريبا * ومن المعلوم أن الغور الذي أجريت هذه الملاحظات عليه ليس عظيما لان الآبار الصحراوية لم يتجاوز غورها الى الآن ثمانمائة ذراع والمعادن العميقة لم يتجاوز عمقها الا الى ألفين وستمائة وستة وستين ذراعا وثلثي ذراع فملاحظات حرارة الارض اذا أجريت في أعظم الاغوار التي صنعت الى الآن لا يحصل منها الا نحو ستين درجة لكن هنالك ظاهرة علمية توصلنا الى تحقيق درجات حرارة مرتفعة وذلك أن بعض المياه المعدنية ينبجس على سطح الارض بدرجة حرارة قد تصل الى تسعين كما في عيون موسى وحمام برصة وقد تصل الى مائة كحرارة المياه المعدنية التي تخرج بمقدار عظيم من باطن الارض بجزيرة الازلانده * ومن الواضح البين أن هذه الحرارة لم تكتسبها هذه المياه الا من أغوار الارض التي نبعت منها * وهنالك ظاهرة أخرى أهم من المتقدمة تثبت أن في باطن الارض حرارة ليست درجتها أقل من درجة ألف وخمسمائة مئينية فقد أجريت تجاريب وقت طفحات بركان الوازوف واستبان منها أن هذه الطفحات التي سالت من فوهته وانتشرت على جوانبه ذات حرارة مرتفعة الى الغاية بحيث لو ألقي فيها حال خروجها من البركان زجاج أو أجسام أقل قابلية للذوبان منه كالصخر ذاب بمجرد ملامسته للطفحة البركانية وقد وجد في الحفر التي صنعت لكشف المدينة المسماة بومباي قضبان من حديد ونقود من الفضة والذهب انماعت بملامستها الرماد البركاني فحيث ان الحديد لا يذوب الا في نحو ألف وخمسمائة درجة مئينية ينتج من ذلك أن الاجزاء الباطنة من كرة أرضنا أقل ما تصل

اليه حرارتها ألف وخمسمائة درجة * واستبان مما قلناه أن حرارة الارض لا تزال تأخذ في الازدياد بازدياد التعمق فعلى هذا القانون اذا استمر ازدياد الحرارة وامتد الى مركز الكرة بانتظام تكون حرارة النواة المركزية مائة ألف وخمسا وتسعين ألف درجة ويكون مقدار الحرارة الارضية في غور أقل $\frac{1}{٦٠}$ من نصف قطر الكرة بالميزان المئيني سبعة آلاف وسبعمائة درجة وهي تعادل مائة درجة من بير وميتر وهذا المقدار من الحرارة يكفي لاذابة جميع أصول الطفحات البركانية وجزء عظيم من الصخور المعروفة وتكون درجة الحرارة الكافية لغليان الماء في غور نحو أربعة آلاف ذراع لكن الحرارة لا تأخذ في التزايد بنسبة واحدة دائما فالظاهر أن درجة الحرارة من غور مائتين وستة وستين ذراعا وثلثي ذراع الى المركز يكون مقدارها من ثلاثة آلاف الى أربعة آلاف درجة وهي كافية لاذابة جميع الجواهر * وعلى مقتضى ما ذكرناه لو أمكن حفر آبار الى الغور المذكور ووجد ماء في هذا الغور لامكن أن يستخرج من باطن الارض أنهار من ماء مغلي يتحصل به على القوة الميكانيكية لبخار الماء الذي هو أعظم المحركات وأقوى أساسات الفنون والصنائع * ويستفاد مما ذكرناه أن الارض كانت قديما سائلة ولم يزل باطنها سائلا مضطربا الى الآن وأن سطحها هو الذي تصلب فقط لما فقد حرارته الاصلية في الفراغ في غور مقداره من ستة وعشرين ذراعا وثلثي ذراع الى أربعين * وهذه القشرة الصلبة قليلة جدا بالنسبة لنصف قطر الارض ويكون ثخنها على كرة صناعية شعاعها ذراع وثلث بالمتر متر واحد من ثلاث الى ستة ميليمترات ولا تصل الى ثخن ورقة في الكرات المعتادة اذا علمت ذلك ظهر لك سبب الظاهرتين المهولتين وهما زلزلة الارض والبراكين

(في ينبوع الحرارة المركزية)

قال علماء هذا الفن ان الارض كانت في ابتداء أمرها ملتهبة في الفراغ فبرد سطحها فتغطت بطبقة صلبة أولية كما يتغطى الرصاص الذائب على النار بقشرة معدنية رقيقة أولا ثم يأخذ في التثخن شيأ فشيأ مع أن باطنه ذائب فكذلك طبقة الكرة الارضية ازداد ثخنها من الباطن بالتبريد * وكل من السباكين والحدادين وصناع الكلل وصناع الزجاج يعرف أن الكتل الكبيرة يستدعي بردها زمنا طويلا ويتصور الزمن الذي مضى قبل أن تتجمد القشرة الاولى من الكرة الارضية ولا تتعجبوا من أن تبريد الارض لم يتم الى الآن وأنه مستمر بلا انقطاع وأن الجزء الباطني من الارض ملتهب وأنه لم يتجمد منها الا طبقة قليلة الثخن بالنسبة لما هو ملتهب منها الآن * وبما قررناه يعلم علة كون باطن الارض حارا وكون الحرارة تزداد كلما ازداد القرب من مركز الارض الذي ما زال ملتهبا الى الآن وأما كون الحرارة واحدة في الاعماق عينها ولا ينقص نقصا نامحسوسا فسببه أن التبريد الذي يحصل في عشر سنوات أو في مائة يتوزع على كتلة الارض العظيمة فلا يكون محسوسا في كل مكان * وبما قررناه يعلم السبب في الارتفاعات الارضية أي تكوّن الجبال الآتي على الاثر

(في بيان قوله تعالى وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم)

(قوله أن تميد) أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم لبساطتها والميد الزلزال فخلق الله تعالى عليها الجبال فرست واستقرت وذلك أن الارض قبل تكوّن الجبال كانت مغطاة بالمياه لبساطتها وكانت دائما تميد وترتعش كالمحموم فلما خلق الله الجبال شيأ فشيأ قل الميد ورست لان القشرة الصلبة من كرة الارض أخذت فى الثخن عدة قرون من ابتداء خلقتها بسبب تجمد المادة السائلة التى تحتها بالتبريد والجزء الجامد من الكرة كان قليل القوام لا يقاوم ضغط الغازات ولا ضغط المادة السائلة التى كانت محيطة بها وضاغطة لها بقشرتها المرنة فأمواج هذا البحر المسجور الباطن المولد للعناصر قهرت هذا المانع مرارا فحصل تمزق فى سطح الارض فى جهات كثيرة فتكوّنت جبالا رفعت قاع البحار وكانت مكوّنة من صخور وفلزات ومركبات معدنية مختلفة ونفذ من باطن الارض أيضا سيول من مياه فى حالة الغليان فلما أتم الله تركيب الجبال واتساع الارض قل الميد ما أمكن * ولنذكر ما يتعلق بكيفية ارتفاعات الاراضى وتكون الجبال وفيه مباحث

(المبحث الاول فى ارتفاعات الاراضى والجبال) هذه القاعدة العلمية التى اعتبرت أساسا لهذا العلم تستنتج بالبداهة من قاعدة الحرارة المركزية وهى تثبت لنا أن أغلب الجبال تكوّنت بواسطة ارتفاع الارض من أسفل الى أعلى ولنوضح ذلك بما سنذكره على الاثر فنقول

(المبحث الثانى فى أسباب الارتفاعات) من المعلوم أنه يتصاعد من باطن الارض على الدوم أبخرة وغازات ومياه فى حالة الغليان وحينئذ يوجد فى باطن الارض ينبوع عظيم لهذه الابخرة التى تميل للخروج الى ظاهر الارض كلما تكوّنت فتى وجدت هذه الابخرة فى الصخور منافذ توصل الى سطح الارض نفذت منها بسهولة فاذا لم تجد هذه المنافذ تراكمت فى التجاويف الباطنية الارضية وتضغط نفسها حتى تثقب القشرة الارضية المانعة من خروجها أو ترفعها أو تمزقها ففى الحالة الاولى يتكوّن بركان وفى الثانية يتكوّن جبل مختلف الارتفاع وفى الثالثة يحصل تمزق فى باطن الارض تحصل عنه زلزلة * ولنوضح ذلك بأمور واقعية فنقول قد ذكرنا أنه حصل ارتفاع فى جزء متسع من الارض ببلاد المكسيك عام ١٧٥٩ فوصل الى خمسمائة قدم وقد حصلت هذه الظاهرة عقب زلزلة فى الارض وكانت مصحوبة بتمزق عظيم فى سطحها فظهر بركان جديد يسمى حورلو * وشوهد فى جزائر الروم ارتفاع جزيرة تدريجا عام ١٧٠٧ وقد حصلت زلزلة مهولة فى بلاد الشيلى من الامريكا سنة ١٨٢٢ فخسفت جملة مدن ووصل جزء عظيم من الارض الى ارتفاع عظيم * وقد ارتفعت جزيرة تسمى ميلدا عام ١٨٣١ من باطن الامواج بين جزيرة صقلية والافريقية * وبما قلناه يعلم امكان حصول الارتفاع ولا مرية فى أن أغلب الجبال تتكوّن بهذه الكيفية

(المبحث الثالث فى أزمان الارتفاعات) اعلم أن نظرية الارتفاعات لا تقتصر على الارشاد الى الكيفية التى تكوّنت بها الجبال فقط بل تعرفنا مع ذلك زمن ظهور كل منها بكيفية سهلة

وذلك أن المار في جهة ذات جبال شاهد طبقات مائلة أو عمودية فيتصور أن هذه الطبقات لم تكن متكونة بهذا الوضع بل حصل فيها تغير عظيم وينبغي أن ينسب ذلك الى ارتفاع جبال هذه الجهة فاذا تأمل في الجبال المذكورة شاهد طبقات أخرى أفقية تدل على رسوب تكون من المياه في قاع بركة أو بحر متسع وهذه الطبقات تكون على الوضع الذي به رسبت من المياه * وبيان ذلك أنه اذا تكونت طبقات أفقية قبل ارتفاع الجبل فلا بد أن تصير هذه الطبقات مائلة أو عمودية أياما كانت طبيعتها متى حصل الارتفاع لكن متى حصل الارتفاع أي تم حصوله وحصل اجتماع مياه في الجهة المذكورة وتكونت فيها طبقات جديدة فلا بد أن ترسب أفقية وتبقى على هذا الوضع الطبيعي ما لم تطرأ عليها أسباب تغير وضعها * وبما قلناه يسهل فهم اجتماع طبقات مائلة وطبقات أفقية في مكان واحد * ومن له دراية في علم التكوين والزمن الذي تنسب اليه كل من الطبقات المائلة والطبقات الأفقية التي شاهدها عرف بسهولة ابتداء مدة تكون الجبل أي زمن ارتفاعه الذي حصل بعد تكون الطبقات المائلة وقبل تكون الطبقات الأفقية * وحينئذ فلأجل معرفة ابتداء تكون الجبال يكفي مشاهدة الاراضي التي لم تزل أفقية والاراضي المائلة أو العمودية وتعيين زمن تكون كل منها بقواعد علمية * وبما قلناه يعلم أن الصفة الاصلية للجبال التي حصلت بواسطة الارتفاع هي أن يوجد في الصخور التي تتكون منها تحول عن وضعها الطبيعي وأما الجبال التي طبقاتها أفقية منتظمة فلا يشك أن لها منشأ آخر * ودراسة الجبال دالة على حصول الارتفاعات في جميع الازمان ومن حيث ان هذه الارتفاعات حصلت في أيامنا هذه فلا مانع من حصولها في المستقبل

* المبحث الرابع في أن من جملة أسباب الارتفاعات الزلزلة * قال في كتاب جامع الفنون وسلوة المحزون زعموا أن الابخرة والأدخنة اذا اجتمعت تحت الارض لا يقاومها ردة وتكون مادتها كثيرة لا تقبل التحلل بأدنى حرارة ولكون وجه الارض صلبا لا منفذ فيه ولا مسام اذا قصدت البخارات الارتفاع لم تجد منافذ ولا مسام فتهتز منها بقاع الارض وتضطرب كما يضطرب المحموم عند شدة الحمى فلا تزال تهتز الى أن تخرج تلك المواد منها فتسكن انتهى المراد منه * وقال متأخرو علماء الهيئة ان زلزلة الارض والبراكين ناشئان عن سبب واحد وذلك أن باطن الارض مشغول بكتلة سائلة مضغوطة بعد غور ستة وثلاثين ميلا فحينئذ تتصور القشرة الارضية عبارة عن غلاف صلب محيط بكتلة عظيمة من نار مضطرمة وهذه القشرة الرقيقة لا بد أن يقع عليها تأثيرات مختلفة من الحركات الاضطرامية لكتلته السائلة المحيط هو بها * وقالوا أيضا ان الجذب القمري والشمسي الذي يقتضي مد البحار وجزرها على سطح كرة الارض يؤثر أيضا في المادة السائلة الكامنة في أغوار الارض فنسبوا زلازلها الى جذب القمر وقالوا انها نتيجة مد وجزر الكتلة السائلة الباطنية الموجودة في القشرة الارضية * فاذا صدمت الامواج المضطرمة سطح القشرة الارضية الباطنية اضطرب جزء من سطحها مختلف الاتساع فاذا كان الضغط الحاصل من الكتلة السائلة ذا قوة كافية

في تمزيق القشرة الارضية واحداث اتصال بين ظاهر الارض وباطنها انقذفت أمواج الكتلة السائلة الباطنية الى الخارج فتتكون بركان واذا دام هذا الاتصال العارضي بين باطن الارض وظاهرها وكانت الطفحات البركانية مستمرة كما في بركان استر ومسبولي أو منفصلة عن بعضها ببعض أعوام كما في الوازوف والاتنا سمي البركان وهاجا فاذا انسد هذا الاتصال سمي البركان منطفئا والبراكين المنطفئة كثيرة على سطح الارض واستر ومسبولي أحد جزائر ليبارى التي في بحر الروم على الجهة الشمالية الشرقية من جزيرة صقلية ووجود الطفحات البركانية في البلاد التي توجد فيها كالتراشيت والبازلت وبقاء الفوهات العتيقة الشبيهة فوهاتها بفوهات البراكين الحالية يحققان عند من اشتغل بعلم الارض وجود براكين منطفئة في تلك البلاد •

❊المبحث الخامس في الكلام على الظواهر البركانية والبراكين وارتفاع الجبال❊ اعلم أن الظواهر البركانية لها ارتباط عظيم بزلزلة الارض وهي نتائجها الاخيرة ففي انشقت القشرة الارضية حصل اتصال بين باطن الارض وظاهرها فتتصاعد أمور مختلفة من باطن الارض كالغازات والمياه الحارة والباردة العذبة أو المالحة أو الكبريتية وقد تكون مشحونة بالوحل وقد تحصل فرقعة قوية وتنقذف حجارة أو أتربة الى بعد عظيم والغالب أن تكون الطفحات البركانية مكونة من حجر الخفاف أو من مواد ملتهبة ذائبة فتارة تنقذف الى بعد وتارة تسيل على جوانب البركان وتارة تتراكم في ارتفاعات مختلفة

❊المبحث السادس في الذوبان❊ قد ذكرنا أن الارض كانت سائلة أي في حالة تسيلان نارى تام وأن سطحها هو الذي تجمد بمرور الزمان بتبريده في الفراغ وهذا التبريد كان في ابتداء الامر سريعا جدا ثم صار بطيئا بتناقص درجة حرارة سطح الارض وقد صار الآن قليلا جدا مهما كانت شدة الحرارة المركزية بحيث يظهر أن الارض وصلت الى حالة موازنة يمكن أن تدوم عليها زمنا طويلا ✱ وقد أسلفنا أننا متى اعتبرنا ازدياد الحرارة التي تشاهد في المعادن عند الحفر وفي الآبار الصحراوية علمنا أن عمق القشرة الصلبة من الارض يبلغ نحو ستة وثلاثين ميلا وأنه يوجد بعد ذلك كتلة عظيمة من مادة على حالة ذوبان نارى تجاوز درجة حرارتها كل ما يمكننا تصوره ✱ وبما تقرر يعلم أيضا امكان حصول سبب فجائى يحدث ارتفاع هذه القشرة أو تمزقها أو زلزلتها أو يدفع جزءا من المادة الملتهبة أسفلها الى سطحها فيحصل ارتفاع جبال أو تتكون براكين أو زلزلة وهذه الظواهر فظيعة اذ يمكن أنها تفنى أمما بتمامها وتذهب ببلادها ومزارعها ✱ ويستدل على ارتفاع الجبال بوجود القواقع البحرية على قممها الشاهقة وهذه القواقع تدل على وجود البحر ولا يتصور أن البحر غطى جبالا ارتفاعها من ألفين وستمائة ذراع وستة وستين وثلثى ذراع الى خمسة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثى ذراع الا اذا فرض أن قمم هذه الجبال كانت قديما منخفضة عنه ثم ارتفعت مع بقايا الحيوانات التي رسبت عليها ✱ وهناك دليل آخر وهو وضع الطبقات التي تتكون منها أراضى الرسوب فان جميع هذه الطبقات بما أنها تكونت في المياه بواسطة الرسوب يلزم

أن يكون وضعها أفقيا مع أن الطبقات المجاورة للجبال تتبع انحدار الجوانبها وأحيانا تكتسب اتجاها عموديا تقريبا وهذه الظاهرة يتضح سببها متى علم أن الجبال خرجت من باطن الارض بعد تكوّن هذه الطبقات فرفعتها معها * وبيان ذلك أن بخار الماء والغازات المتكوّنة أسفل القشرة الارضية متى كانت غير كافية فى تمزيقها يلزم أن ترفعها وهذه النتيجة محققة بالمرتفعات التى شوهدت فى القرن الماضى وفى عصرنا هذا وقالوا انه حصل ارتفاع أرض فى بلاد الميكسيك سطحها من أربعة آلاف ذراع الى خمسة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين وثلث ذراع مربع والى الآن نعرف حدود الارتفاع بالطبقات المتمزقة وكان الارتفاع الاصلى بالنسبة لهذه الارض نحو حدودها ستة عشر ذراعا فقط ومائتين وثلاثة عشر ذراعا وثلث ذراع نحو مركزها وهذه الظاهرة كانت مسبوقة بزلازل مكثت نحو شهرين ولما وقعت هذه الحادثة حصل تمزق عظيم وارتفعت الارض وخرجت عدة مخروطات صغيرة محرقة ارتفاع الواحدة منها من ذارعين وثلثى ذراع الى أربعة أذرع ثم تكونت ستة جبال دفعة واحدة ارتفاع الواحد منها من خمسة آلاف وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع الى ستة آلاف وستمائة ذراع وستة وستين وثلثى ذراع وأحد هذه الجبال بركان يسمى حورولو بتشديد اللام * ومما قلناه يعلم أن الظواهر البركانية الواضحة صاحبة هذا الارتفاع لكنها أضعفت نتيجته لان الارض لو قاومت ولم تتكوّن جميع الفتحات التى كانت توثر كمسامات آمن لارتفع سهل حورولو ارتفاعا عظيما * وهنالك أمثلة أخرى كثيرة لارتفاع القشرة الارضية ولنقتصر على هذا المثال الذى يثبت أن قاع البحر قد يرتفع فوق الماء فيرفع معه القواقع والطبقات التى هو مكوّن منها وهو أنه حصل فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ماى زلزلة خفيفة فى ستورين احدى جزائر الروم وفى اليوم الثالث والعشرين شوهد على سطح الماء عند شروق الشمس مرئى ظن أنه سفينة غرقت فتوجه جماعة من الناس لينظروها فوجدوا صخرة خرجت من البحر وكان عمق البحر فى المحل المذكور قبل حصول هذه الظاهرة مائة باع وفى اليوم الرابع والعشرين توجه ناس كثيرون الى هذه الجزيرة الجديدة لينظروها فالتقطوا منها أنواعا من المحار كانت ملتصقة على سطحها وكانت هذه الجزيرة ترتفع شيأ فشيأ فازداد سطحها وارتفاعها من اليوم الرابع والعشرين من شهر ماى الى اليوم الرابع عشر من شهر يونية وصار الماء المحيط بالجزيرة فى حالة الغليان ثم خرجت صخور سود من قاع البحر فى اليوم السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر من الشهر المذكور فاكتسبت هذه الصخور ارتفاعا عظيما فى اليوم التاسع عشر وخرج منها دخان فى اليوم العشرين وسمع ارتجاج عظيم تحت الارض وفى اليوم الواحد والعشرين صارت جميع الصخور السود جزيرة واحدة متميزة عن الجزيرة الاولى التى ظهرت قبلها وكان يخرج منها لهب وأتربة وحجارة ملتهبة مدة سنة بل أكثر وصار محيط هذه الجزيرة السوداء ستة آلاف وستمائة ذراع وستة وستين وثلثى ذراع وارتفاعها خمسة وسبعين ذراعا ومن هذا المثال الذى حدث فى أيامنا هذه بين مالطة وصقلية يتضح أنه يمكن أن قاع البحر

يرتفع فيكون جبالا تثبت أن ما يشاهد فوقها من القواقع أصلها تحت البحر * ولنذكر طرفا مما يتعلق بالمبدأ أى تزلزل الارض الذى جرى فى زماننا هذا فنقول * أما زلزلة الارض فقد ينشأ عنها اتلاف عظيم وذلك أنها فى ظرف قليل من الثوانى يمكن أن تهدم ابالات متسعة وتصير الاراضى ذات الثروة قفارا خربة وتهلك عدة من الناس تحت ردم الابنية التى سقطت عليهم أو تبتلعهم الارض اذا انشقت * وقبل الشروع فى سرد الحوادث التى من هذا القبيل ينبغى أن نذكر الاحوال التى جرت العادة بسبقها الزلزلة واتساع سطح الارض التى تعرض لها هذه الزلزلة ومقدار زمن الاضطراب واتجاهه والنتائج التى تنشأ عنها بالنسبة لشكل الارض والمتالف التى تنشأ عن هذه الظاهرة المهولة المفزعة للنوع الانسانى فنقول * أغلب الناس يزعم أن زلزلة الارض تكون مسبوقة باضطراب فى الهواء وريح عاصفة محزنة وباضطراب غير طبيعى فى الابرة المغطسة وليس كذلك اذلا ارتباط للزلزلة بالاحوال الجوية بل الغالب أن تحصل زلزلة الارض والهواء ساكن والجو فى صحو فتخرب أراضى الزراعة وتهلك كثيرا من الاشخاص والحيوانات فى لحظة عين وتحصل فى الزمن الممطر كما تحصل فى غيره وفى الهواء الساكن والريح العاصف والغالب أن يسبق الزلزلة أو يصحبها أو يعقبها لغط مزعج آت من أحشاء الارض لا من الجو وسببه تمزق جزء عظيم من طبقات الارض بالطفحات الملتهبة فتمدده * وقد تقرر فى علم الطبيعة أن الاجسام الصلبة موصلات جيدة للصوت كالخشب والمعادن والصخور فتنقل التموجات ذات الرنين بسرعة أكثر من سرعة الهواء والغازات وبيان ذلك أن تضع ساعة دقاقة فى احدى طرفى شوحية ثم تضع ذلك على الطرف الآخر فتسمع حركة الرقاص من البعد الذى لا تسمعها منه فى الهواء فكذلك اللغط المتكون فى باطن الارض من تمزق الصخور الصلبة يسرى الى بعد عظيم ويسمع بعيدا عن منشئه بمسافة عظيمة وقد سمع بعض العلماء فى كركاس ونحوها مما يجاورها صوتا مزعجا وقت خروج طفحة بركانية من بركان ونسان التى بجزائر الانتيلا وكان البعد عن البركان ألفا وستمائة ذراع وعلى هذا القياس يسمع لغط الوازوف من باريز * وقد يحصل هذا اللغط بدون أن يصحب زلزلة الارض أو يعقبها كاللغط العظيم المشبه للرعد تحت الارض فى مدينة جنكساتو من بلاد الميكسيك عام ١٧٨٤ وقد مكث هذا اللغط أكثر من شهر لكنه كان متقطعا اذا فرقعة عظيمة فهذا لم يكن مصحوبا بزلزلة ولم يحس بأدنى حركة على سطح الارض ولا فى معادنها الى غور ستمائة ذراع وستة وستين ذراعا وثلثى ذراع * ومما يثبت أن هذا اللغط ناشئ تحت الارض أنه كان يسمع فى المعادن أقوى مما يسمع على سطح الارض وقد حصلت ظاهرة مشابهة لهذه فى قرننا هذا فى سنة ١٨٢٢ ميلادية حصل فى جزيرة ميلدا من البحر الادرياتيقى لغط تحت الارض مكث أربع سنين متوالية وكان اللغط يتعاقب بسرعة عظيمة لانه سمع أكثر من مائة مرة فى ليلة واحدة وكان شبيها باطلاق المدافع وظن أنه ناشئ عن حرب فى البحر ولما استمر ظنوا أنه يعقبه زلزلة عظيمة ولم يحصل ذلك نعم أحسوا برجة لم تحدث أدنى ضرر فى الابنية المشيدة ولما صار سكان تلك المدينة محزونين لتوقعهم طفحة بركانية طلبوا من حكومة

الوونر يش أن يوصلوهم الى الارض القارة فأمرت هذه الحكومة بارسال شخصين من ذوى الدراية فيما يتعلق بهذه الحادثة فلما وصلا الى هناك سكن روعهم ومع ذلك لم يزل اللغط الا فى سنة ١٨٢٢ * وحيث ان الزلزلة عبارة عن تذبذب واضطراب فى القشرة الارضية فلا يكون الارتجاج قاصرا على محل واحد من كرة الارض بل يمتد الى مسافة عظيمة فقد يكون اتساع الاماكن المضطربة عظيما وذلك كالزلزلة التى حصلت فى مدينة أشبونة فانها امتدت الى نحو نصف الكرة وكانت ساحة البلاد التى حصلت فيها الرجات قدر أوربا أربع مرات أى أنه حصل اضطراب فى أرض البورتغال وأسبانيا وأغلب أوربا وشمال الافريقية بل وصل هذا الاضطراب الى الاميريكا واتعلت مدينة سيتوبال فى جنوب أشبونة بعيدا عنها بستين ميلا فارتفع البحر جهة شاطئ أسبانيا أربعين ذراعا واضطربت الانهر والينابيع والبرك اضطرابا زائدا فى انكلترة والياكوس وحصل تذبذب لطيف فى بلاد السويد والنورويج وهولانده وفرانسا والنمسا والسويس وايطاليا وجزيرة السكورس وقوى التذبذب فى شمال أفريقيا لانه أهلك نحو عشرة آلاف شخص فى الجزائر وفاس وارتفعت الامواج تسعة أذرع وثلثا فى جزائر الانتيلا * فعلم مما ذكرناه أن الزلزلة التى حصلت فى أشبونة امتدت من بلاد البورتغال الى لابونيا وجزائر الانتيلا والى افريقيا وأمثال ذلك كثيرة ولا تكون الزلزلة قاصرة على الارض القارة بل قد يضطرب قاع البحر أيضا فتحرك كتلة المياه حركة قوية فان بعض القبودانات كان مسافرا بسفينة فى البحر فاضطربت فجأة اضطرابا أورث المسافرين فزعا عظيما حتى ظنوا أن السفينة لامست قاع البحر لكنهم علموا بعد القاء المراسى أنهم بعيدون عنه ثم ان اضطراب الامواج من الزلزلة يختلف فمن البلاد ما يمكث فيه الاضطراب أسبوعا ومنها شهرا كاملا ومنها أشهرا وقد شوهد ببلاد البيرو أن الزلزلة استمرت عدة سنين وقد تكون دورية فى بعض البلاد ففى بلاد الميكسيك تحصل الزلزلة كل عام مرة ومن البلاد ما تحصل فيه مدة ستة أشهر ومنها ما تحصل فيه مدة سنة ثم تنقطع مدة قرون وقد لا تمكث الا يوما أو ساعة أو ثانية كما فى بعض البلاد * فعلم مما ذكرناه أن مدة الزلزلة مختلفة وعلى أى حال كان عدد الرجات لا يكون مكث الواحدة منها الا قليلا فالزلزلة تمكث زمنا كالعواصف الا أن الرجة قد لا تمكث الا ثوانى قليلة أو تكون كالبرق فالزلزلة التى حصلت سنة ١٦٩٣ وقلبت مدينة مسينه وعدة محال من جزيرة صقلية وكانت سببا فى هلاك ستين ألف شخص لم يمكث الا خمسة ثوان * و يعسر معرفة اتجاه حركة الارض لانه يندر أن يوجد وقت الزلزلة راصد ذو ثبات لمشاهدة اتجاه حركات الارض وقد ذكر أرسطاطاليس أحد فلاسفة اليونان الذى شاهد زلزلة الارض مرارا فى جزائر الروم وعلى شواطئ آسيا أن للرجات ثلاثة اتجاهات وكان معناه أن المبدأ اما أن يكون تموجيا أى أفقيا واما أن يكون عموديا بأن ترتفع الارض وتنخفض على التعاقب واما أن يكون رحويا * والغالب أن تحصل الرجات الأفقية والعمودية فى آن واحد * وقال بعضهم ان رجة عمودية عظيمة ارتفعت من أسفل الى أعلى فأورثت ما تورثه فرقعة اللغم بالبارود فانقذفت بها جثة عدة أشخاص الى

أكثر ارتفاعها أكثر من مائتي ذراع * ومتى حصلت الرجات بالاتجاهات الثلاثة المتقدمة المسمى مجموعها بالميد فانها تحدث اتلافات عظيمة وذلك كالزلزلة التي أخربت جزيرة صقلية وزعموا أن سلاسل الجبال تمنع انتشار زلزلة الارض خصوصا اذا كانت مكونة من صخور حبوبية غائرة في أعماق القشرة الارضية * وليست الزلزلة قاصرة على هدم المدن بل نشأ عنها مع ذلك تنوعات مهمة في نفس الارض فيمكن أن ترتفع كما في الزلزلة المفزعة التي حصلت في بلاد الشيلي من اميريكا عام ١٨٢٢ وهي التي شوهد فيها ارتفاع جزء من شاطئ اميريكا طوله تسعمائة ميل وبهذه الكيفية يمكن أن تظهر جبال جديدة وتنهدم جبال أخرى فتردم الاودية وأحيانا تنشق الارض فتظهر عليها بعد الزلزلة شقوق عظيمة طولها عدة فراسخ وأميال وهذه الشقوق لا تبقى دائما فاحيانا تنطبق بغتة بعد حصول الزلزلة فتطحن جدرها المنازل التي ابتلعتها وتغير استواء سطح الارض الناشئ عن ارتفاع وانخفاض مسافة مختلفة الاتساع أحد النتائج العامة لزلزلة الارض ففي سنة ١٨١٩ حصل في بلاد الهند ارتفاع أكثر طولها استون ميلا وعرضها ثمانية عشر ميلا وانخفض ما حولها من أرض البلدة وأخذ معه قرى أخرى وما حصل في بلاد الهند في اتساع من الارض يحصل في كل زلزلة في اتساع قليل منها فينفتح سطحها الأصلي ويتغير سير الانهار ويكون نتيجة ذلك وكثيرا ما يرى انقذاف طفحات من مواد مختلفة من الشقوق التي انفتحت في الارض وكثيرا ما تكون ممتزجة بالرمل وقد يخرج منها رمل جاف تخلفه في الارض فتحات صغيرة مستديرة ويعسر تمييز تصاعد الغازات على سطح الارض لانها تتوزع في الهواء الجوي وتنتشر انتشارا لا يتضح الا اذا تكون تحت طبقة من الماء فقد شوهد غليان في البحر مدة الزلزلة وتفجر فقاقيع غازية عظيمة على سطحه * ثم ان ما ذكر في شأن زلزلة الارض في جميع البلاد وكتب في جرائد أخبار جميع الامم يتضح منه ما قلناه فقد ذكر فيها انشقاق الارض وتكون هوات عظيمة فجأة ابتلعت الاجزاء الموجودة على سطح الارض كالمنازل ومن جملة ما في هذه الجرائد أن هذه الشقوق كثيرا ما خرج منها كتل عظيمة من ماء سائل وأبخرة مائية وخرج منها في بعض الاحيان لهب من غازات قابلة للاحتراق وارتفعت في بعض الاحيان آكام في وسط سهول وتارة حصل ارتفاع في قاع البحر وتارة انهدمت جبال وخلفتها برك وتارة غاصت نهيرات في مجار تحت الارض تكونت دفعة واحدة وتارة جفت البرك وتارة انبجست ينابيع في محال جافة جدا منها ماء حار جدا وبالجملة فنتائج زلزلة الارض المختلفة تشهد بصدق الظواهر المذكورة قبل تكون الجبال من الميد لان الجبال أوتاد الارض من كثرة تكون المواد من أمواج البحر الباطن * وذكر في كتب المتقدمين عن بليناس أن جزيرة صقلية انفصلت عن ايطاليا بزلزلة مهولة * وذكر أيضا أن جزيرة قبرص انفصلت عن الشام وما ذاك الا للسبب المتقدم فما يحصل الآن بين أيدينا يوضح ما حصل في سالف الازمان

﴿ في بيان قوله تعالى وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾

قوله أنهارا وسبلا فمن النعم التي أظهرها الله تعالى على وجه الارض أنه تعالى أجرى

الانهار ووضع البحيرات والبرك على وجه الارض واعلم أنه حصل ههنا بحثان

(البحث الأول) ان قوله وانهارا معطوف على قوله وألقى فى الارض رواسى والتقدير وألقى رواسى وأنهارا وخلق الانهار لا يبعد أن يسمى بالالقاء فيقال ألقى الله فى الارض أنهارا كما ألقى فيها رواسى والالقاء معناه الجعل ألا ترى أنه تعالى قال فى آية أخرى وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها والالقاء يقارب الانزال لان الالقاء يدل على طرح الشئ من الاعلى الى الاسفل الا أن المراد من هذا الالقاء الجعل قال تعالى وألقيت عليك محبة منى

(البحث الثانى) انه ثبت فى العلوم العقلية أن أكثر الانهار انما تتفجر منابعها فى الجبال فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال أتبع ذكرها بتفجير العيون والانهار وربما عسر تعريف الينابيع والجداول والسيول والنهيرات والانهار بتعريف مختصر * وفى بيانها أمور (الامر الاول) الجداول هى التى تتكون مياهها من مياه الينابيع أو المياه الذائبة من أراضى الثلج والجليد أو التى تأتى من السيول ويكون حجمها صغيرا وجريانها متوسط السعة قليل الانحدار (الثانى السيول) هذه لها ثلاث صفات الاولى أن تكون سعة جريانها صغيرة ومع ذلك تكون سريعة دائما مع خرير أو بدونه الصفة الثانية أن تحصل فيها زيادة فجائية فتحل محلها بغتة تيارات هينة يعقبها فى الغالب جفاف كلى الصفة الثالثة أن يحصل فيها اتساع غريب بوصولها الى السهول فيتكون فيها مقدار كبير من التراب والحجارة (الثالث النهيرات والانهار) فيتكونان من الينابيع والجداول والسيول تنضم كلها فى منخفض واحد أو فى واد كبير ثم تجرى مياهها المختلطة فى قناة واحدة تسمى نهيرا اذا كانت الجريانات المائية منتظمة دائمة عظيمة الحجم ثم ان بركة النهير توصل غالبا الى بركة أوسع منه تصب فيه أيضا نهيرات أخر فيتولد منها ما يسمى بالنهر حقيقة فهو جريانات كبيرة مكونة من اجتماع نهيرات كثيرة وتصب مياهه الكثيرة فى البحر بمصب * (الرابع البحيرات) * سمى بذلك أجرام مائية كبيرة غير جارية تنضم مع بعضها فى برك منعزلة فى وسط الارض وعمقها العظيم يكون فى وسطها وهذه البحيرات المائية يحصل فيها تحرك واضطراب من أسباب مختلفة والمستنقعات لا تختلف عن البحيرات الا بكونها ناشئة بالاعمال والصناعة وتكون أقل سعة من البحيرات والبطائح فماؤها واقف قليل العمق يتصاعد معظمه أو كله فى بعض أزمنة من السنة وغالبا لا يجف عمقها بالكلية وتوجد بكثرة فى السهول المنخفضة وفوق الجبال وعلى مهابطها فى البلاد المملوءة بالغابات العتيقة

* (فى بيان قوله تعالى وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) *

* قوله مرج البحرين أى خلاهما وأرسلهما يقال مرجت الدابة اذا خليتها ترعى وأصل المرج الارسال والخلط ومنه قوله تعالى فهم فى أمر مريج سمى الماآن الكبيران الواسعان بحرين قال ابن عباس رضى الله عنهما مرج البحرين أى أرسلهما فى مجاريهما كما ترسل الخيل فى المرج وهما يلتقيان وقوله هذا عذب فرات المقصود من الفرات البليغ العذوبة

حتى يضرب الى الحلاوة والاجاج نقيضه وأنه سبحانه وتعالى بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وجعل من عظيم قدرته برزخا حائلا (وههنا بحثان)

(البحث الأول) ان الماء العذب يوجد فى الكون على ثلاثة أقسام الصلابة والسيولة والبخار* أما القسم الأول فهو الجليد والثلج والبرد* وأما القسم الثانى فهو البحار والانهار والبرك التى توجد على سطح الارض وعلى قمم الجبال بمقدار عظيم (واعلم) أنه يوجد هذا القسم أيضا فى باطن الارض فيكون تحتها أنهار يكون تيارها سريعا جدا لانه يشاهد انفجار المياه من الصخور فتسمى بالعيون ومياه الينابيع الباردة تنشأ من ارتشاح مياه المطر فى طبقات الارض الى غور قليل وهى نقية غالبا أولا تحتوى الا على المواد التى توجد فى الطبقة التى نفذت منها وأما المطر فهو ذو نقاوة تامة غالبا لكن لا ينبغى أخذه بعد أن يسيل على أسطحة البيوت لانه يذيب مقدارا عظيما من الاملاح وأما مياه الانهار فهى ذات نقاوة أيضا مناسبة عادة فتحتوى على مقدار قليل من أملاح ذائبة فيها لكنها لا تمنعها من انضاج البقول والخضراوات وترغية الصابون والمياه الصالحة للشرب يلزم أن تكون صافية شفافة لا لون ولا رائحة ولا طعم لها وأما غير الصالحة للشرب فهى بعكس ذلك وقد تكون محتوية على مقدار مناسب من أملاح جيرية وغيرها أو على مواد آلية فاسدة وذلك كماء الآبار والماء الراكد وماء البحر (واعلم) أن مياه الانهار الكبيرة التى تقطع مسافة طويلة جدا حال سيرها وهى المشهورة بكونها خفيفة على المعدة لكونها تذيب مقدارا عظيما من الهواء وهى سائرة أحد المياه الجيدة* وأما القسم الثالث فهو الهواء الجوى الممزوج ببخار الماء على الدوام وهذا البخار تارة لا يكون مرئيا وتارة يتكاثف على هيئة كرات دقيقة متراكمة فوق بعضها ويكون مرئيا ويتكون منه الضباب والسحب

(البحث الثانى) اعلم أن الماء الساقط على وجه الارض على قسمين قسم منه يسيل على سطح الارض أو ينبجس من جوانبها على هيئة ينبوع أو نهير أو نهر وحيث انه لا يصل الا الى عمق قليل من طبقات الارض لا يكون محتويا على شئ وهو العذب وقسم منه يجتمع فى بعض المواضع فيغوص فى أعماق عظيمة جدا ثم ينبجس على هيئة ينابيع حارة مشحونة بجواهر معدنية* ومن المعلوم أن الطبقات التى تمر فيها المياه مختلفة الطبيعة والعمق الذى اتصلت اليه مختلف أيضا ولذا كان تركيبها مختلفا ودرجة حرارتها مختلفة كذلك وهى متنوعة فى أعماق الارض متنوعة فمنها ينابيع وعيون وآبار ونهيرات وأنهار وكل منها تكون درجة حرارته كدرجة حرارة البلد الذى يوجد فيه وهناك ينابيع أخرى مياهها مشحونة بموادّ لا توجد فى الاراضى التى انبجست منها وتكون درجة حرارتها مختلفة الارتفاع وهى الينابيع المعدنية والينابيع الحارة وهى ناشئة عن اتيانها من أغوار مختلفة* ومن المعلوم أن المياه فى هذه الاغوار تكون حرارتها مرتفعة ارتفاعا كثيرا أو قليلا والمياه المعدنية تختلف عن بعضها بطبيعة الاصول الموجودة فيها وهى كثيرة الانتشار وشهيرة ببعض استعمالات طبية والمياه الحارة كثيرة الانتشار أيضا ومشهورة أيضا ببعض

استعمالات طبية * فاذا علمت هذا ظهر لك أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا كيفية المياه العذبة والمالحة وظهر لك بيان أنواعها وأقسامها أيضا والسبب فى ظهورها فى حالة الحلاوة وفى حالة الملوحة وبيان ما يخرج من قاع الارض وسبب اختلافه وتنوعه الى أنواع متنوعة وبيان ما يخرج من ظاهرها أى أقرب طبقة الينا منها والسبب فى تفاوته وصفاته وحلاوته وكل ذلك دليل عظم قدرته وحكمته وكونه مدبرا حكيما وقد جمع تعالى بين القسمين فى الآية فقوله هذا عذب فرات بيان للحلو وقوله هذا ملح أجاج بيان للمالح وقوله وجعل بينهما برزخا أى حاجزا يمنع اختلاط أحدهما بالآخر كيلا تبطل منافعهما لاجل مصالح العالم واتمام نظام الكون وكل ذلك دليل على أنه هو الفاعل المختار كما قال تعالى وجعل بين البحرين حاجزا وانما جعل بينهما حاجزا لئلا يفسد العذب منهما بالاختلاط وليحصل لهما أيضا انتفاع بذلك الحاجز بحيث جعله تعالى متنوعا فما كان من جهة العذب فيكتسب من العذوبة الحلاوة وما كان من جهة الآخر يكتسب منه الملوحة وغيرها فظهر حينئذ أن فى جوف الارض بحرين بحر الحلاوة وبحر الملوحة وما أشبههما * فان قيل لم جعل تعالى الماء فى باطن الارض قسمين حلوا ومالحا ولم يجعله حلوا محضا (قلنا) لولم يجعل منه قسما مالحا لظهرت تعفناته وانتشر فساده فى الارض ولفسدت تكونات الكائنات وتعطلت المولدات الثلاث وماذلك الا دليل حكمة الفاعل المختار ومكور الليل على النهار كما قال تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) وفيه مسائل

(المسئلة الأولى) مرج اذا كان متعديا كان بمعنى خلط أو ما يقرب منه فكيف قال تعالى من مارج من نار ولم يقل ممروج فنقول مرج متعد ومرج بكسر الراء لازم فالمارج والمريج من مرج يمرج كفرح يفرح والاصل فى فعل أن يكون غريزيا والاصل فى الغريزى أن يكون لازما ويثبت له حكم الغريزى وكذلك فعل فى كثير من المواضع

(المسئلة الثانية) فى قوله البحرين وجوه (أحدها) بحر فى باطن الارض وهو البحر المسجور المشتعل والبحر المحيط (وثانيها) البحر الحلو والبحر المالح المعدنى المتكونان فى باطن الارض كما قال تعالى وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج (وثالثها) ماذكر فى المشرقين وفى قوله تكذبان أنه اشارة الى النوعين الحاضرين فدخل فيه البحر المسجور والبحر المحيط والبحر العذب والبحر المالح المعدنى وأنه تعالى خلق فى باطن الارض بحرا محيطا هى به وخلق فى ظاهرها بحرا محيطا هو بها الاماقل

(المسئلة الثالثة) اذا كان المرج بمعنى الخلط فما الفائدة فى قوله يلتقيان نقول قوله تعالى مرج البحرين أى أرسل بعضهما فى بعض وهما عند الارسال بحيث يلتقيان أو من شأنهما الاختلاط والالتقاء ولكن الله تعالى منعهما عما فى طبعهما وعلى هذا يلتقيان حال من البحرين ويحتمل أن يقال من محذوف تقديره تركهما فهما يلتقيان الى الآن ولا يمتزجان وعلى الأول فالفائدة اظهار القدرة فى النفع فانه اذا أرسل الماءين بعضهما على بعض وفى طبعهما بخلق الله تعالى وعادته السيلان والالتقاء ومنعهما البرزخ الذى هو قدرة

الله تعالى أو بقدرة الله يكون أدل على القدرة مما اذا لم يكونا على حال يلتقيان فيه وفيه فائدة بيان القدرة أيضا على المنع من الاختلاط فإن الماءين اذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال بل يبقيان زمانا يسيرا كما اذا غمس اناء مملوء من ماء حار في ماء بارد ان لم يمكث فيه زمانا لا يمتزج بالبارد لكن اذا دامت مجاورتهما فلا بد من الامتزاج فقال تعالى مرج البحرين خلاهما ذاهبا الى أن يلتقيا ولا يمتزجا فذلك بقدرة الله تعالى ثم قال تعالى بينهما برزخ لا يبغيان اشارة الى ما ذكرنا والبرزخ الحاجز فان البحرين قد يكون بينهما حاجز أرضي كما قلنا آنفا

﴿في قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾

وفيه مسائل ﴿المسئلة الأولى﴾ في القراآت التي فيها قرئ يخرج من خرج ويخرج من أخرج بفتح الراء وعلى الوجهين فاللؤلؤ والمرجان مرفوعان ويخرج بكسر الراء بمعنى يخرج الله ونخرج بالنون المضمومة والراء المكسورة وعلى القراءتين بنصب اللؤلؤ والمرجان واللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره وقيل المرجان هو الحجر الاحمر

(المسئلة الثانية) اللؤلؤ لا يخرج الا من المالح فكيف قال منهما * نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما أن ظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس الذي لا يوثق بقوله ومن علم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب وهب أن الغواصين ما أخرجوه الا من المالح وما وجدوه الا فيه لكن لا يلزم من هذا أن لا يوجد في الغير سلمنا لم قلتم ان الصدف يخرج بامر الله تعالى من الماء العذب الى الماء المالح وكيف يمكن الجزم به والامور الارضية الظاهرة أكثر أراضيها مكون من غلافات هذه الحيوانات ثانيهما أن نقول ان صح قولهم في اللؤلؤ انه لا يخرج الا من البحر المالح فنقول فيه وجهان (أحدهما) أن الصدف لا يتولد فيه اللؤلؤ الا من سائل يفرز من الحيوان وينصب في محلين أحدهما البرنس (والثاني) ثنيات على جانب البرنس في محل مركز داخل الغلاف ثانيهما أنه يتولد من ملتقاهما بالقرب من مصب الخلجان

(المسئلة الثالثة) أي نعمة عظيمة في اللؤلؤ والمرجان حتى يذكرهما الله تعالى مع نعمة القرآن وخلق الانسان وفي الجواب قولان (الاول) أن نقول النعم منها خلق للضروريات كالارض التي هي مكاننا ولولا الارض لما أمكن وجودنا التمكن وكذلك جملة أراضي ما بقي من أصداف حيوانات اللؤلؤ والمرجان وفيه ههنا بحثان

(البحث الاول) ان جميع غلافات الحيوانات الصدفية أغلبها مكون من الطباشير وان أصل هذا الملح الجيري الطباشيري الذي تتكون منه الآن كتلة عظيمة من الارض ويدخل منه في الطبقات الارضية مقدار عظيم وهذا الملح يأتي الى سطح الارض من المياه الحارة التي تنبع مقدار عظيم منها من شقوق الارض

(البحث الثاني) اعلم أن مركز الارض هو الينبوع الاعظم لجميع المواد التي تتكون منها طبقاتها الارضية وأن باطن الارض تحصلت منه المواد الصلبة المختلفة التي تكونت بواسطة الطفح والصخور والغازات وغيرها وكذلك انقذفت منه على سطح الارض مياه في

حالة الغليان مشحونة بهذا الملح المصحوب بجواهر أخر * فان قيل كيف تكونت هذه الاراضى من هذا الملح الجيرى الذائب فى المياه الحارة قلنا لما كان البحر مغطيا أغلب سطح الكرة الارضية فى الازمان الأولية كانت المياه الحارة المشحونة بالملح الجيرى تستفرغ فى باطن هذه المياه بالضرورة فصارت مياه البحر محتوية على مقدار عظيم من هذا الملح فاستولت الحيوانات العديدة التى كانت تعيش فى البحار الاصلية خصوصا الحيوانات النباتية والحيوانات الرخوة ذات الاصداف على هذا الملح من مياه البحر لتكوين غلافاتها وكانت هذه الحيوانات كثيرة العدد فى هذا السائل المحتوى على كثير من هذا الملح وبعد هلاك هذه الحيوانات زالت مادتها الحيوانية بالتعفن فى باطن الماء ولم يبق منها الا المادة غير العضوية أى ملح الجير الذى كانت غلافاتها متكونة منه فصارت هذه الرسوبات الجيرية تتراكم على شكل طبقات سميكة فى قاع البحار ثم انضمت الى بعضها فتكونت منها طبقات ولما صارت هذه الطبقات تزداد بمضى القرون تكونت منها الاراضى الحجرية الجيرية التى نشاهدها الآن * ومن النعمة التى بها البقاء ومنها خلق المحتاج اليه وان لم يكن ضروريا كانواع الحبوب وأجزاء الشمس والقمر (واعلم) أن النافع وان لم يكن محتاجا اليه كانواع الفواكه وخلق البحار من ذلك كما قال تعالى والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ومنها الزينة وان لم يكن نافعا كاللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى وتستخرجون حلية تلبسونها فقد تبين لك نعمة اللؤلؤ والمرجان مع ما فيه من الزينة فان الله تعالى ذكر أنواع النعم الاربعة التى تتعلق بالقوى الجسمانية وصدرها بالقوة العظيمة التى هى الروح وهى العلم بقوله علم القرآن * (تنبيه) * هذه بيان عجائب الله تعالى لا بيان النعم وذلك لان خلق الانسان من صلصال وخلق الجان من مارج من نار من باب العجائب لا من باب النعم ولو خلق الله الانسان من أى شئ خلقه لكان انعاما اذا عرفت هذا فنقول ان الله تعالى بين بقوله خلق الانسان من صلصال أنه خلق الانسان من تراب وطين وبين بقوله خلق الجان من مارج من نار أن النار أيضا أصل لمخلوق عجيب وبين بقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان أن الماء أصل لمخلوق عجيب كالحيوان فانظر الى قدرة الحكيم القادر

قوله ومن النعمة الخ كذا بالاصل والمعنى ظاهر وفى التركيب ركاكة اه

* (فى بيان قوله تعالى وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) *

وفى الآية مسائل * (المسئلة الاولى) * ان فى هذه الآية دليلا على قدرة الله تعالى وبيان أنواع من نعمائه وذلك من حيث ان البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الماء فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ولو كان ذلك بايجاب لما اختلف المتساويان ثم انهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة فان اللحم الطرى يوجد فيهما بأنواع مختلفة على ما سيأتى والحلية تؤخذ منهما ومن يوجد فى المتشابهين اختلافا ومن المختلفين اشتباها لا يكون الا قادرا مختارا * وقوله وما يستوى البحران اشارة الى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ ارادته * (المسئلة الثانية) * قال أهل اللغة لا يقال فى ماء البحر مالح ويؤاخذ قائله به وهو أعم مما

يذهب اليه القوم وذلك لان الماء العذب اذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له الامالح وماء ملح يقال للماء الذى صار من أصل خلقته كذلك لان المالح شئ فيه ملح ظاهر فى الذوق بخلاف ماهو من أصل خلقته كذلك فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخية يصير بها ماء البحر ما لحا راعى فيه الاصل فانه جعله ماء جاوره ملح وأهل اللغة حيث قالوا فى البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك (وقوله ومن كل) أى كل واحد من البحرين العذب والملح (تأكلون لحما طريا) أى من السمك (وتستخرجون حلية تلبسونها) أى من اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه مواخر) أى ماخرات تمخر البحر بالجريان أى تشقه (وقوله ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فيه اشارة الى أداء حق الشكر الواجب علينا لله تعالى على هذه النعم ولقد قال تعالى فى كتابه الكريم ولئن شكرتم لأزيدنكم فاذا علمت هذا فاعلم أن الاسماك أقسام شتى وأن اللؤلؤ والمرجان نوع منها ولنبين لك حقيقة كل منها موضحا مفصلا فنقول أولا

(المسئلة الثالثة) ان الاسماك لا تعيش الا فى الماء ولذلك تموت اذا خرجت منه وجسمها منتظم وشكلها مختلف فمنها ما يكون مضغوطا من الجانبين ومنها ما يكون مضغوطا من أعلى الى أسفل وأما تعابين السمك فهى اسطوانية وسطحها مطلى بمادة زيتية معدة لتسهيل حركتها وجلدها اما أن يكون أملس أو خشنا أو قشريا وألوانها مختلفة فمنها ما يكون لونه بهيا للغاية ومنها ما يكون سنجابيا معتما (واعلم) أن جسم الاسماك لا توجد فيه أجزاء متميزة عن بعضها أى لا يشاهد لها عنق والذنب والرأس متصلان بالجذع وأطرافها قصيرة عريضة تكون عوامات تنفضها كالذنب للتحرك وهذه العوامات تسمى بأسماء مختلفة على حسب المحل الذى تشغله من الجسم فالموضوعان الى الامام نحو الرأس يسميان بالعوامين الصدريين والموضوعان الى الخلف نحو البطن يسميان بالعوامين البطنيين ويوجد خلاف العوامات الاربع المتقدمة عوام آخر يسمى بالظهرى وهو الذى يمتد على الخط المتوسط للظهر وهناك عوام آخر موضوع خلف المشرج يسمى بالشرجى والذنب هو الذى يكون العوام الذنبى وهذه الاعضاء منها الدافش ومنها القداف والاسماك تضع بيضا والغدتان المفرزتان للبيض موضوعتان فى التجويف البطنى على جانبى القناة الهضمية وتمتدان الى أسفل الكبد وهما عبارة عن كيسين لهما قناتان تنضمان الى قناة واحدة تستطرق مع الاعضاء البولية ويوجد فى هذين الكيسين عدد عظيم من البيض حتى أن البطن يكاد يكون ممتلئا به والخصيتان فى الذكور تشبهان الغدتين شبها أعظميا فى الشكل والحجم بقطع النظر عن الجوهر الذى يحتويان عليه لانهما عبارة عن كيسين متسعين موضوعين فى البطن يشغلان جانبى القناة الهضمية أيضا ويوجد لكل منهما قناة موصلة للمنى وتنضم القناتان ببعضهما فتكونان قناة واحدة تتصل بالمجموع العام ويوجد المنى فى باطن هذين الكيسين وهو كثير المقدار زبدى القوام وتكتسب الخصيتان نموّا أعظميا زمن تكاثر الاسماك ونموّ أعضاء التناسل واتصالها بالمجموع العام يميز الاسماك الذكور من الاناث ولاجل معرفة ذلك يكفى ضغط البطن قريبا من المجمع فاذا كان السمك ذكرا يخرج منه لبن واذا كان أنثى يخرج منه بيض ولا يوجد

جماع فى الاسماك بل ان الانثى تضع بيضها بمقدار عظيم فى الماء فيظهر على سطحه فتخصبه الذكر بمروره عليه يلقى عليه سائله المنوى وهذا الاخصاب عجيبة لا تشبه الاخصاب فى الحيوانات الآخر وتنقسم الاسماك الى ثلاثة أقسام

(القسم الاول الاسماك العظمية) وهى تنقسم الى ستة أقسام ثانوية أوصافها المميزة لها متخذة فى الغالب من قوام ووضع عواماتها وشكل خياشيمها غالبا* ولنذكرها واحدا بعد واحد فنقول (الاول) منها الاسماك ذوات العوامات الشوكية وهذا القسم الثانوى يتصف بالاشعة الشوكية التى تحمل العوام الظهرى للاسماك التى تدخل تحته وهو يشتمل على ثلاثة أرباع الاسماك المعروفة وينقسم الى عدة فصائل ومن جملة أنواعه القشر والطون وسف البحر (الثانى) منها الاسماك ذوات العوامات الرخوة التى عواماتها البطنية موضوعة فى الجزء الخلفى للبطن والاشعة التى تحمل العوام الظهرى لهذه الاسماك رخوة غضروفية والوصف المميز لها هو أن عواماتها البطنية موضوعة نحو الجزء الخلفى للبطن ويدخل تحت هذا القسم الثانوى أبو بشير والمشط والبنى والقنومة والليبس والدوبولا والصبوغة والشابة والرعاد ويدخل تحت هذا القسم أيضا السردى وأسماك أخرى (الثالث) منها الاسماك ذوات العوامات الرخوة التى عواماتها البطنية موضوعة أسفل العوامات الصدرية والاشعة التى تحمل العوامات الظهرية رخوة كما فى القسم الذى قبل هذا لكن عواماتها البطنية موضوعة أسفل العوامات الصدرية ويدخل تحت هذا القسم المور ونحوه (الرابع) منها ذوات العوامات الرخوة عديمة العوامات البطنية الاسماك التى تدخل تحت هذا القسم ليس لها عوامات بطنية ولذا سميت بعديمة العوامات البطنية وكلها تشبه ثعبان السمك وهو أنموذجها وكلها لها شكل مستطيل وجلدها سميك رخو يوجد عليه قشور قليلة ويدخل تحت هذا القسم ثعابين السمك والجمنوت الكهربائى (الخامس) منها ذوات الخياشيم القنزعية هذا القسم لا يحتوى الا على عدد قليل من الاسماك وأوصافه المميزة له هو أن خياشيم أسماكه تكون على هيئة قنزعات مستديرة موضوعة زوجا زوجا على طول الاقواس الخيشومية والخياشيم لا تكون شبيهة باسنان المشط فى هذه الاسماك وهذا هو السبب فى تسميتها بذوات الخياشيم القنزعية وجسمها صلب كأنه درقى ويدخل تحت هذا القسم جنس الاسماك المسماة بالخيول البحرية (السادس) منها ذوات الفك العلوى الملتحم بالجمجمة (اعلم) أن العوامات والخياشيم لا تكون مميزة للاسماك الداخلة تحت هذا القسم والاوصاف المميزة لها وضع العظمين الفكيين العلويين الملتحمين ببعضهما التحاما قويا والتحام القوس الحنكى بالجمجمة فليس فكها العلوى متحركا أصلا ولذا سميت بذوات الفك العلوى الملتحم بالجمجمة والنحو يفان الخيشوميان ليس لهما عضلات لانهما مختفيان تحت الجلد الذى هو سميك جدا وهناك شق صغير يرى بعسر ينفذ منه الماء المستعمل لها فى التنفس ويدخل تحت هذا القسم أبو صندوق ونحوه

(القسم الثانى الاسماك الغضروفية) وهى قليلة العدد لكنها شهيرة ببنيتها وشكلها المختلف فهيكلها غضروفى أى لا تتكون فيه ألياف عظمية انما الاملاح الجيرية ترسب فيه على

هيئة حبوب صغيرة غير متصلة ببعضها وليس لها تداريز فى جميعها بل هى مكوّنة دائما من قطعة واحدة والخياشيم فى هذه الاسماك اما أن تكون سائبة نحو جهتها الوحشية كما فى أسماك الاقسام المتقدمة واما أن تكون ملتصقة بظاهر الجلد الذى توجد فيه ثقوب أو شقوق لنفوذ الماء منها ولذا قسمت هذه الاسماك الغضروفية الى قسمين ثانويين الاوّل ذوات الخياشيم السائبة والثانى ذوات الخياشيم الملتصقة ولا يشتمل القسم الاوّل الا على فصيلة الاستورجيون ويشتمل القسم الثانى على سمك الترس والاسماك الماصة *(القسم الاوّل)* منها ذوات الخياشيم السائبة وهى تقرب من الاسماك المعتادة فخياشيمها سائبة تشبه أسنان المشط مغطاة بغطاء متحرك والاهم منها هو جنس الاستورجيون والشكل العام لهذه الاسماك كشكل الاسماك العظمية وبسبب هيئة هيكلها تكون متوسطة بين الاسماك العظمية والاسماك الغضروفية لان جملة من عظام رأسها وجميع عظام كتفها متصلة بكتلة عظمية وجسمها مزين بقشور منضرسة فى الجلد صفوفا طولية فهاصغير مجرد عن الاسنان وعوامها الظهرى موضوع خلف العوامين البطنيين وفوق العوام الشرجى والعوام الذنبى يحيط بطرف الذنب واسماك هذا الجنس كبيرة الجثة وقوتها العضلية عظيمة لكنها ذات سكون وليست مخيفية الا للاسماك الصغيرة وفى فصل الربيع تصعد هذه الاسماك من البحر وتدخل فى الانهار لتضع فيها بيضها ومتى انفتح البيض وتخلق ما فيه يذهب الى البحر بسرعة ويمكث فيه الى سن الشبوبية واخصابها عظيم جدا والاستورجيون المعتاد لحمه لذيذ المذاق ومع ذلك تؤخذ منه حوصلة العوم التى هى كثيرة الاستعمال فى الصنائع للغراء وهى توجد أسفل العمود الفقرى وطرفها المدبب متجه نحو الذنب ويجهز البطارخ المسمى كاويار منه *(القسم الثانى منها ذوات الخياشيم الملتصقة)* وهى تحتوى على أسماك مهولة مضرة بشراهتها وأسنانها الحادة الموضوعة فى فكيها والرئيس منها السمك المسمى بكلاب البحر والدقاق وأبى منشار والترس والتوربيل الكهربائى ويسمى أيضا بذات الانف المفرطح لان رأسها وفمها مفرطحان وخياشيم هذه الاسماك مغطاة بالجلد وملتصقة به من الظاهر *(القسم الثالث الاسماك الماصة)* وهى ذوات الافمام المستديرة وهى تشمل الحيوانات الفقرية ذات البنية البسيطة فليس لها عوامات صدرية ولا بطنية وجسمها مستطيل ينتهى من الامام بشفة لحمية مستديرة ويمر فى جميع أجسام الفقرات حبل وترى واحد مملوء من الباطن بجوهر غروى ولانذكر منها الا نوعا واحدا اللامبروا وأنواع هذا الجنس تعيش فى البحار والانهار ولها شبه عظيم بثعابين السمك بالنظر لشكلها الاسطوانى وجلدها العارى اللزج وليس لها حوصلة عوم فتسقط فى قاع الماء متى بطلت حركتها وعادتها أن تثبت كالعلق على الاحجار والاجسام بواسطة القرص المقعر لفمها ولذلك تؤثر فى الاسماك الكبيرة فتتوصل الى ثقب جلدها وقتلها فتتغذى بها وحيث أنهينا الكلام فى بيان الاسماك وأقسامها فلنشرع فى بيان اللؤلؤ والمرجان وأقسامهما فنقول * يوجد فى الحيوانات الرخوة قسمان عظيمان باعتبار كون رأسها متميزا عن الاجزاء الاخرى للجسم وكونه مختلطا معه بحيث لا يمكن

أن يكون متميزا عنه فحيوانات القسم الاول تسمى بذات الرأس وحيوانات القسم الثانى تسمى
بعديمة الرأس وعلى حسب وضع أعضاء الحركة قسمت الحيوانات الرخوة الى خمس رتب
(القسم الاول الحيوانات الرخوة ذات الرأس) ينقسم هذا القسم الى ثلاث رتب الرتبة
الاولى ذات الارجل الرأسية الرتبة الثانية ذات الرجلين الجناحيتين الرتبة الثالثة ذات
الأرجل البطنية *(الرتبة الاولى)* ذات الارجل الرأسية شكلها مختلف جدا والوصف الذى
يميزها عن الحيوانات الاخرى الرخوة هو القرون الطويلة اللحمية التى تكون على هيئة
أذرع وعدتها من ثمانية الى عشرة وهى تحيط بالرأس ولذا سميت بذات الارجل الرأسية
وجسمها مشمول فى كيس عضلى مفتوح من الامام ليخرج منه الرأس والقرون وهو يغطى
أجزاء الجسم فهو برنس لها والفم ذو فكين موضوعين فوق بعضهما صلبين قرنيين على شكل
منقار الببغا حادين ومنحنيين على نفسهما والسفلى منهما أكبر من العلوى وهما محاطان
بشفة لحمية متوسطة الثخن وأعضاء التناسل توجد فى هذه الحيوانات فمنها الذكور ومنها الانثى
فالذكر له خصيتان موضوعتان فى قاع الكيس والعضو المخرج للمنى ينفتح فى القمع والمبايض
تشغل المحل عينه فى الانثى وبيضها على شكل عناقيد أو سبح أو خيوط طويلة والجماع يحصل
فيها باشتباك قرون الذكر بقرون الانثى أولا ثم انطباق القمعين على بعضهما ويدخل فى
هذه الرتبة أنواع الحبار
(الرتبة الثانية ذات الرجلين الجناحيتين) حيوانات هذه الرتبة مغلفة بكيس لحمى يخرج
منه الرأس المنفصل عن الجسم باختناق وليس لها قرون كما فى ذات الارجل الرأسية ولا
قاعدة مستعرضة للزحف على الارض كما فى ذات الارجل البطنية بل لها امتدادان جانبيان
على شكل جناحين وأغلبها خنثى وبنيتها أبسط من بنية ذات الارجل الرأسية وهى تعيش
خصوصا فى البحار الكبيرة بقرب القطبين وهى حيوانات صغيرة تسبح بسهولة عظيمة وقت
سكون المياه عند غروب الشمس ويدخل تحتها حيوانات قليلة العدد كالبال وغيره
(الرتبة الثالثة ذات الارجل البطنية) جسم هذه الحيوانات توجد له قرص لحمى يشغل
سطحه السفلى يزحف عليه الحيوان والرأس متميز عن باقى الجسم يحمل قرنين أو أربعة قابلة
للانكماش والبرنس المغطى لجزء كثير أو قليل من الجسم منضم من أسفل بحافة القرص
وتارة يكون الحيوان الرخو عاريا وتارة يوجد له قوقعة صغيرة تغطى جميع جسمه * والحيوانات
الداخلة تحت هذه الرتبة عديدة منها ما يتنفس بالرئتين وهو الأقل عددا ومنها ما يتنفس
بالخياشيم وهى الاكثر فالحيوانات الرخوة الرئوية تتميز عما عداها بأنها تتنفس الهواء من ثقب
مفتوح أسفل حافات برنسها تمدده وتقلصه على حسب ارادتها ولذا ليس لها خياشيم بل لها
شبكة رئوية ترحف على جدر تجويفها التنفسى وبعضها أرضى والبعض الآخر يعيش فى الماء
لكنه مجبور على ظهوره فوق سطح الماء زمنا فزمنا يتنفس الهواء وكلها خنثى فالرئوية
الأرضية أغلبها له أربعة قرون والانواع الداخلة تحتها عديدة منها البزاق وحلزون الكرم
(القسم الثانى الرتبة الرابعة الحيوانات الرخوة عديمة الرأس) هذه الحيوانات ليس لها

رأس واضح وانما لها فم مختف فى قاع البرنس أو بين ثنياته وقوقعة هذه الحيوانات مكونة من صدفتين تغطيان جميع البرنس أو بعضه ويوجد فى جزء القوقعة العلوى رزة مبطنة برباط مرن اذا انبسط تنفتح القوقعة واذا انقبض تنغلق والجزء السفلى للجسم يكون كتلة لحمية تسمى بالقدم تنفع الحيوان فى الحركات وهى تحمل نحو قاعدتها تارة حزمة خيوط يثبت الحيوان بواسطتها على الاجسام التى توجد فى قاع البحر وجميع هذه الحيوانات خناثى فتخصب بنفسها وتحتها جملة فصائل المحار المعتادة وقوقع اللؤلؤ * المحار المعتاد هو كثير الاستعمال فى غذاء الانسان وهو تجارة مهمة لجملة بلاد بحرية وبيض المحار يكون عند خروجه على هيئة سائل أبيض هيئته كنقطة من دهن يلتصق بالاجسام التى تكون بقاع البحر أو الحيوانات التى تكون من نوعه والمحار الجديد متى تم يميت القديم أى يخنقه بتراكمه عليه وبهذه الكيفية تتكون طبقات المحار العظيمة التى توجد على شواطئ البحار (قوقع اللؤلؤ) هو ينسب الى فصيلة المحار ويتحصل منه اللؤلؤ وجسم الحيوان صغير اذا قوبل بالاتساع العظيم لقوقعته * وقوقعة اللؤلؤ شكلها كدائرة وهى خشنة هشة طباشيرية من الظاهر وبرقية من الباطن لامعة صدفية لطيفة فى أغلب سمكها خصوصا سطحها الباطن والصدفتان متساويتان طولا واتساعا لكن العليا وهى الغطاء أكثر تقرطحا من السفلى التى تحتوى على الحيوان * وينفرز اللؤلؤ على السطح الباطن للقوقعة أو فى سمك برنس الحيوان وهو مكون من مادة صدفية موضوعة طبقات حول نواة صغيرة لا توجد أحيانا وهذا اللؤلؤ متى كان ذا حجم يكون غالى الثمن * ويوجد قوقع اللؤلؤ خصوصا فى البحر الاحمر وخليج سوس وبوغاز منار وبحر الهند * وكيفية صيده أن الغواصين ينقسمون فرقتين يغوصان ويستريحان على التعاقب أى بالمناوبة ويوجد مع كل منهم شبكة يضع فيها قوقع اللؤلؤ وحبل معلق فيه حجر يسرع نزوله فى الماء وحبل آخر للنداء يبقى طرفه العلوى مثبتا فى السفينة فاذا أراد الغواص النزول فى الماء يأخذ الحبل المعلق فيه الحجر بين أصابع قدمه اليمنى ويمسك حبل النداء بيده اليمنى ويسد حفرتيه الانفيتين بيده اليسرى ومتى وصل الى قاع الماء يقتلع القوقع بيده اليمنى ويضعه فى الشبكة التى أخذها معه وبعد مضى دقيقتين أو أربع ويندر أن يكون ستة يحرك حبل السفينة للاشارة بطلب رفعه وكل غواص يمكنه أن يغوص من سبع مرات الى ثمان فى صباح اليوم وفى كل مرة يخرج نحو الخمسين قوقعة ثم يضع جميع القوقع على الارض فى محل معد لذلك يترك فيه زمنا كافيا لاماتة الحيوانات ويعلم ذلك بانفتاح القواقع من نفسها وحينئذ يبحث فيها وفى صدفتى البرنس عن اللؤلؤ مع الانتباه ثم ينتخب ألطف القوقع لصناعة الصدف منه ويترك القوقع الغير الجيد

❋ الرتبة الخامسة ذات الرجلين الذراعيتين ❋ تشتمل هذه الرتبة على حيوانات رأسها ليس متميزا عن باقى الجسم وهذه الحيوانات مغطاة ببرنس منثن طبقتين ومفتوح من الامام ولها عوضا عن الارجل ذراعان لحميان ضربيان باهداب تخرجهما هذه الحيوانات لضبط ما تريد ضبطه ثم تلتف على هيئة حلزون ومتى دخلت فى محلها وهذه الحيوانات مائية وأغلبها بحرى

لها قوقعة منتظمة ذات صدفتين مثبتة على الاجسام التى فى البحر بواسطة ذنيب ليفى وهذه الحيوانات كثيرة

﴿القسم الثالث من المملكة الحيوانية التى يتكون منها المرجان﴾ هذا هو القسم الاخير من المملكة الحيوانية وهو الذى فيه العلامات الحيوانية الاخيرة وفى هذا القسم تفقد أعضاء الحياة المهمة وهى التى شاهدنا تنوعها فى الاقسام المتقدمة والواقع أن بعض هذه الحيوانات وهى المتباعدة أكثر من حيوانات الاقسام المتقدمة ليس لها قلب ولا أوعية دموية ولا مجموع عصبى أو أن هذه الاعضاء لا يمكن مشاهدتها الى الآن ومع ذلك فهنالك بعض ظواهر يستدل بها على وجود أعصاب فى الحيوانات النباتية ولا يمكن أن يعطى تصور عام على هذه الحيوانات لانه لا يوجد رتبة من المملكة الحيوانية يكون بين حيواناتها مشابهة مثل هذه وقد أدخلوا فيها جميع الحيوانات الدنيئة التى لا يمكن نسبتها للرتب المتقدمة ولذا يأتى لنا أن بنيتها تختلف اختلافا عظيما لانه يشاهد مجموع عصبى فى الحيوانات ذوات الجلد الشوكى وفى أنواع الابخرة البحرية مع أن بعض الحيوانات النباتية يظهر أنها مجردة عنه ولذا تكون مجردة عن الحواس ما عدا حاسة اللمس التى توجد فى جميع الجلد العارى لبعض هذه الحيوانات أو فى زوائد مخصوصة تسمى بالقرنيات * والدورة أثرية ولا يوجد أدنى أثر من الاعضاء الخاصة بالتنفس وأعضاء الهضم تختلف اختلافا عظيما أيضا فبعض الاجناس يكون له قناة هضمية مكونة من فم وقناة معوية وشرج كما فى القنافذ البحرية وبعضها يكون له كيس معوى وفتحة واحدة معدة لدخول الاغذية وخروج المواد البرازية أى أنها تقوم مقام الفم والشرج كما فى نجوم البحر ونحوها وكثير منها ليس له الا تجويف محفور فى الجسم الى الخارج بجملة مصاصات وكثير منها لا يشاهد له فم ولا يتغذى الا بواسطة الامتصاص الذى تحصل من مسامها * وأعضاء التناسل اذا وجدت تكون مجتمعة فى حيوان واحد فيكون خنثى وقد تفقد فى عدة من هذه الحيوانات لكنه يوجد فيها كيفية تكاثر مخصوصة بأزرار تتولد على الاجزاء المختلفة للحيوان وتنفصل منه فى زمن معلوم لتتكون منها حيوانات جديدة وهذه الطريق مشابهة لما يحصل فى النباتات التى يكون كل زر فيها عبارة عن نبات على حدته وهذه الحيوانات منها ما يكون خالصا ومنها ما يكون ملتصقا بالاجسام الغريبة التى تمنعها من أن تغير محلها كالاسفنج ومنها ما يكون ملتصقا ببعضه مركبا أى أن جملة منها تكون ملتحمة ببعضها بحيث انها لا تكون الا حيوانا مركبا وهذا يشاهد فى المرجان وجميع الحيوانات ذات المساكن الحجرية وهى التى تكون لنفسها محورا حجريا أو قرنيا وتكون هذه المساكن على هيئة كتلة اسفنجية مختلفة الحجم أو على هيئة فروع ملتصقة بجذع عام ومنتهية بفريعات قد اعتبرت زمنا طويلا نباتات بحرية وبسبب هذه المشابهة وبساطة بنية عدة حيوانات وزوال الاعضاء الرئيسة التى تميز الحيوان قد سميت بالحيوانات النباتية * والواقع أن الحيوانات والنباتات تتشابه مع بعضها فى هذا القسم حيث انه يوجد بعض حيوانات من النقيعية ليست مكونة الا من جزء بسيط متحيون وان للاشكال الاولية للمملكة النباتية حويصلة غير

متحيونة وحينئذ فالحيوانات والنباتات تبتدئ بالحويصلة العضوية التي تحيون لتكون ابتداء السلسلة الحيوانية وتبقى غير متحركة لتصير قاعدة للنباتات وبالقرب من هذه النقطة العامة يرى ازدياد المشابهات بين الحيوانات والنباتات مع أن الاختلافات التي تميزها ابن المملكتين عن بعضهما تزداد كلما تباعدتا عن هذه النقطة وقد قسمت هذه الحيوانات النباتية الى قسمين ثانويين متميزين عن بعضهما بشكلهما العام (الاول) الحيوانات النباتية الشعاعية وأعضاؤها موضوعة غالبا حول محور ولها شكل نجمى (والثانى) الحيوانات النباتية الكروية وجسمها كروى كثيرا أو قليلا خصوصا فى حداثة سنها الان تقدمها فى السن يمكن أن يصيرها غير منتظمة بالكلية فالحيوانات النباتية الشعاعية هى التى بنيتها أكثر تضاعفا وتنقسم الى ثلاث رتب وهى ذات الجلد الشوكى ونجوم البحر وأنواع المرجان الابيض والاحمر والحيوانات النباتية غير الشعاعية تنقسم الى رتبتين لا يوجد بينهما ارتباط الا كونهما موضوعتين فى آخر السلسلة الحيوانية فالرتبة الاولى تشتمل على أنواع السفنج والرتبة الثانية تشتمل على الحيوانات النقيعية

*(الرتبة الاولى ذات الجلد الشوكى) القنافذ البحرية جسمها منتفخ مغطى بقشرة حجرية جيرية مثقوبة بعدة ثقوب صغيرة تكون بوضعها العام شكلا نجميا والارجل أى القرون اللحمية تخرج من هذه الثقوب وفى عدة أنواع يكون سطح هذه القشرة مملوأ شوكا حجريا جيريا متحركا يختلف غلظه وشكله * وهذه الحيوانات تعيش فى قاع البحار وتزحف على الصخور ويؤكل اللب الاحمر الجنوبى الموجود فى باطن قشرة القنفذ خصوصا فى البلاد الموضوعة على شواطئ البحر وهذا اللب مكون أغلبه من المبايض * وأعضاء التناسل منفصلة على حيوانين فى القنافذ البحرية ولا تختلف الخصيتان عن المبيضين فى الهيئة (نجوم البحر) تعرف بالشكل العام لجسمها الذى هو على هيئة نجم يختلف عدد فروعه وجلدها صلب ذو مقاومة ويوجد على السطح السفلى لكل فرع من فروعها ميزاب طولى مثقوب ثقوبا تخرج منها الارجل وهذه الحيوانات تعيش فى قاع البحار أو على الصخور

(الرتبة الثانية الاكرية البحرية) انما سميت بهذا الاسم لان أغلبها يحدث تحرقا عند امساكها باليد وقت خروجها من الماء وبنيتها ابسط من بنية حيوانات الرتبة المتقدمة وشكلها مختلف ففى أغلبها يكون الجسم على هيئة قرص شفاف هلامى جزآه العلوى والسفلى محدبان ويوجد فى السفلى فتحة القناة الهضمية ويخرج من محيط القرص قرون بسيطة أو متفرعة بكيفيات مختلفة وبعضها له حويصلة تخدم لحفظه على سطح الماء ولذا قسمت هذه الحيوانات الى بسيطة وذات حويصلات كما سيأتى * وقرص هذه الحيوانات تحصل فيه حركات انقباض وانبساط بواسطتها تسبح هذه الحيوانات فى مياه البحر وتبقى على سطحه أو تنغمس فى باطنه ولها ألياف موضوعة بانتظام فى الكتلة الهلامية المكونة لها وهذه الحيوانات أحادية أعضاء التناسل فالاناث لها مبايض تنفتح فى التجويف البطنى غالبا بحيث ان هذه الحيوانات يخرج بيضها من فمها * وبيض قنديل البحر الذى هو حيوان ينسب الى هذه الرتبة

تتولد منه أولاد الاولاد وتثبت فى محلها بعد أن كانت خالصة وتستطيل فتصير ساقا ذات مساكن تتولد عليها أوراق ثم أزرار جديدة تكتسب أوصاف قنديل البحر شيأ فشيأ ثم تنفصل هذه الحيوانات من ساقها العامة ومتى صارت خالصة تكتسب جميع أوصاف الابخرة البحرية

(الرتبة الثالثة أنواع الحيوانات المرجانية) جسمها تارة يكون رخوا وتارة مغطى بمادة قرنية أو حجرية تلتصق بواسطتها بالاجسام الغريبة ولذا لا تغير محلها أصلا وجسمها أسطوانى أو بيضاوى وليس لها فتحة الا فى أحد طرفيها الذى يكون محاطا بتاج من قرنيات طويلة والفم يشغل محور الجسم ويكون شرجا أيضا وهو يتصل بتجويف بطنى كبير ينتهى بقعر كيس وتتكاثر هذه الحيوانات بطريقتين فتارة يتحصل منها بيض ينفصل ويخرج الى الخارج ويذهب بعيدا البيت وينمو وتارة يتولد على سطح جسمها أزرار تصير أنواعا مشابهة للام فينتج من ذلك كتل ذات أشكال مختلفة يوجد فيها جميع ما تناسل من نوع واحد متصلا بعضه وكأنه يعيش بحياة عامة وكثيرا ما يكون جسم هذه الحيوانات الصغيرة مكونا كله من منسوج نصف شفاف رخو للغاية وأغلبها يتصلب منه الجزء السفلى لغمدها الجلدى ويكتسب هيئة الحجر وهذه الغلافات الصلبة تارة تكون أنابيب وتارة تكون خلايات وأحيانا تكون متميزة عن بعضها لكن العادة أن تكتسب بانضمامها مع بعضها كتلة تسمى بالمساكن الخلوية وهى تخدم لتميزها وقد يصير حجمها عظيما وان كان كل مسكن منها ذا حجم صغير للغاية ومتى كان بعض هذه الحيوانات موضوعا فى محال مناسبة لنموه كالبحار المجاورة للمدارين يتكاثر تكاثرا زائدا بحيث انه يغطى اتساعا عظيما من قاع البحر فيتراكم على بعضه ولا يلزم لهذه الحيوانات سنوات عديدة لترتفع على سطح الماء وحينئذ ينقطع نمو الارض المكونة من بقاياها لكن بعد زمن يسير تنتج ظواهر وهى أنه تنبت فيها بزور تحملها الرياح أو تأتى بها الامواج فتغطى الارض بنباتات كثيرة الى أن تصير الى جزيرة قابلة للسكنى وهذا أصل جملة من الجزائر وقد قسمت هذه الرتبة الى ثلاثة أقسام الاول أنواع الحيوانات الزهرية الشكل الثانى أنواع الحيوانات ذات القرنيات الورقية الثالث أنواع حيوانات الماء العذب

(القسم الاول الحيوانات الزهرية) انما سميت بذلك لشابهتها لبعض الازهار وجلدها سميك معتم وجسمها اسطوانى يلتصق أحد طرفيه بالارض والثانى مزين بعدة قرنيات دقيقة ويوجد الفم وسط التاج المكون من هذه القرنيات وهو يتصل بمجرى يوصل الى تجويف معدى متسع وهذه الحيوانات منها ما يكون جلده ذا قوام لحمى وذلك الاكتينيا المسمى بشقيق البحر وهو يعيش على الصخور ومزين بالالوان اللطيفة جدا ومنها ما يفرز أملاح الجير بمقدار عظيم وهذا الملح يرسب فى الجزء السفلى من الجسم ويكون مساكن خلوية تتكون عنها باجتماعها ببعضها كتل عظيمة تسمى بالشعب

(القسم الثانى حيوانات المرجان ذوات القرنيات الورقية) جسمها أكثر استطالة والقرون التى ينتهى الجسم بها عريضة ورقية عددها ثمانية وهذه الانواع تلتصق ببعضها وتكون مساكنا

صلبا يعرف أحدها بالمرجان الاحمر
* المرجان الاحمر * ومثله المساكن الصلبة الاخرى فقد تحقق أن هذه الازهار حيوانات تفرز الجوهر الجيرى المحمولة هى عليه * والمرجان يكتسب شجرة صغيرة مثبتة على الاجسام التى تحت البحار بواسطة نوع جذر تخرج منه الساق التى هى مستديرة غالبا وأحيانا تكون مضغوطة وتنقسم الى بعض فروع غير منتظمة وتكون هذه الفروع فى المرجان الحى مغطاة بقشرة مائلة للبياض لحمية ملساء لكنه يوجد على سطحها عدة خلايات بارزة تحتوى كل خلية منها على حيوان وهذه الحيوانات رخوة بيضاء بالكلية لها فم محاط بثمانية قرنيات تشبه وريقات تويج منتظمة منبسطة وهذه القرنيات مستطيلة مدببة والجوهر اللحمى لهذه الحيوانات تمر فيه عدة أوعية تتصل بالقناة الهضمية وجزؤه الباطن يفرز ملح الجير المخلوط بمادة حمراء تكون المحور الجيرى للمرجان * والمرجان كثير الوجود فى البحر المتوسط والبحر الاحمر مثبت على الصخور ويصاد بامرار قطع من خشب بكل منها شبكة فى قاع البحار يحذبها الصياد متى أحس أنها اشتبكت بالمرجان وهناك غواصون لا يشتغلون الا بالبحث عنه (القسم الثالث أنواع حيوانات الماء العذب) هذه الانواع ذات الاذرع وجسمها مخروطى دقيق نحو طرفه السفلى الملتصق وفمها موضوع فى الطرف المقابل للمتقدم محاط بقرنيات وهى حيوانات صغيرة جدا وتعيش فى المياه العذبة الراكدة
* الرتبة الرابعة أنواع الاسفنج * هى على هيئة كتل ذات منسوج متين اسفنجى ويختلف شكلها ولونها اختلافا عظيما ومتى كانت فى حالة الحياة أى ملتصقة بالصخور فى قاع البحار تكون مغطاة بطبقة مخاطية قيل انها متحيونة وشكل أنواع الاسفنج يختلف اختلافا كثيرا فمنها ما يكون عديم الذنب مستديرا بسيطا أو فصيا ومنها ما يكون ضيقا نحو قاعدته ومستعرضا نحو قمته على هيئة نعل الفرس وكثيرا ما تكون محفورة نحو مركزها على شكل قمع أو بودقة وأحيانا تكون ذنيبية مفرطحة أو ورقية أو متفرعة كشجرة وهذه الانواع تأتى خصوصا من شواطئ الشام وبلاد الاناضول وجزائر اليونان
* (الرتبة الخامسة الحيوانات النقيعية) * هذه الحيوانات الصغيرة للغاية تنمو فى جميع البحار وجميع البلاد والازمان اما فى باطن الاجسام الحية أو فى وسط الاجسام غير العضوية وكل مادة حيوانية أو كل سائل حيوانى حصل فيه تحليل تحصل منه حيوانات نقيعية بعد زمن يسير ويدخل تحت هذا القسم حيوانات مختلفة تنسب الى الرتب المتقدمة وبقية هذه الحيوانات بسيطة للغاية غالبا بحيث ان بعضها ليس الا نقطة حيوانية وتارة تكون عبارة عن جزئيات مستطيلة ويظهر أنها مجردة عن أعضاء الحواس الا حاسة اللمس التى محلها الجلد القابل للانكماش لهذه الحيوانات ومع ذلك يرى أن هذه الحيوانات المتحركة تسبح فى الماء بسرعة عظيمة غالبا وتتقارب وتفر من بعضها وبعض هذه الحيوانات كما فى البحار توجد فى التجاويف العضوية وفى الجسم الانسانى سواء كان فى الصحة أو المرض وتشاهد فى الجروح وفى المواد المخاطية المعوية * واذا انتقش ما قدمناه لك فى ذهنك وفهمت معناه

ودققت فيما حواه تبين لك وأي تبيان عظيم قدرة الحليم المنان وجزيل نعمه وجميل كرمه وأن ما تقدم لك سائه انما خلق لأجل منافعنا كما قال تعالى وسخر لكم ما في السموات وما في الارض واذا نظرت أيضا الى خلق السموات والارضين والاجرام السماوية مع النظر في تخليق الامهات والمولدات من الحيوانات والجمادات والنباتات وغيرها علمت أنك عاجز عن أداء حق الشكر الواجب عليك لله سبحانه وتعالى كما قال عليه الصلاة والسلام مخاطبا له عز وجل سبحانك لا نحصي ثناء عليك ومن وقف على الاصناف المذكورة في كتب التشريح عرف أن نسبة هذا القدر المعلوم المذكور الى غيره مما لم يذكر ولم يعلم قطرة في البحر المحيط بل لا يستطيع أحد أن يحصي كثرتها كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وكما قال جل ثناؤه وفوق كل ذي علم عليم فله الحمد والشكر العميم

(في بيان قوله تعالى واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس)

قوله تعالى والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس فيه مسائل

(المسئلة الاولى) قال الواحدي الفلك أصله من الدوران وكل مستدير فلك وفلك السماء اسم لأطواق سبعة تجري فيها النجوم وفلكت الجارية اذا استدار ثديها وفلك المغزل من هذا والسفينة سميت فلكا لانها تدور بالماء أسهل دوران قال والفلك واحد وجمع فاذا أريد به الواحد ذكر واذا أريد به الجمع أنث ومثاله قولهم ناقة هجان ونوق هجان ودرع دلاص ودروع دلاص قال سيبويه الفلك اذا أريد به الواحد فضمة الفاء فيه بمنزلة ضمة باء برد وخاء خرج واذا أريد به الجمع فضمة الفاء فيه بمنزلة ضمة الحاء من حمر والصاد من صفر فالضمتان وان اتفقتا في اللفظ فهما مختلفتان في المعنى

(المسئلة الثانية) قال الليث سمي البحر بحرا لاستبحاره وهو سعته وانبساطه ويقال استبحر فلان في العلم اذا اتسع فيه وتبحر فلان في المال وقال غيره سمي البحر بحرا لانه شق في الارض والبحر الشق ومنه البحيرة

(المسئلة الثالثة في تقسيم البحر) قد قسم البحر المحيط الى قسمين أحدهما الجنوبي الشرقي والثاني الغربي ثم قسم الأول الى المحيط الجنوبي والمحيط الشرقي والمحيط الهندي والثاني أعني المحيط الغربي الى المحيط الشمالي والمحيط الاطلنتيقي والمحيط الاثيوبي ولنذكر حدود كل من تلك الاقسام فنقول* المحيط الجنوبي المسمى أيضا بحر الجنوب محدود من الشمال من رأس بونيرنس ويمتد هذا المحيط الى القطب الجنوبي* وأما المحيط الشرقي المسمى أيضا بالبحر المعتدل والبحر الهادئ فمحدود من الجنوب الى رأس هرنة ومن المشرق والشمال بالجانب الشمالي لآسيا الى بغاز بهرنغ ومن الشمال الغربي والمغرب بالجانب الغربي والجزائر الاوقيانوسية تنسب لهذا المحيط الشرقي* وأما المحيط الهندي المسمى أيضا ببحر الهند فمحدود من الشمال بآسيا ومن الجنوب بالمحيط الجنوبي ومن الجزائر الاوقيانوسية وله امتدادات في الاراضي تسمى باسماء مختلفة تكون بتعاليه والخليج الفارسي والبحر الاحمر* وأما القسم الثاني البحر الكبير الغربي فمحدود من الجنوب بالمحيط الجنوبي ومن المغرب والشمال

بالامريقا

بالامريقا ومن المشرق باوروبا وأقسامه هى المحيط الشمالى والمحيط الاطلنتيقى والمحيط الانبوبى فالمحيط الشمالى المسمى بحر الشمال تلاطم أمواجه الجانب الشمالى لأوروبا وآسيا وامريقا وينفصل فى المحيط الاطلنتيقى بخط مأخوذ من عرض ستين درجة من لبرورو ويمرّ على رأس فرويل فى أغرونلنده ثم من هنالك على أبعد رأس فى الجنوب من مملكة نرويج وهذا البحر يحتوى على اغرونلنده * وأما المحيط الاطلنتيقى فمحدود من الشمال بحد المحيط الشمالى ومن المغرب بامريقا ومن المشرق باوروبا وافريقية ومن الجنوب بخط مأخوذ من الرأس الابيض وهو أبعد رأس فى المغرب من رؤس افريقية ويمرّ على أبعد طرف فى المشرق من امريقا وهو أرض نتال من برزيل وينسب لهذا البحر البحر المحيط المتوسط وحبوانانه وبحر بلطيق وبحر طرايب وجبو مكسيك وغير ذلك *وأما المحيط الانبوبى فمحدود من الشمال بحد المحيط الاطلنتيقى ومن الجنوب بحد المحيط الجنوبى ومن المشرق بافريقية الشمالية ومن المغرب بافريقية الجنوبية * وهذا المحيط هو الكتلة الكبيرة المائية التى تحيط بالبرور المتصلة والجزائر وتغطى أكثر من ثلثى سطح الكرة الارضية وتصعد اتها رطب الجو وتندبه فيتكاثف فيه سحاب ينقله الريح حتى يوصله لداخل الاراضى ليسقط فيها على هيئة نقط سائلة ترسب فتتكوّن منها المياه الجارية التى ترجع من مصاب الخلجان الى المحل الذى نشأت منه من جديد وهكذا فهذه دورة حقيقية نشأ منها الكائنات الموجودة المعمور بها الكون كما قال تعالى والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور *هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لان الهواء قد يسكن وقد يتحرك وفى حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ فهذه الاختلافات دليل على وجود مسخر مدبر ومؤثر مقتدر وفى الآية مسائل

(المسئلة الاولى) قال تعالى والله الذى أرسل بلفظ الماضى وقال فتثير سحابا بصيغة المستقبل وذلك لانه لما أسند فعل الارسال الى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى فى العدم لا زمانا ولا جزأ من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شئ فهو قدر الارسال فى الاوقات المعلومة الى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ولما أسند فعل الاثارة الى الريح وهو يؤلف فى زمان فقال تثير أى على هيئتها

(المسئلة الثانية) قال أرسل اسنادا للفعل الى الغائب وقال سقناه باسناد الفعل الى المتكلم وكذلك فى قوله فأحيينا وذلك لانه فى الاول عرف نفسه بفعل من الافعال وهو الارسال ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتنى سقت السحاب وأحييت الارض ففى الاول كان تعريفا بالفعل العجيب وقوله سقنا وأحيينا بصيغة الماضى يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله أرسل وبين قوله تثير

(المسئلة الثالثة) ما وجه التشبيه بقوله كذلك النشور نقول فيه وجوه (أحدها) أن الارض الميتة كما قبلت المياه اللائقة بها كذلك انتشرت الكرات الصغيرة من أسطحة البحار

للعو (وثانيها) كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع الماء بين أجزاء الارض (وثالثها) كما أنا نسوق الريح والسحاب الى البلد الميت نسوق المياه من باطن الارض الى البحار * فقد ظهر لك كيفية الدورة الحقيقية التي جعلها الله تنشأ منها الكائنات الموجودة المعمور بها السكون قال بعض الفلاسفة البحر المحيط هو منبع النوع البشري اذ في وسط هذا العنصر السائل تحت الحياة العضوية في المادة الغير المتحركة حي الجزء المادي الذي أراد الباري سبحانه احياءه واكتسب على توالي الزمان أحوالا وعوائد وتنوعات كثيرة في الشكل الذي نراه في الكائنات الآلية * وقال بعضهم فيه انه معمل عظيم السعة تحلل فيه الطبيعة وتركب بدون انقطاع جواهر كثيرة تتغير أحوالها وتتنوع أشكالها وأفعالها وهذه الآراء كلها فرضية غير ثابتة لم يرضها ولم يقل بها أحد والظاهر لنا أن البحر المحيط معد لتسهيل المواصلة بين القبائل ودوام العلاقة كما قال تعالى وترى الفلك فيه مواخر ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وترى الفلك فيه مواخر أي ماخرات تمخر البحر بالجريان أي تشقه وقوله ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يدل على ماذكرناه بين أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين ومافيهما على وجود الله ووحدانيته

(في قوله تعالى وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام)

وفيه مسائل *(المسئلة الاولى)* ما الفائدة في جعل الجواري خاصة له وله السموات ومافيها والارض وماعليها نقول هذا الكلام مع العوام فذكر مالا يغفل عنه من له أدنى عقل فضلا عن الفاضل الذكي فقال لاشك الفلك في البحر لايملكه في الحقيقة أحد اذ لا تصرف لأحد في هذا الفلك وانما كلهم منتظرون رحمة الله تعالى معترفون بأن أموالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله تعالى وهم في ذلك يقولون لك الفلك ولك الملك وينسبون البحر والفلك اليه ثم اذا خرجوا ونظروا الى بيوتهم المبنية بالحجارة والكلس وخفي عليهم وجوه الهلاك يدعون مالك الفلك وينسون من كانوا ينسبون البحر والفلك اليه واليه الاشارة بقوله تعالى فاذا ركبوا في الفلك الآية

(المسئلة الثانية) الجواري جمع جارية وهي اسم للسفينة أو صفة فان كانت اسما لزم الاشتراك والاصل عدمه وان كانت صفة فالاصل أن تكون الصفة جارية على الموصوف ولم يذكر الموصوف هنا فنقول الظاهر أن تكون صفة للتي تجري ونقل عن الميداني أن الجارية السفينة التي تجري لما أنها موضوعة للجري وسميت المملوكة جارية لان الحرة تراد للسكن والازدواج والمملوكة لتجري في الحوائج لكنها غلبت في السفينة لانها في أكثر أحوالها تجري ودل العقل على ماذكرنا من أن السفينة هي التي تجري غير أنها غلبت بسبب الاشتقاق على السفينة الجارية ثم صار يطلق عليها ذلك وان لم تجر حتى يقال للسفينة الساكنة أو المشدودة على ساحل البحر جارية لما أنها تجري وللمملوكة الجالسة جارية فللغلبة ترك الموصوف وأقيمت الصفة مقامه فقوله تعالى وله الجواري أي السفن الجاريات على أن السفينة أيضا فعيلة من السفن وهو النحت وهي فعيلة بمعنى فاعلة عند أبي دريد أي

تسفن الماء أو فعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى منحوتة فالجارية والسفينة جاريتان على الفلك وفيه لطيفة لفظية وهي أن الله تعالى لما أمر نوحا عليه السلام باتخاذ السفينة قال واصنع الفلك بأعيننا ففي أول الأمر قال لها الفلك لانها بعد لم تكن جرت ثم سماها بعد ما عملها سفينة كما قال فأنجيناه وأصحاب السفينة وسماها جارية كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية وقد عرفنا أمر الفلك وجريها وصارت كالمسماة بها فالفلك قبل الكل ثم السفينة ثم الجارية

(المسئلة الثالثة) ما معنى المنشآت نقول فيه وجهان (أحدهما) المرفوعات من نشأت السحابة اذا ارتفعت وأنشأه الله اذا رفعه وحينئذ ما هي بنفسها مرتفعة في البحر واما مرفوعات الشراع (وثانيهما) المحدثات الموجودات من أنشأ الله المخلوق أي خلقه فان قيل الوجه الثاني بعيد لان قوله في البحر كالاعلام متعلق بالمنشآت فكأنه قال وله الجواري التي خلقت في البحر كالاعلام وذلك غير جيد والدليل على صحة ما ذكرنا أنك تقول الرجل الجريء في الحرب كالأسد فيكون حسنا ولو قلت الرجل العالم بدل الجريء في الحرب كالأسد لا يكون كذلك فنقول اذا تأملت فيما ذكرنا من كون الجارية صفة أقيمت مقام الموصوف كان الانشاء بمعنى الخلق لا ينافي قوله في البحر كالاعلام لان التقدير حينئذ له السفن الجارية في البحر كالاعلام فيكون أكثر بيانا للقدرة كأنه قال له السفن التي تجري في البحر كالاعلام أي كأنها الجبال والجبال لا تجري الا بقدرة الله تعالى فالاعلام جمع العلم الذي هو الجبل وأما الشراع المرفوع كالعلم الذي هو معروف فلا عجب فيه وليس العجب فيه كالعجب في جري الجبل في الماء وتكون المنشآت معترضة كما أنك تقول الرجل الحسن الجالس كالقمر فيكون متعلق قولك كالقمر الحسن لا الجالس فتكون منشآت بالقدرة اذا السفن كالجبال والجبال لا تجري الا بقدرة الله تعالى •

(المسئلة الرابعة) قرئ المنشئات بكسر الشين ويحتمل حينئذ أن يكون قوله كالاعلام يقوم مقام الجملة والجواري معرفة ولا توصف المعارف بالجمل فلا تقول الرجل كالأسد جاءني ولا الرجل هو أسد جاءني وتقول رجل كالاسد جاءني ورجل هو أسد جاءني فلا تحتمل قراءة الفتح الا على أن يكون حالا وهو على وجهين (أحدهما) أن تجعل الكاف اسما فيكون كأنه قال الجواري المنشآت شبه الاعلام (ثانيهما) يقدر حالا هذا شبهه كأنه يقول كالاعلام ويدل عليه قوله في موج كالجبال

(المسئلة الخامسة) في جمع الجواري وتوحيد البحر وجمع الاعلام فائدة عظيمة وهي أن ذلك اشارة الى عظمة البحر ولو قال في البحار لكانت كل جارية في بحر فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجواري التي هي كالجبال وأما اذا كان البحر واحدا وفيه الجواري التي هي كالجبال فيكون لذلك بحرا عظيما عميقا وساحله بعيدا فيكون الانجاء بقدرة كاملة

(في قوله تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره)

وذلك لان السفر اما سفر البحر أو سفر البر أما سفر البحر فالحامل هو السفينة وأما سفر البر

قوله يقدر حالا الخ كذا بالاصل ولعل الاظهر

فالحامل هو الانعام وههنا سؤالات (الاول) لم لم يقل على ظهورها أجابوا عنه من وجوه (الاول) قال أبو عبيدة التذكير لقوله ماوالتقدير ماتركبونه (الثانى) قال الفراء أضاف الظهور الى واحد فيه معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند ولذلك ذكر وجمع الظهور (الثالث) أن هذا التأنيث ليس تأنيثا حقيقيا فجاز أن يختلف اللفظ فيه كما يقال عندى من النساء من يوافقك (الثانى) يقال ركبوا الانعام وركبوا فى الفلك وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون والجواب غلب المتعدى بغير واسطة لقوته على المتعدى بواسطة * ثم قال تعالى ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ومعنى ذكر نعمة الله أن يذكروها فى قلوبهم وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الانسان من تصريف هذه السفينة الى أى جانب شاء وأراد فاذا تذكر أن خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الانسان ولتحريكاته ليس عن ذلك واتماه ومن تدبير الحكيم العليم عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التى لا نهاية لها * ثم قال تعالى وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كناله مقرنين (اعلم) أنه تعالى عين ذكر امعينا لركوب السفينة وهو قوله بسم الله مجراها ومرساها (واعلم) أن ركوب الفلك فى خطر الهلاك فانه كثيرا ما تنكسر السفينة ويهلك الانسان وراكب الدابة أيضا كذلك لان الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب واذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة توجب تعريض النفس للهلاك فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت وأن يقطع أنه هالك لا محالة وأنه منقلب الى الله تعالى وغير منفلت من قضائه وقدره حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان وطن نفسه على الموت

(فى قوله تعالى أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر)

(اعلم) أنه تعالى نبه فى هذه الآية على أمرين (الاول) أن الهادى فى الحقيقة ونفس الأمر هو الفاعل المختار وحده (الثانى) قوله أمن يهديكم والمراد يهديكم بالعلامات فى الارض وبالنجوم فى السماء اذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر وفيه بحثان

(البحث الاول) العلامات الارضية لما كانت الارض مستديرا كرويا لا يمكن رسمها واحضار صورتها على وجه محرر الا بكرة ولكن بعدة طرق توصل الى احضار سطحها على قماش أو ورق مع حفظ التناسب بين المسافات على وجه تقريبى * وبيان ذلك أن الخرطات هى صور مسطوحة على شكل الكرة الارضية أو بعض أجزائها لتدل على وضع البلاد والاقاليم والجبال * وبيان الخرطات هى أن تسحب خطا غير محدود على الورقة المقصود استعمالها وتعتبر هذا الخط قاعدة وترسم عليه نقطة فى منتصفه ثم تأخذ فتحة ببيكار مساوية لنصف طول الدائر الذى تريد عمله وترسم علامة فى يسار النقطة المتوسطة وأخرى فى اليمين منها وبعد ذلك تضع طرف البيكار على احدى النقطتين المتطرفتين وتأخذ فتحة بيكار مساوية تقريبا الثلاثة أرباع القاعدة وترسم قوس دائرة ثم تنقل طرف البيكار على النقطة الاخرى المتطرفة وترسم

قوس دائرة أخرى يقاطع الاولى فى النقطة المتوسطة وبهذا التقاطع ترسم خطا يفوت فيه وبمنتصف النقطة يحصل العمود وهذا العمود يصير خط نصف نهار الخرطة الاصلى ولاجل تحقيق أن هذا الخط هو عمود صحيح على القاعدة ارسم بفتحات بيكار مختلفة قوسين أو ثلاثة قسى يتقاطعان اثنين اثنين كالاولى فخط العمود يجب أن يجوز بكل نقطة تقاطع هذه الاقواس وبعد امتحان العمود تأخذ فتحة بيكار مساوية للارتفاع الذى تريد جعله الدائر وترسم أقواس دائر من كل ثلاث نقط القاعدة ثم تنقل البيكار الى النقطة المتوسطة وتأخذ فتحة بيكار مساوية للنقطة المتوسطة الغربية والنقطة المتوسطة الشرقية وترسم أيضا على اليمين وعلى اليسار أقواسا تقطع الاولى على جانبى الخط العمودى وبنقط التقاطع ونقطتى الشمال والجنوب ترسم خطوطا مستقيمة وهى تصنع الدائر المطلوب

❁ البحث الثانى فى رسم المقاييس ❁ المقاييس تستعمل لرسم المقاييس الموجودة على الارض على الورق والمقاييس تختلف باختلاف القدر الذى يراد اعطاؤه للخرطة وباختلاف اتساع الارض المرسومة على الخرطة فاذا قيل لك ارسم مقياسا من مائة ألف فمعناه ارسم على الورقة مترا أو ذراعا يساوى فى الارض مائة ألف متر أو ذراع ولما كان المقياس الذى طوله متر كبيرا جدا بالنسبة للاستعمال المعتاد اصطلحوا على أن يرسموا أصغر منه وأن يأخذوا قاعدة ذلك عشر المتر المسمى الدسيمتر و ينقسم الى سنتيمتر أى جزء من مائة جزء من المتر أو عشر الدسيمتر والى ميليمتر أى جزء من مائة جزء من المتر أو عشر السنتيمتر ولاجل معرفة نسبة هذه الانواع نقول حيث ان المتر يساوى مائة ألف متر فالدسيمتر أى عشر المتر يساوى عشرة آلاف متر فاذا أخذنا طول دسيمتر يعنى عشر المتر وجعلناه على الورقة فقيمته عشرة آلاف متر فاذا قسمناه هذا الطول عشرة أجزاء تحصل لنا قيمة ألف فبعد القسمة الى عشرة أجزاء تأخذ جزأ منها وتنقله فى يسار القسم الاول وتقسمه أيضا الى عشرة أجزاء تجد الجزء منها يساوى مائة متر وهذا القسم الاخير يسمى عقب المقياس تشبيها له بعقب الرجل ولا يحسب فى العدد والنمرة الا ليدل على الاعشار

❁ فى بيان قوله تعالى وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ❁

(اعلم) أن فى المعصرات قولين (الاول) وهو احدى الروايتين عن ابن عباس وقول مجاهد ومقاتل والكلبى وقتادة أنها الرياح التى تثير السحاب ودليله قوله تعالى الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا ❁ فان قيل على هذا التأويل كان ينبغى أن يقال وأنزلنا بالمعصرات ❁ قلنا الجواب من وجهين (الاول) أن المطر انما ينزل من السحاب والسحاب انما يثيره الرياح فصح أن يقال هذا المطر انما حصل من تلك الرياح كما يقال هذا من فلان أى من جهته وسببه (الثانى) أن من ههنا بمعنى الباء والتقدير وأنزلنا بالمعصرات أى بالرياح المثيرة للسحاب ويروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعكرمة أنهم قرؤا وأنزلنا بالمعصرات وطعن الازهرى فى هذا القول وقال الاعاصير من الرياح ليست من رياح المطر وقد وصف الله تعالى المعصرات بالماء الثجاج وجوابه أن الاعصار ليست من رياح المطر فلم لا يجوز أن تكون

المعصرات من رياح المطر * القول الثانى وهو الرواية الثانية عن ابن عباس واختيار أبى العالية والربيع والضحاك أنها السحاب وذكروا فى تسميته بالمعصرات وجوها (أحدها) قال المؤرج المعصرات السحاب بلغة قريش (وثانيها) قال المازنى يجوز أن تكون المعصرات هى السحائب ذوات الاعاصير فان السحائب اذا عصرتها الاعاصير لابد وأن ينزل المطر منها (وثالثها) أن المعصرات هى السحائب التى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كقولك أجذ الزرع اذا حان له أن يجذ ومنه أعصرت الجارية اذا دنت أن تحيض * وأما الثجاج فاعلم أن الثج شدة الانصباب يقال مطر ثجاج ودم ثجاج أى شديد الانصباب (واعلم) أن الثج قد يكون لازما وهو بمعنى الانصباب كما ذكرنا وقد يكون متعديا بمعنى الصب وفى الحديث أفضل الحج العج والثج أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى وكان ابن عباس مثجا أى يثج الكلام ثجا فى خطبته وقد فسروا الثجاج فى هذه الآية على وجهين قال الكلبى ومقاتل وقتادة الثجاج ههنا المتدفق المنصب وقال الزجاج معناه الصباب كأنه يثج نفسه أى يصب وبالجملة فالمراد تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به كقوله تعالى ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار (قوله ألم تر) أى بعين عقلك والمراد التنبيه والازجاء السوق قليلا قليلا ومنه البضاعة المزجاة التى يزجيها كل أحد وازجاء السير فى الابل الرفق بها حتى تسير شيأ فشيأ (ثم يؤلف بينه) قال الفراء بين لا يصلح الا مضافا الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب واحد فى اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى وينشئ السحاب الثقال والتأليف ضم شئ الى شئ أى يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابا واحدا ثم يجعله ركاما أى مجتمعا والركم جعل شيأ فوق شئ حتى يجعله مركوما والودق المطر قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن أبى مسلم الاصفهانى فترى الودق أى الماء يخرج من خلاله أى من شقوقه ومخارقه جمع خلل كجبال فى جمع جبل وقرئ من خلله (واعلم) أن قوله يزجى سحابا يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيأ بعد شئ ويحتمل أن يغيره أى يصيره ويؤلفه من سائر الأجسام لا فى حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثا ثم انه سبحانه يؤلف بين أجزائه وعلى الثانى يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التى باعتبارها صارت تلك الاجسام سحابا وفى قوله يؤلف بينه دلالة على وجوده متقدما متفرقا اذ التأليف لا يصح الا بين موجودين ثم انه تعالى يجعله ركاما وذلك بتركيب بعضها على بعض وهذا انما لابد منه لان السحاب انما هو الكثير من الماء (واعلم) أن تكون السحاب والضباب والطل والصقيع والثلج انما يكون من تكاثف البخار * وبيان ذلك أن جميع الكائنات يتصعد منها مواد بخارية وهذا التبخر يختلف باختلاف المحال والافراد وحالة تلك الافراد والاجزاء المركبة لها متى كانت تلك الاجزاء غير تامة التجانس ومن ذلك التبخر يتكون الجو البخارى المحسوس الذى يحيط بتلك الكائنات فى جميع أزمنة وجودها ويمكن أن يعتبر التبخر والتصعد فى هذه الحالة حادثا

واحدا بزيد ويسرع بزيادة الحرارة وسعة الاسطحة وهو قوى فى خط الاستواء ويأخذ فى التناقص كلما قرب الى المناطق القطبية وفى هذه المناطق الباردة يتصعد من الجليد والثلج أبخرة كما تتصعد من مياه الاقطار التى بين المدارين والبخار المائى أخف من الهواء جدا فاذا اختلط معه صيره أخف والآثار التى يتنوع منها الجو ثلاثة مائية وضوئية ونارية (الاول) الكائنات الجوية المائية وهى قسمان (أحدهما) ما يبقى معلقا فى الجو كالضباب والسحاب (وثانيهما) ما ينزل على الارض كالندى والمطر والثلج والبرد وكلاهما ناشئة من المياه التى تتصعد على الدوام من الاجسام الرطبة المماسة للهواء فتتحول الى بخار يصير مدركا بالبصر متى تكاثف بالبرد أو بغيره وهذا البخار يولد ترويحا على الابدان ورطوبة مخصوصة يحس بها فى الغابات والمغارات والمطامير التى فى باطن الارض بل فى مسا كننا أيضا * الاول الضباب اذا كان مقدار البخار الذى فى الهواء متناسبا مع قوته على حل المقدار اللائق به منه ومسكه له محلولا فيه بقى الهواء شفافا فاذا زاد مقداره عما تقتضيه سعته صار ذلك البخار محسوسا بالبصر معلقا فى الجو ويكون ذلك هو المسمى بالضباب وهو مؤلف من أكر مائية صغيرة جدا ثم هو اما منخفض أو مرتفع ويسمى الاول صاعدا والثانى نازلا فالاول سحاب ضبابى يزحف أحيانا على سطح الارض وتارة يظهر كأنه غير متحرك فيشاهد بكثرة فى الخريف والشتاء والثانى يرتفع من المحال الرطبة وأسطحة المياه وأعماق الاودية ويصعد فى الهواء الى أعلى كلما سخن الجو من الشمس * الثانى السحاب هو كناية عن أبخرة أو تصعدات مائية متكاثفة بسبب البرد وانها تنبسط وتنقبض وتقرب وتبعد على حسب الاسباب المقتضية لذلك التى أقواها الحرارة والتأثرات الجوية وشكل الغمام يختلف باختلاف الفصول والشهور وأزمنة القمر وساعات اليوم وخصوصا باختلاف العروض ومما له فعل عظيم كذلك على تشكله سعة السهول وحرارتها والاشجار الكبيرة التى توجد فيها ومجاورة الجبال والبحار وأما اتجاهه وسرعة سيره فهما ناشئان من اتجاه الرياح وسرعتها ومن مجامع الجبال وسلاسلها التى يظهر أنها أحيانا تجذبها وأحيانا تطردها وتدفعها واذا أردت أن تعرف السحاب معرفة جيدة فشاهده على مهابط الجبال وارتفاعه من أعماق الاودية وكذلك يحتاج لمشاهدته أيضا على رأس جبل شامخ محاط به وفى جزيرة منعزلة فى وسط المحيط فان فى هذه الاماكن يمكن أن تشاهد السحب فى جميع أزمنة تكوينها وعندما يتم تأليفها تشاهد كأنها أمواج فى بحر مضطرب مغطى بالزبد والاسباب التى تحدث تغيرات فى شكل الغمام لها فعل أيضا على ارتفاعه وعلوه فى الجو ويختلف هذا الارتفاع لا الى نهاية فان من السحاب ما يزحف حوالينا ويحيط بنا ومنه ما يكون مرتفعا * هذا وكثيرا ما يشاهد فى بعض البلاد العالية جدا عن سطح البحر غمامة صغيرة مسودة أو مبيضة يظهر كأنها تدفع الى ذلك الارتفاع بسبب مخصوص فاذا بطل تأثير ذلك السبب اتجهت الغمامة جهة الارض واتسعت فى رأى العين فتشاهد السماء كأنها مغطاة ببرقع معتم مظلم يتسلط عليه البرق فيشققه من جميع الجهات فجئة تمزقه الصاعقة وتتلفه فى لحظات قليلة ثم بعد ذلك بقليل تتشتت تلك الغمامة أو يرجع لها شكلها

الاصلي فتصعد ببطء الى موقفها الاوّل وهذا الغمام يصل اليه بواسطة التشعع كثير من الحرارة ومن التراب والموادّ الكائنة على ظهر الارض

(الثالث الندى والطل) من المشاهدات أن سطح الارض وبعض الصخور وأوراق النباتات والازهار ومعظم ما يوجد في البلاد المعتدلة وفي العروض الحارة تغطى في الصيف قرب طلوع الشمس بقطرات صغيرة من ماء وذلك يحصل من تكاثف الاجزاء المائية التي تصعدت مدّة الليل فاذا نزلت درجة الحرارة الى غاية انخفاضها صارت سائلة والغالب حصول ذلك قبل طلوع الشمس* وأما ما نسميه هنا بالطل فهو أجزاء مائية تتصعد مدّة حرارة النهار وترسب بعد غروب الشمس بعض لحظات على الاجسام بنفس السبب المذكور في الندا فهو ندا يتجلد كلما سقط على الاجسام واذا علق بالاجسام أو اذا علق بالاشجار المجردة من خضرتها كان على هيئة عناقيد أو ثمار بخ بلورية أو قضبان مثل قضبان الفضة فاذا طلعت الشمس ذابت تلك العناقيد والقضبان تدريجا

(الرابع المطر) هو أثر من الآثار العلوية يقع تأثيره على معظم الارض ويرغب فيه أو يرهب منه على حسب الاسباب الكثيرة المقتضية لذلك وأغلب الاسباب المكوّنة للمطر هي تغير درجة الحرارة وتغير التأثيرات الجوية واتجاه الرياح وقوّتها وغير ذلك منفردة كانت أو مجتمعة فيكفي لاحداثه سبب واحد منها ومن النادر سقوطه أياما كثيرة متتابعة بدون انقطاع وانما الغالب نزوله سحا أي وابلا يختلف في المدّة والكثرة أو رشا تختلف قوّته وينشأ ذلك الاختلاف من تغاير العروض والفصول والاقطار وشكل الارض وطبيعتها وغير ذلك والغالب أن يسبق الرش والوبل في الازمنة الممطرة أو الهاجرة رياح عاصفة أو هبات تختلف شدّتها ويمتدّ سير هذا الريح الى بعد مّا وتتوزع مياه الامطار بعد سقوطها الى ثلاثة أجزاء الاوّل ما يتصعد في الجوّ بالتبخير الثاني ما يسيل على سطح الارض فيكون مدد السيول والقنوات الجارية والنهيرات والانهار الثالث ما يرشح في باطن الارض ويتبع في سيره المهابط والمنخفضات حتى يجد محالا لا يمكنه النفوذ منها فيقف فتتكوّن منه المياه التي في باطن الارض والعيون التي تنبع وتخرج على سطحها* وهناك بلاد أمطارها دورية تبتدئ فيها وتنقطع في أزمنة معلومة ويوجد في الاقطار التي بين المدارين كثير من ذلك وعدم تغير تلك الازمنة فيها تابع للحركة التي تكاد أن لا تتغير أعني حركة البعد والقرب من الشمس ثم من البلاد ما يكثر وقوع المطر فيها ومنها ما يقل ومنها ما يكون فيها نادرا عارضا ومنها ما لا يقع فيها أصلا هذا وقد يسقط بعض الاحيان مطر ملوّن بالحمرة أو بعض أحجار أو غبار وكثيرا ما ينتشر من بعض الصحاري جراد كالمطر ويصل أحيانا الى شواطئ البحر المتوسط والغالب أن الجدب والطاعون يصحبان هذه المصيبة المتلفة التي يسميها الناس بمطر الجراد

(الخامس الثلج) اذا كانت زرقة السماء مبرقعة بالغمام مدّة تسلطن الشتاء ولم يقدر الهواء على مسك الاكر المائية التي يتألف منها السحاب فانها تصير سائلة وتسقط أما اذا استولى البرد عليها وقهرها فانها تمسك في الجوّ وتتكاثف فتكون على هيئة ندف مختلفة

الجم سيما اذا كان الجو محملا لرطوبة كثيرة ومضطربا بالرياح

(السادس البرد) هو من الآثار العلوية التي تقع على الارض مع أن خطره كثير في البلاد المعرضة لاتلافه ويكون دائما على هيئة قطع جليدية شبيهة بالزلط و بحجارة مستديرة عملت بصناعة الحك وهو وان كان في الغالب مركبا من طبقات متحدة المركز الا أنه يندر جدا أن يكون كروي الشكل منتظما وقد يظهر أنه مؤلف من جملة طبقات مائية وقطره يختلف من نصف خط الى جملة أصابع ووجوده في الشتاء أندر منه في الصيف وكذا في الربيع من ابتداء الخريف وقلما تعرف آثاره المهولة في المناطق القطبية والاقطار الاستوائية وما قارب هذه العروض في السهول المرتفعة قليلا عن محاذاة المحيط والغالب كون البرد مخلوطا بالمطر ويندر كونه بادئا بدونه وفي هذه الحالة يكون أخطر ولا يمكن معرفة حصول البرد قبل وقوعه حتى يحترس منه وخطره هو اتلافه محصولات الارض بسرعة كسرعة النار فلا يترك وراءه الا الدمار والخراب *وأما قوله تعالى يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ففيه مسائل

(المسئلة الاولى) قرئ يكاد سنا برقه على الادغام وقرئ برقه جمع برقة وهي المقدار من البرق وبرقه بضمتين للاتباع كما قيل في جمع فعلة فعلات كظلمات وسناء برقه على المد المقصور بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سني للمرتفع ويذهب بالابصار على زيادة الباء كقوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة عن أبي جعفر المدني

(المسئلة الثانية) وجه الاستدلال بقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار أن البرق الذي يكون صفته ذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضي ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة حكيم وانه تعالى خلق ذلك البرق عنصرا شعاعيا ناريا ساريا في جميع العناصر والمركبات الآلية وغير الآلية

(المسئلة الثالثة) قوله تعالى سنا برقه أي الآثار العلوية الضوئية وهذه الآثار تنشأ من الضوء الذي ترسله الشمس اليناو الذي تعكسه الاجرام بعد أن تقبله من الشمس والأشعة الضوئية قابلة لأن يحصل في أسطحها الجانبية نوع تغير اذا انعكست أو انكسرت بكيفية مخصوصة وسمي ذلك بتقطب الضوء وألوان الاشعة كثيرة تنتشر وتختلط ببعضها وقد ميز بعض منها واعتبر ذلك المميز أنه هو الالوان الأصلية لها وتلك الألوان هي الأحمر والبرتقاني والاصفر والاخضر والازرق والنيلي والبنفسجي واذا انضمت جميع الأشعة وانعكست على البصر تولد ما يسمى باللون الابيض واذا فقدت كلها حصل ما يسمى باللون الاسود واذا تشرب جزء منها وانعكس جزء تولدت من تلك الالوان الكثيرة ألوان وفيه جملة أمور وهي الفجر والشفق وضوء الشروق وقوس قزح والسراب والهالات والشموس والاقمار والصاعقة والرعد والفجر الشمالي واضياء المنطقي والنيران الطيارة والشهب الساقطة والشعلة المضيئة والاكر النارية والحجارة الساقطة من الجو وهذه الامور موضحة في كتب الفلاسفة

---

*في قوله تعالى الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا

من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شئ قدير

بين دلائل الرياح على التفصيل الاول وفى ارسالها قدرة وحكمة أما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذى يشقه البق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار * وأما الحكمة ففى نفس الهبوب وفيما يفضى اليه من اثارة السحب ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعا ثم المطر يخرج منه والماء فى الهواء أعجب علامة للقدرة وما يفضى اليه من انبات الزرع وادرار الضرع حكمة بالغة ثم انه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة * وقوله تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم هو تأكيد كما فى قوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر والاولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله أى من قبل ارسال الرياح وذلك لانه بعد الارسال يعرف الخبير أن الريح هل فيها مطر أو ليس فقبل المطر اذا هبت الريح لا يكون فلما قال من قبل أن ينزل عليهم ولم يقل انهم كانوا مبلسين لأن من قبله قد يكون راجيا غالبا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح قال من قبله أى من قبل ما ذكرنا من ارسال الرياح وبسط السحاب ثم لما فصل قال فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل فان الانسان اذا قال ان الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله انه معطيك لان الثانى يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفا بالعطاء والاول يفيد أنه سيتصف ويتبين هذا بقوله انك ميت فانه آكد من قوله انك تموت * وهو على كل شئ قدير تأكيد لما يفيد الاعتراف * اعتبر السكون مكونا من طبقات رقيقة موضوعة فوق بعضها تتناقص كثافتها كلما بعدت عن سطح البحر حتى تتخلخل خلخلة يعسر معرفتها ويأخذ هذا التخلخل فى الزيادة حتى يصل الى الحمل الذى تنتهى اليه قوة الجذب أى جذب الارض وكلما كانت الموازنة بينها أكمل كان الجو أسكن وأهدأ فاذا انقطعت الموازنة بأى سبب كان اضطربت تلك الكتلة وتحركت وابتدأ الاستشعار بالريح وأغلب الاسباب المزيلة للموازنة هى تغير الحرارة ومد البحر وجزره والتيارات المائية القوية ورطوبة الهواء وفعل القمر والشمس ونقول الحاقا لرطوبة الهواء انه اذا تكاثفت الابخرة المائية الممسوكة فى الجو وتكون منها الغمام حصل فى كثافة الهواء تغير فجائى ويظهر أن هذا هو السبب الاكثر احداثا للرياح الغير المنتظمة * ثم ان الرياح أفقية كانت أو عمودية أو متقاطرة تتجه بجميع ضروب الاتجاه فتتقاطع مع بعضها أو تختلط أو يمر بعضها فوق بعض مع سرعة متشابهة أو مخالفة بدون أن تختلط وقد تدور على نفسها وقد لا يكون لها اتجاه معين وانما الغالب فى حركات الجو أن تكون موازنة لسطح الارض هذا وقد ذكر فيما سبق أن حركات الجو تتبع كل اتجاه من ضروب الاتجاه وأن مدة تلك الحركات تختلف بجميع أنواع الاختلافات كاتجاهاتها ولذلك تنقسم الرياح ثلاثة أنواع (الاول) الرياح الدائمة أعنى التى فعلها دائم واتجاهها يكاد أن لا يختلف أصلا (الثانى)

الرياح الدورية أى التى تبقى ستة أشهر وهى التى تهب من مهب واحد فى السماء جملة شهور متتابعة من السنة ثم فى الاشهر الباقية تهب من محل مقابل للاول (الثالث) الرياح المختلفة التى ليس لها اتجاه مخصوص ولا مدة معينة بل كثيرا ما نشاهدها جملة مجتمعة مع بعضها فى آن واحد

﴿فى قوله تعالى ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم﴾

لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين أن تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بل لو أصاب زرعهم ريح مصفرة لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم الى الحال لا الى المآل وفى الآية مسائل

(المسئلة الاولى) قال تعالى فى الآية الاولى يرسل الرياح على طريقة الاخبار عن الارسال وقال ههنا ولئن أرسلنا ريحا الا على طريقة الاخبار عن الارسال لان الرياح من رحمته وهى متواترة والريح من عذابه وهو تعالى رؤف بالعباد يمسكها ولذلك نرى الرياح النافعة تهب فى الليالى والايام فى البرارى والآكام وريح السموم لا تهب الا فى بعض الازمنة وفى بعض الامكنة

(المسئلة الثانية) سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه (أحدها) أن النافعة كثيرة الانواع كثيرة الافراد فجمعها فان كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارة فى أعوام غالبا (وثانيها) أن النافعة لا تكون الا رياحا فان ما يهب مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجرى السفن وأما الضارة فربما تقتل فى نفحة واحدة كريح السموم (وثالثها) أن الرياح الرديئة المضرة تتكون من اختلاف الانواع التى تحصل فى عناصر الجو والابخرة التى تتصعد من بعض أماكن من الكرة وهى تحصل غالبا من اختلاف أحوال الكرة دفعة واحدة أو من صعود أبخرة فى بقعة كما يحصل ذلك عند طوفان الماء أو من الآجام والبطاح أو من محل واسع فيه جواهر نباتية تحللت وفسدت أو من الضباب المتحمل للاجسام المنتنة المتصاعدة من بعض الامكنة هذا واعلم أنه ليس للضباب رائحة مخصوصة به ولا يتحد مع أجزاء أخر ذوات رائحة والصاعد منه يرسب بسهولة على جميع ما يمر عليه من الهواء ولذلك يمكن التحرز بنحو الغابات والاشجار والابنية وبنحو خرقة خفيفة من تأثيره الذى هو مضر غالبا ثم ان ذلك الصاعد بسبب كونه شبيها بتأثيره بمادة كثيفة تهبط بسكون أو ترسب رائقة بما يحصل لها بمرورها بين أوراق الاشجار وفروعها ونفوذها ومرورها بما يصيبها أو بكثرة الانعكاسات التى تتأثر بها (واعلم) أيضا أن خطر الضباب بالليل أكثر منه بالنهار وعند طلوع الشمس وغروبها أكثر منه فى بقية اليوم وهو مهلك للشخص قتال والحرارة الشديدة تمنع ضرره ما لم يكن الشخص متعرضا لتأثيره بأن كان فى محل صعدت منه تلك الابخرة (ورابعها) أنه يوجد فى الهواء كمية كثيرة من غبار دقيق يظهر أنه سابح فى الهواء ولا يمكن مشاهدته وهو كما يسقط فى المدن يسقط فى القرى والخلاء وفى جميع العروض وداخل

قوله ثم ان ذلك الصاعد الخ كذا بالاصل والمعنى غير ظاهر اه

الاراضى المتصلة كوسط البحور أيضا وفى الزمن اليابس كالزمن الرطب ومثل هذا الغبار ما يحصل من تصعدات بقعة من الارض تجعل الهواء مصفرا مشتملا على جواهر سمية ماقابل نباتا أو حيوانا الا قتله غالبا وهذا تسميه العرب ريح السموم وقد يحصل مثل هذا الغبار من بعض أبخرة تصعد من بعض بقاع الارض فتجعل الهواء مصفرا سميا كما قلنا وهو اذا قابل نباتا أو حيوانا قتله غالبا وهذا هو المسمى عند العرب بريح السموم وهو المشار اليه بقوله تعالى ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون

(وخامسها التلاقيح) وهى التى تنشأ عن التيارات الهوائية الأفقية التى تتسلطن دفعة واحدة فى متسع عظيم من الاراضى فتصير سريعة قوية بل ربما كانت ملتفة اذا انحصرت فى مسافة ضيقة جدا بضغط طبقة عليا من الهواء عليها تعارض حركاتها فتصير حركتها سريعة بالقسر وهذه الرياح الشديدة لا ينشأ عنها فى الغالب الا أمطار خفيفة وتسكن حيثما تبتدئ الطبقة العليا فى أن تطيع حركتها

(العواصف) هى حوادث موضعية سريعة الزوال مجلسها يكون فى غمامة كبيرة أو جملة سحب منضمة مع بعضها ولا يستشعر بها فى محل الا اذا وصلت اليه تلك الغمامة عن التى هى مجلس لها وتقطع حوادثها متى مضت أو خلت تلك الغمامة عما يحصلها أمامتى بقيت حافظة للقوة المولدة لتلك الحوادث فان نتائجها الاترال تظهر على التعاقب فى المحال المختلفة التى تمر عليها وهذه الرياح تحصل فجأة وفعلها يكون مقصورا على منطقة ضيقة لكنها طويلة جدا وربما تتابعت عواصف كثيرة يتلو بعضها بعضا ورياحها تكون منحرفة وتخرج على هيئة زوابع سريعة الزوال وتكون دائما مصحوبة بالرعد واذا كانت العواصف آتية من البحر رسب على سطح الارض من المطر الذى يسقط معها طبقة خفيفة من الاملاح

(العواصف) ريح يتسلط على البلاد الموضوعة بين المدارين وبجوارهما ولا تختلف عن العواصف ولا عن التلاقيح الا فى شدتها وعنفوانها وينشأ هذا الحادث المهول من حركة الهواء وسرعته ويصحبه غالبا مطر غزير وبرد ورعد وعواصف تنقذف من السماء جهة الارض ومن الارض جهة السماء وكل ذلك بانضمامه لتلك الريح الشديدة يساعد على اتلاف ما يجده فى ممره فيسقط الابنية المتينة ويقلع الاشجار المتينة الكبيرة من أصولها ويتلف جواهر الحصاد ويشتت بقاياها الى محال بعيدة والاتلاف الذى يحصل من هذا الحادث فى البحر مهول أيضا وبالجملة فالظاهر أن مالا تتلفه المياه والنيران والجنود العديدة من الاقاليم الا فى مرات عديدة تتلفه هذه العواصف المهولة فى اجتيازها عليها بعض ساعات قليلة

(الزوابع) حركات جوية مهولة متلفة كالعواصف غير أنها تختلف عنها بحصر سلطنتها فى مكان ضيق وان لم يخل جزء من سطح الكرة من كونه عرضة لها بخلاف العواصف فانها لا توجد الا فى بعض الأقطار وبفعل تلك الزوابع يرتفع فى الهواء بحالة دوران ثلج السهول الجليدية ومياه البحيرات والبحار التى فى الارض ومع ذلك فوجود هذا الحادث فى البلاد

الحارة أكثر منه فى المناطق الباردة والمعتدلة وكذا فى بحار الصين * وتقسم الزوابع الى بحرية وأرضية فالبحرية تشغل من الارض مسافة مستديرة فتضطرب المياه وتفور وكأن كتلة منها تحاول أن ترفع فى الهواء على هيئة هرم مقطوع أوأن سطح البحر يحصل فيه اضطراب مخصوص حين مايوجد فى الجزء المقابل له من السماء غمامة شكلها مخروطى مقلوب كأنها تنزل على سطح المياه والغالب حصول هذين العملين معا فى آن واحد ويوجد فى جميع الاحوال دائما مخروط أوأكثر من مائع يدور على نفسه بسرعة ويجذب فى دوامته الهواء والماء والحيوانات التى يصادفها ويدع فى باطنه خلوا اوقليل الاضطراب وقد يوجد مخروطان متعارضا القاعدة متلامسا القمة ويشاهد غالبا على سطح الكتلة المتحركة ثوارات ذات أصوات قوية * ثم ان تلك الزوبعة تنتهى بارسالها مطرا غزيرا أو بردا وتسعى فى مدتها التى هى قصيرة على سطح الماء بدون أن تتبع اتجاها معينا واذا صادفت فى طريقها سفينة جذبتها معها * وأما الزوابع الأرضية فتكون على شكل عمود عظيم من هواء أوغبار أوبخار يدور على نفسه بسرعة عظيمة ويتلف فى سيره السريع الهائم مايجده فى ممره فيجفف المستنقعات والبحيرات برفعه كتلة عظيمة منها وجذبه لها فى دوامته ونقله لها الى محال بعيدة جدا وتغطية الارض التى تقع بقايا تلك الاشياء المجذوبة أو بطوفان مائى ومدة هذا الحادث وامتداد نتائجه يختلفان كثيرا وقليل من الزوابع ماتحدث عنه حوادث غريبة مدهشة

* فى بيان قوله تعالى هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال *

(اعلم) أن الله تعالى لما خوف العباد بانزال مالا مرد له أتبعه بذكر هذه الآيات وهى مشتملة على أمور ثلاثة وذلك لانها دلائل على قدرة الله تعالى وأنها تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه (واعلم) أنه تعالى ذكر ههنا أمورا أربعة (الاول البرق) وهو قوله تعالى يريكم البرق خوفا وطمعا وفيه مسائل

(المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف فى انتصاب قوله خوفا وطمعا وجوه (الاول) لا يصح أن يكونا مفعولا لهما لانهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل الا على تقدير حذف المضاف أى ارادة خوف وطمع أو على معنى اخافة واطماعا (الثانى) يجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه فى نفسه خوف وطمع والتقدير ذا خوف وذا طمع أوعلى معنى اخافا واطماعا (الثالث) أن يكونا حالين من المخاطبين أى خائفين وطامعين

(المسئلة الثانية) فى كون اراءة البرق خوفا وطمعا وجوه (الاول) أنه عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع فى نزول الغيث قال المتنبى

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى * يرجى الحيا منها وتخشى الصواعق

(الثانى) أنه يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر أو كحامل ملح ويطمع فيه من له فيه نفع (الثالث) أن كل شئ يحصل فى الدنيا فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين

فكذلك المطر خير في حق من يحتاج اليه في أوانه وشر في حق من يضره ذلك اما بحسب المكان أو بحسب الزمان

(المسئلة الثالثة) اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى وبيانه أن السحاب لا شك أنه جسم مركب من أجزاء مائية وأجزاء هوائية ونارية ولا شك أن الغالب عليه الاجزاء المائية والماء جسم بارد رطب والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد أعجب *فان قيل لم لا يجوز أن يقال ان الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه ثم ان ذلك الريح يمزقه تمزيقا عنيفا فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق (فالجواب) أن كل ماذكرتموه على خلاف المعقول وبيانه من وجوه (الاول) أنه لو كان الامر كذلك لوجب أن يقال ان حصل البرق فلابد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب ومعلوم أنه ليس الامر كذلك فانه كثيرا ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد (الثاني) أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النارية بل نقول النيران العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية (الثالث) من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة باجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الاحمر * فثبت أن السبب الذي ذكروه بخلاف ذلك وانما أسباب ذلك أمور (أولها) لما خلق الله تعالى السائل الذي تكونت منه الارض جعل منه عنصرا شعاعيا نار ياسيالا في غاية اللطافة منتشرا في جميع الاجسام بمقادير مختلفة وله أوصاف وألوان كاوصاف الشمس وألوانها وتنشأ عنه أمور عجيبة (ثانيها) أن سبب تكون هذا السائل ينشأ دائما على أسطحة البحار الواسعة المتأثرة دائما من أشعة الشمس وذلك السائل دائما يتكون ويصعد الى الجو كما أن تصاعد البخار من البحار لا ينقطع (ثالثها) أن قوة تولد البخار من الانبات والبحار في جميع البلدان والفصول واحدة بل كلما كانت لا يستحيل له البخارية أقوى فيهما كان انتشار السائل منهما أعظم والبلدان لها فصول توجد فيها المؤتفكات ففي أزمنة الاستحالة البخارية ترتفع في الجو أبخرة غزيرة تجتمع وتتقارب وتندمج وتصير سحبا ممزوجة بهذا السائل (رابعها) أنهم قالوا ان سبب ظهوره هو المحاكة وذلك باطل فان المحاكة لا تكون الا بالاجسام الصلبة فان الحكيم القادر جعله ساريا في الاجسام بمقادير كما قلنا ولا يظهر ذلك في الاجسام الا بامور الاول الدلك والثاني الحك والثالث الحرارة وقد فعلها امرارا ارسطاطاليس في الجواهر الثمينة والنحاس والصوف والتوتيا والقلفونيا والفضة وجلد السنور وقد تظهر في بعض أخشاب يابسة كخشب الزيتون (النوع الثاني) من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى و ينشئ السحاب الثقال قال صاحب الكشاف السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة لانك تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما تقول امرأة كريمة ونساء كرام وهي الثقال بالماء (واعلم)

قوله بل كلما كانت الخ كذا بالاصل والمعنى غير ظاهر لعدم استقامة التركيب اه

ان

أن هذا أيضا من دلائل القدرة وذلك لان هذه الاجزاء المائية اما أن يقال انها حدثت في جو الهواء أو يقال انها تصاعدت من وجه الارض والاول تكون من الثاني بتخصيص مخصص وهو أن يقال ان تلك الاجزاء تصاعدت من الارض فلما وصلت الى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت الى الارض وذلك لان الامطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة وأخرى تكون متباعدة وتارة تدوم مدة نزول المطر زمانا طويلا وتارة قليلا فاختلاف الامطار في هذه الصفات على حسب الازمنة بقيعات الارض وشدة حرارة الشمس قوة وضعفا وأيضا فالتجربة دلت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثرا عظيما ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة فعلمنا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل المختار (النوع الثالث) من الدلائل المذكورة في هذه الآية الرعد وهو قوله ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وفيه أقوال (القول الاول) ان الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ومع ذلك فان الرعد يسبح الله سبحانه لان التسبيح والتقديس لله سبحانه وتعالى فلما كان حدوث هذا الصوت دليلا على وجود موجود متعال كان ذلك في الحقيقة تسبيحا وهو معنى قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده (القول الثاني) أن المراد من كون الرعد مسبحا أن من يسمع الرعد فانه يسبح الله تعالى فلهذا المعنى أضيف هذا التسبيح اليه (القول الثالث) أما قوله والملائكة من خيفته فاعلم أن من المفسرين من يقول عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد فانه سبحانه جعل له أعوانا ومعنى قوله والملائكة من خيفته أي وتسبيح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته (النوع الرابع) من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء (اعلم) أن أمر الصواعق عجيب جدا وذلك لانها نار تتولد في السحاب واذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان في لجة البحر والحكماء بالغوا في وصف قوتها ووجه الاستدلال أن البخار البرقي يتكون من أسطحة البحار وغيرها ويجتمع في السحاب ويتقارب من بعضه ويندمج فتكون الصاعقة كقوله تعالى أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين وفيه أسئلة * (السؤال الاول) * ما الصيب فالجواب أنه المطر الذي يصوب أي ينزل من صاب يصوب اذا نزل ومنه صوب رأسه اذا خفضه وقيل انه من صاب يصوب اذا قصد ولا يقال صيب الا للمطر الجود كان عليه الصلاة والسلام يقول اللهم اجعله صيبا هنيأ أي مطرا جودا وأيضا يقال للسحاب صيب قال الشماخ * وأسحم دان صادق الرعد صيب * وتنكير صيب لانه أريد نوع من المطر شديد هائل وقرئ أو كصائب والصيب أبلغ والسماء هذه المظلة * (السؤال الثاني) * في قوله من السماء ما الفائدة فيه والصيب لا يكون الا من السماء فالجواب من وجهين (الأول) لو قال أو كصيب فيه ظلمات احتمل أن يكون ذلك الصيب نازلا من بعض جوانب السماء دون بعض فلما قال من السماء دل على أنه عام مطبق آخذ بآفاق السماء فكما حصل في لفظ الصيب مبالغات من جهة التركيب والتنكير أمد ذلك بأن جعله مطبقا (الثاني) من الناس من قال

المطر انما يحصل من ارتفاع أبخرة رطبة من الارض الى الهواء فتنعقد هنالك من شدة برد الهواء ثم تنزل مرة أخرى فذلك هو المطر كقوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا وقوله وينزل من السماء من جبال فيها من برد (السؤال الثالث) ما الرعد وما البرق فالجواب الرعد هو الصوت الذي يسمع من السحاب كأن أجرام السماء تضطرب وترتعد اذا حدتها الريح فتصوّت عند ذلك من الارتعاد * والبرق هو الذي يلمع من السحاب من برق الشئ بريقا اذا لمع (السؤال الرابع) الصيب هو المطر أو السحاب فأيهما أريد فالظلمات الجواب أما ظلمات السحاب فاذا كان أسحم مطبقا فظلمتا سحمته وتطبيقه مضمومة اليهما ظلمة الليل

* السؤال الخامس * كيف يكون المطر مكانا للرعد والبرق وانما مكانهما السحاب الجواب لما كان التعلق بين السحاب والمطر واحدا جاز اجراء أحدهما مجرى الآخر فى الاحكام وأما الرعد فمن البرق والبرق من السحاب * السؤال السادس * هلا قيل رعود وبروق كما قيل ظلمات الجواب الفرق أنه حصلت أنواع مختلفة من الظلمات على الاجتماع فاحتيج الى صيغة الجمع وأما الرعد فانه نوع واحد جعله الله تعالى من مرور الصاعقة فى الهواء وكذا البرق جعله تعالى شرارا من الصاعقة ولا يمكن اجتماع أنواع الرعد والبرق فى السحاب الواحد فلاجرم لم يذكر فيه لفظ الجمع * السؤال السابع * لم جاءت هذه الاشياء منكرات الجواب أن المراد أنواع منها كأنه قيل فيه ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف

* (السؤال الثامن) * الى ماذا يرجع الضمير فى يجعلون * الجواب الى أصحاب الصيب وهو وان كان محذوفا فى اللفظ لكنه باق فى المعنى ولا محل لقوله يجعلون لكونه مستأنفا لانه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهول فكان قائلا قال فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد فقيل يجعلون أصابعهم فى آذانهم ثم قال فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق فقال يكاد البرق يخطف أبصارهم * (السؤال التاسع) * رؤس الاصابع هى التى تجعل فى الآذان فهلا قيل أناملهم الجواب المذكور وان كان هو الاصبع لكن المراد بعضه كما فى قوله تعالى فاقطعوا أيديهما المراد بعضهما * (السؤال العاشر) * ما الصاعقة * الجواب هى السائلات البخارية البرقية أى التى بها خاصية المغناطيس من جذبها للاشياء الخفيفة كالقش ونحوه وتوجد فى كرة الهواء بعدة حوادث جوية ناشئة عن الحرارة وهذا السيال منتشر فى كرة الهواء المحيط بالارض وفى كرة الارض فى سائر الاجسام الموجودة فى الارض * السؤال الحادى عشر * كيف سقوط الصاعقة * الجواب اذا لمع البرق من السماء فقد تمت نتائج الصاعقة فتى مضت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد فقد أمن من ضررها فان لم يمض بينهما شئ بأن كان الانسان قريبا من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق فى آن واحد أمكن أن يصاب بالصاعقة فى مرورها وكثيرا ما يحصل عقب انطلاق الصاعقة سريعا اضطراب فى السحب ثم تمطر مطرا غزيرا وفى بعض الاحيان يحصل برد يختلف حجمه من حبة الرمان الى الرمانة الكبيرة أو أعظم فقد شوهد منه ما يبلغ وزنه نحو أربعة وعشرين درهما وقطر الواحدة من ثلاثة قراريط الى تسعة والغالب أن يكون حبه مستديرا أو بيضيا والغالب أن يسبقه

مطر عاصف "ور بما يصاحبه ويندر أن يعقبه وكل من زنة البرد وقوة اندفاعه بالرياح وسرعة سقوطه ينبئ عن الضرر الذي يحصل منه في صدم الاشجار أو الزروع أو الكروم انخمت قضبانها أو انكسرت وسقطت أزهارها وعريت عن ثمارها أو تلفت بالكلية وكثيرا ما يحصل للناس من غلظه جروح بالغة أو موت كما أنبأنا الله تعالى بذلك في قوله العزيز ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء الآية وفي قوله الكريم و ينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء و يصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار * وههنا حكمة عظيمة لا يطلع عليها الا الراسخون في العلم من أهل الدراية والله ولي الهداية

(في بيان قوله تعالى ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا و ينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون)

وفي الآية مسائل *(المسئلة الأولى)* كما قدم السماء على الارض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الارض وهو الانبات والاحياء

(المسئلة الثانية) كما أن في انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لان البرق اذا لاح فالذي لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له والذي له صهريج أو مصنع يحتاج الى الماء أو زرع يسوى مجاري الماء وأيضا العرب من أهل البوادي لا يعلمون البلاد المنشأة ان لم يكونوا قدر أوا البروق اللائحة من جانب دون جانب (واعلم) أن فوائد البرق وان لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهي ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية وأما كونه آية فظاهر فان السحاب ليس الا ماء وهواء

(المسئلة الثالثة) قال ههنا لقوم يعقلون لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى الاوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لان المطر أقرب للطبيعة من المختلف لكن البرق والمطر ليس أمرا مطردا غير مختلف ومثل تلك الآثار الجوية النارية اذ تقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار

(ومن الآثار الضوئية الجوية النارية أشياء) الاول الفجر قال تعالى والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر (اعلم) أن هذه الاشياء التي أقسم الله بها لا بد وأن يكون فيها فائدة دينية مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد أو فائدة دنيوية توجب بعثا على الشكر أو مجموعهما ولذلك كثرت الآراء في تفسير هذه الاشياء واختلفت اختلافا شديدا فكل أحد فسره بما رآه أعظم درجة في الدين وأكثر منفعة في الدنيا أما قوله والفجر فذكروا فيه وجوها (منها) ماروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الفجر هو الصبح المعروف فهو انفجار الصبح الصادق والكاذب وأقسم الله به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء فيكون من الصادق انتشار الناس وسعي الحيوانات من الطيور والوحوش في طلب الارزاق

وذلك مثال كل لنشور الموتى من قبورهم وفيه عبرة لمن تأمل وهذا كقوله والصبح اذا أسفر وتمدح فى آية أخرى بكونه خالقاله فقال تعالى فالق الاصباح * وأما الكاذب ويسمى بالفجر الشمالى فربما كان هو أجمل الآثار الجوية الضوئية بسبب كثرة اضاءته وطول اقامته وغريب تشكلاته والغالب كونه على هيئة أقواس كثيرة مضيئة تحتاز فيما بينها شعل نارية وتسير متجهة نحو نقطة واحدة من السماء والاعتبار العظيم فيها هو أن رأس القوس يكون موضوعا على خط الزوال المنسوب للمحل الذى توجد فيه والغالب ظهور هذا الضوء جهة الشمال ويكون فيه ميل قليل جهة المغرب * وقالت المبادون نوره يشبه نور شعلتين عظيمتين منبسطتين فى الهواء تهتزان فى جهة الهواء وتتصادمان فتنطبقان ثم تستقلان بسرعة عجيبة * وعلامة ظهور هذا الفجر أن يشاهد بعض استضاءة فى ناحية الشمال ثم يظهر تفجيج نور فوق الافق ويمتد بغير انتظام فى جهة سمت ذلك الافق ثم يشاهد عمودان عظيمان من نار أحدهما فى ناحية المشرق والثانى فى ناحية المغرب يصعدان نحو السماء وليسا متساويين فى ذلك الصعود بل يكون أحدهما أقصر من الآخر ثم تتغير ألوانهما من الصفرة الى الخضرة ثم الى الأرجوانية اللامعة ثم يميل كل من العمودين رأسه الى الآخر حتى يتلامسا فيكونان قوسا والمسافة التى بين العمودين يكون فيها بعض عتمة لكن قد تقطعها أضواء سائرة من أحد العمودين الى الآخر لحظة فلحظة فيكون القوس متقطعا بسهام من نار تخرج من رأس القوس وتشق السماء شقا عموديا ثم تجتمع هذه السهام ويتكون منها ما يسمى بتاج الفجر الكاذب فاذا تم تكون هذا التاج تم ظهور الفجر فيبدو زاهيا بأضوائه ثم بعد مدة يسيرة يكمو وتضمحل الانوار فهذا حال الاسفار الشمالى فى حال كماله لكنه يندر أن يكون كاملا بل هو كما ذكر واغير واضح الظهور

(الشئ الثانى) فى قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب وفيه مسائل

* (المسئلة الأولى) * اعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الكواكب فى سماء الدنيا لفائدتين (أولاهما) تزينها كما قال انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وفى ذلك وجوه (الأول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها فان حصول هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لا يبقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس بزينة الكواكب أى بضوء الكواكب (الثانى) يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الرابع) أن الانسان اذا نظر فى الليلة الظلماء الى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الازرق فلا يشك أنها أحسن الاشياء وأكملها فى التركيب والجوهر وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (الخامس) أن الله تعالى زين السماء الدنيا بمقدار عظيم من الاجرام السماوية الفلكية

المسالة للفضاء وهى لاحد لها ولا يمكن احصاؤها كما أن القدرة الالهية لاحصر لتعلقاتها والارض جرم منها وتنقسم تلك الاجرام باعتبار حركاتها أو طبيعتها الى نجوم تسمى بالشموس وكواكب وتوابع وذوات أذناب وكلها بحسب الظاهر مثبتة فى القبوة المسماة بالسماء الشبيهة بسطح باطن كرة عظيمة تشغل الارض مركزها والمراد بالنجوم المسماة بذلك حقيقة النجوم الثوابت وهى يشرق منها ضوء مخصوص بها ومنها الشمس وتنقسم بالنظر لتلك المقادير الى نجوم من القدر الأول والثانى والثالث وهكذا الى ماوراء القدر السادس وهو لا يشاهد جيدا

(المسئلة الثانية) حفظا من كل شيطان مارد كما قال تعالى وحفظا من كل شيطان مارد وفى ذلك بحثان (الاول) فيما يتعلق باللغة فقوله تعالى وحفظا أى وحفظناها حفظا قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب من كل شيطان مارد يريد الذى تمرد على الله تعالى قيل انه الذى لا يتمكن منه (الثانى) ان جعلها زينة وحفظا يقتضى بقاءها *فان قيل هلا يناقض هذا قوله تعالى فى سورة تبارك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين (قلنا) ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون باجرام الكواكب بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها وتلك الشعل هى الشهب وماذاك الا كقبس يؤخذ من نار والنار باقية * وقيل فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ان الضمير فى جعلنا عائد الى المصابيح فوجب أن تكون تلك المصابيح هى الرجوم باعيانها والجواب حينئذ أن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية وأما كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصباح لاهل الارض الا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها مالا يكون كذلك

(المسئلة الثالثة) فى كائنات الجو من الاضواء والنيران الشهبية وفيه مباحث

(المبحث الاول فى السراب) قال تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب (اعلم) أنه سبحانه لما بين حال المؤمن وأنه فى الدنيا يكون فى النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم بين أنه فى الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم أتبع ذلك بأن بين أن الكافر فى الآخرة فى أشد الخسران وفى الدنيا فى أعظم أنواع الظلمات وضرب لكل واحد منهما مثلا أما المثل الدال على الخيبة فى الآخرة فهو قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة (السراب) ظاهرة بصرية حاصلة من انعكاس الاشعة الضوئية وانكسارها معا فان المرئيات اذا أبصرت من بعد كاف لابصارها شوهدت صورها اما مستقيمة أو مائلة أو منقلبة وحوافى تلك الصور لغما تكون مغايرة لها اما يسيرا أو كثيرا وهذه الظاهرة كثيرا ماتشاهد فى قفار الديار المصرية أيام الحر اذا كان الجو صافيا شفافا والهواء ساكنا فيتهيأ للناظر من بعد أن أمامه بركة ماء واسعة وسبب ذلك أنه اذا اشتدت سخونة الرمل من حر الشمس سخنت الطبقة السفلى من الهواء التى تلى الارض فيحدث فيها حركات تموجية تظهر للبصر تصيرجوا فى صور

المرئى غير مستوية ويلزم من سخونة تلك الطبقة تخلخلها وصعود جزء منها الى ما فوقها من الطبقات فتكون تلك الطبقات أكثف من التى تحتها ويكون هواء البقعة التى سخنته بعيدا عن موقعه الطبيعى من الارض فبوصول الضوء الى ذلك الهواء الكثيف وخروجه عنه منكسرا فيتخيل المرئى للرائى بصورة جديدة أعنى أنه يظهر له أن جزأ منها مستقر فى موضعه والواقع ليس كذلك * والسبب المتمم لرؤية السراب بلون الماء هو لون السماء المنعكس للارض وكلما قرب الانسان من موضع السراب انتقل أمامه أو على جانبيه بحسب تغير أسطحة الارض الموجب لتغير انعكاس الضوء ولو عمل فى هذا بموجب ما تدركه حاسة البصر لسعى الانسان أبدا الى ما لا يلحقه * وقد غش السراب جملة أشخاص ومن جملة من انغش فى ذلك الجيش الفرنساوى فانه أول ما قدم الى مصر وصار بقفارها ورمالها رآه فلما رآه ظن أنه بركة ماء فتوجه اليه لشدة عطشه ليشرب فلم ينل الا المشقة والعناء

(المبحث الثانى) يقال سرب الماء يسرب سروبا اذا جرى فهو سارب وأما قوس قزح والهالات والشموس الكاذبة فهو ما يتراءى للعين كالسراب وأما القيعة فقال الفراء هى جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوى من الارض وقال صاحب الكشاف القيعة بمعنى القاع وقال الزجاج الظمآن قد تخفف همزه وهو الشديد العطش ثم وجه التشبيه أن الذى يأتى به الكافر ان كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه عقابا مع أنه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصات القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتكاثر غمه فيشبه حاله حال الظمآن الذى تشتد حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب تعلق قلبه به فيرجو به النجاة ويقوى طمعه فاذا جاءه وأيس مما كان يرجوه عظم ذلك عليه وهذا المثال فى غاية الحسن قال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا * فان قيل قوله حتى اذا جاءه يدل على كونه شيأ وقوله لم يجده شيأ مناقض له (قلنا) الجواب عنه من وجوه ثلاثة (الاول) المراد من معناه أنه لم يجده شيأ نافعا كما يقال فلان ما عمل شيأ وان كان اجتهد (الثانى) حتى اذا جاءه أى جاء موضع السراب لم يجد السراب شيأ فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه (الثالث) الكناية للسراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة وخلو الطبقة التى تلامس سطح القيعة فاذا قرب منه رق وانتشرت الطبقة الكثيفة * وأما قوله ووجد الله عنده فوفاه حسابه أى وجد عقاب الله الذى توعد به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم الى تيقن الضرر العظيم أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به الى جهنم فيسقونه الحميم

(المبحث الثالث فى الهالات) الهالات هى الدوائر اللامعة المتلونة فى الغالب بالالوان المختلفة التى تكون حول كل من النيرين وهو فى مركزها والمسافة التى بينهما تسمى بفناء الهالة تشبيها لها بفناء الدار وهو الفضاء الذى حولها ولون هذا الفناء اما رمادى أو أكثر زرقة من لون السماء على حسب صفاء الجو وضبابه ودائرة الهالات التى تكون حول القمر

بيضاء وقد تكون حمراء لكن احمرارها ضعيف من محاقتها الباطنة والهالة التي تكون حول الشمس ضعيفة الالوان وتشبه قوس قزح واللون الاحمر منها يكون خطا محددا لفناء الهالة لا يتداخل شعاعه فيما يجاوره من الجانبين وكل من النيلي والبنفسجي يأخذ في التناقص تدريجا حتى ينتهيان للون السماء * ومن المحقق عندهم أن الهالات ضوء منكسر في بلورات صغيرة كبلورات الجليد بتكون الثلج الموجود في الجو ولا تتكون الهالات عن انكسار الضوء في غير بلورات الثلج

(المبحث الرابع في الشموس) هي صور شموس تحصل من انكسار الشمس الحقيقية وانعكاسها في بعض الاجسام وتظهر دائما في الافق على سمت خط ارتفاع الشمس وتتكون على دائرة بيضاء قطبها جهة السمت العلوي ودائرتها من ناحية الشمس الحقيقية يكون متلونا بألوان قوس قزح كالشمس المتكونة فيه وما كان منها في مقابلة ذلك الجزء لا لون له كالشمس المتكونة فيه فينتج من ذلك أن الصورة الاولى حاصلة من الانكسار والصورة الثانية من الانعكاس مثل بقية الدائرة الكبرى ومتى تكونت الشموس شوهد حول الشمس الحقيقية هالة أو هالتان متلونتان بلون قوس قزح وقد يشاهد على هاتين الهالتين وعلى بعض نقط من الدائرة الكبرى قطع أقواس ضوئية وأقواس كاذبة والوقوف على حقيقة تولد الشموس الكاذبة هو أن ضوء الشمس اذا وقع على أجسام اسطوانية الشكل دائرها شفاف ووسطها معتم كونت الاشعة المنعكسة من سطح هذه الاجسام الدوائر البيضاء وكونت الاشعة المنكسرة من جوانب تلك الاسطوانات ومن محورها العمودي الشموس الكاذبة

في بيان قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير

(اعلم) أن الله تعالى قادر عالم وذلك لان هذه الكواكب نظرا الى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص وموضع معين وسير معين تدل على أن صانعها قادر ونظرا الى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لاهل الدنيا وسببا لانتفاعهم بها تدل على أن صانعها عالم ونظير هذه الآية في سورة الصافات انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد وههنا مسائل

(المسئلة الاولى) السماء الدنيا السماء القربى وذلك لانها أقرب السموات الى الناس ومعناها السماء الدنيا من الناس والمصابيح السرج سميت بها الكواكب والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح فقيل ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم بها وفيها بمصابيح أي بمصابيح لا توازيها مصابيحكم اضاءة * وأما قوله تعالى وجعلناها رجوما للشياطين (فاعلم) أن الرجوم جمع رجم وهو مصدر سمي به ما يرجم به * وذكروا في معنى هذه الآية وجهين (الاول) ان الشياطين اذا أرادوا استراق السمع رجموا بها * فان قيل جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها واستمرارها وجعلها رجوما للشياطين ورميهم بها يقتضي زوالها والجمع

بينهما متناقض (قلنا) ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون باجرام الكواكب بل يجوز أن ينفصل من الكوكب شعل ترمى الشياطين بها كما قدمنا الاشارة الى ذلك وتلك الشعل هى الشهب وما ذاك الا كقبس يؤخذ من نار والنار باقية (الوجه الثانى) فى تفسير كون الكواكب رجوما للشياطين انا جعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الانس وهم الاحكاميون من المنجمين

(المسئلة الثانية) اعلم أن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن هذه الكواكب فى السماء الدنيا وذلك لأن السموات اذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت فى السماء الدنيا أو كانت فى سموات أخرى فوقها فهى لابد وأن تظهر فى السماء الدنيا وتلوح منها فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح

(فى قوله تعالى وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا)

اللمس المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف يقال لمسه والتمسه ومثله الجس يقال جسوه باعينهم وتجسسوه والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها والحرس اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديدا ولو ذهب الى معناه لقيل شددا *وأما قوله تعالى وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ففى قوله رصدا وجوه (أحدها) قال مقاتل يعنى رميا من الشهب ورصدا من الملائكة وعلى هذا يجب أن يكون التقدير شهابا ورصدا لان الرصد غير الشهاب وهو اسم جمع لراصد (وثانيها) قال الفراء أى شهابا قد أرصد له ليرجم به وعلى هذا الرصد نعت للشهاب وهو فعل بمعنى مفعول (وثالثها) يجوز أن يكون رصدا أى راصدا وذلك لان الشهاب لما كان معدا له فكأن الشهاب رصد له ومترصد (واعلم) أن كهنة الانس والجن كانوا جاعلين أنفسهم عالمين بما وقع وسيقع على زعمهم وكان لهم مقاعد للسمع

(فى بيان قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملأ الاعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)

وقد قدمنا الكلام على هذه الآية الشريفة وفيها مسائل أيضا

(المسئلة الاولى) قرأ حمزة وحفص عن عاصم بزينة منونة الكواكب بالجر وهى قراءة مسروق ابن الاجدع قال الفراء وهو رد معرفة على نكرة كما قال بالناصية ناصية فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة لانها هى كما تقول مررت بأبى عبد الله زيد وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب وقال الزجاج يجوز أن تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله بزينة لان بزينة فى موضع نصب وقرء الباقون بزينة الكواكب بالجر على الاضافة

(المسئلة الثانية) بين تعالى أنه زين السماء الدنيا وبين أنه انما زينها لمنفعتين (احداهما) تحصيل الزينة لكل كوكب سماء كما للارض زينة (والثانية) حفظها من الفساد والتغيير

قوله فحفص الزينة كذا بالاصل وحرر اه

فلقائل أن يقول انه ثبت فى علم الهيئة أن هذه الثوابت فى الكرة السادسة والسابعة والثامنة هنالك أكثر من السارات فى الكرات المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (والجواب) أن الناس الساكنين على سطح كرة الارض اذا نظروا الى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب وأيضا الساكنون فى كل كوكب يرون سماء كسماءنا فصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب

﴿المسئلة الثالثة﴾ الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف قوله بزينة الكواكب يحتملهما فان أردت المصدر فعلى اضافته الى الفاعل أى بأن زينتها الكواكب أو على اضافته للمفعول أى بأن زان الله الكواكب وحسنها لانها انما زينت السماء لحسنها فى أنفسها وان أردت الاسم فللاضافة وجهان أن تقع الكواكب بيانا للزينة لان الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها وأن يراد ما زينت الكواكب

(المسئلة الرابعة) فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه (أحدها) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها فانه بحصول هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لاجرم بقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس بزينة الكواكب أى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) أن الانسان اذا نظر فى الليلة الظلماء الى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق فلا يشك أنها أحسن الاشياء وأكملها فى التركيب والجوهر وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة

﴿المسئلة الخامسة﴾ فى قوله وحفظا من كل شيطان مارد وفيه بحثان

﴿البحث الاول فيما يتعلق باللغة﴾ فقوله وحفظا أى وحفظناها حفظا قال المبرد اذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لانه قد دل على فعله مثل قولك أفعل وكرامة لانه لما قال أفعل علم أن الاسماء لا تعطف على الافعال فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب من كل شيطان مارد يريد الذى تمرد على الله قيل انه الذى لا يتمكن منه وأصله من الملاسة ومنه قوله صرح ممرد ومنه الامرد وقوله مردوا على النفاق

﴿البحث الثانى﴾ هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم غيرها فالقسم الاول باطل لان هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير فى أعداد كواكب السماء ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد البتة فان أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكان الجمع بين هذين المقصودين

كالمتناقض *وأما القسم الثانى وهو أن يقال ان هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب فهذا أيضا مشكل لانه تعالى قال فى سورة تبارك الذى بيده الملك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فالضمير فى قوله وجعلناها عائد الى المصابيح فوجب أن تكون تلك المصابيح هى الرجوم باعيانها من غير تفاوت (والجواب) أن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية وأما قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فنقول كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصباح لاهل الارض الا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها مالا يكون كذلك وهى هذه الشهب التى يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوما للشياطين وبهذا التقدير فقد زال الاشكال

(المسئلة السادسة) الشيطان مخلوق من النار قال تعالى حكاية عن ابليس خلقتنى من نار وقال والجان خلقناه من قبل من نار السموم واذا كان كذلك فكيف يعقل احراق النار بالنار (والجواب) يحتمل أن الشياطين وان كانوا من النيران الا أنها نيران ناقصة قابلة للزيادة فاذا طهرت الى نيران الشهب لحقت بها بطريقة الجاذبة كالصاعقة وبعض الابنية العالية الموضوع عليها بعض المعادن كما قال تعالى فأتبعه شهاب ثاقب

(المسئلة السابعة) ان الشياطين لا يمكنهم الوصول الا الى الاقرب من سطح الجو الاسفل فكيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة *فان قلتم ان الله تعالى هو الذى يسمع الشيطان حتى يسمعوا كلام الملائكة فنقول فعلى هذا التقدير اذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة وجب أن لا ينفى سمع الشيطان وان كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة فى رميه بالرجوم (فالجواب) مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ولا اعتراض لأحد عليه فى شئ من أفعاله

(المسئلة الثامنة) وفيها مباحث

(المبحث الاول) فى قوله لا يسمعون الى الملأ الأعلى قولان (القول الاول) وهو المشهور أن تقدير الكلام لئلا يسمعوا فلما حذف الناصب عاد الفعل الى الرفع كما قال تعالى يبين الله لكم أن تضلوا وكما قال تعالى رواسى أن تميد بكم قال صاحب الكشاف حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده أما اجتماعهما فمن المنكرات التى يجب صون القرآن عنها (والقول الثانى) وهو الذى اختاره صاحب الكشاف أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا الى كلام الملائكة أو يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك المقصود

(المبحث الثانى) الملأ الاعلى الملائكة وأما الانس والجن فهم الملأ الاسفل (واعلم) أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاث الاولى أنهم لا يسمعون والثانية أنهم يقذفون من كل جانب دحورا وفيه قولان (الاول) قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحرا ودحورا أى دفعته وطردته (الثانى) فى انتصاب قوله دحورا وجوه (الاول) أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحورا ودل على الفعل قوله تعالى ويقذفون (الثانى)

قوله مطلقا قال الفاضل العمارة يقتضى ظاهره اه

التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحورا مطرودين فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالرجوع والسجود والحضور

*(المبحث الثالث) قرأ أبو عبد الرحمن السلمى دحورا بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون ويدحرون بما يدحر ثم قال لست أشتهى الفتح لانه لو وجد ذلك على صحته لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة الا أنه جائز فى الجملة كما قال الشاعر

* تعالى اللحم للاضياف نيأ * أى تعالى باللحم

(المسئلة التاسعة) فى قوله تعالى ولهم عذاب واصب والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام * ثم قال تعالى الا من خطف الخطفة وهو أخذ الشئ بسرعة وأصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف من فى محل الرفع بدل من الواو فى لا يسمعون أى لا يسمع الشياطين الا الشيطان الذى خطف الخطفة أى اختلس الكلمة على وجه المسارقة فأتبعه يعنى لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه اذا مضى فى أثره واتبعه اذا لحقه وأصله من قوله فأتبعه الشيطان * وقوله تعالى شهاب ثاقب قال الحسن ثاقب أى مضئ وأقول سمى ثاقبا لانه يثقب بنوره الهواء

(فى بيان قوله تعالى ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء)

قال المفسرون نزلت هذه الآية فى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخى لبيد بن ربيعة أتيا النبى صلى الله عليه وسلم يخاصمانه ويجادلانه ويريدان الفتك به فقال أربد بن ربيعة أخو لبيد بن ربيعة أخبرنا عن ربنا أمن النحاس هو أم من الحديد فردعهم النبى صلى الله عليه وسلم ودعا على أربد بما يلحق بالحديد وعلى عامر بغدة ثم انه لما رجع أربد أرسل الله عليه صاعقة فاحرقته ورمى عامر ابغدة كغدة البعير ومات فى بيت سلولية * وههنا نذكر الآثار الجوية النارية * فنقول

(الآثار الجوية النارية) قد نجم بسبب هذه الآثار فى الأزمنة السالفة اندهاش الناس وخوفهم اما من التلاف الذى يتبع ظهورها واما من الضوء الساطع الذى ينتشر منها واما من عظمها المهول مع تدميرها الاشياء معا وطالما صدرت خرافات وظنون وتوهمات فاسدة فى منشأ الرعد والاضواء الشمالية أى الفجر الكاذب الذى تقدم ذكره والاكر النارية

(الكهربائية الجوية والصاعقة والرعد) هذا السائل وجده ارسطاطاليس فى قطعة كهرباء وسماه بهذا الاسم وهو نوعان كالمغناطيس والجو يحتوى دائما على مقدار من هذا السائل يختلف قلة وكثرة فاذا كان الهواء ساكنا والسماء صاحية كانت كهربائية الجو زجاجية وتتغير حالتها كل يوم مرتين فقبل طلوع الشمس بزمن قليل تكون فى غاية ضعفها ثم تتزايد بسرعة وتصل الى غاية قوتها الاولى نحو الساعة الثامنة الفلكية أعنى قبل الظهر بأربع ساعات فى الشهر الثالث من الربيع ثم تأخذ فى الضعف شيأ فشيأ وبعد الزوال بساعتين يكون الاستشعار بها قليلا أعنى أنها تكون زائدة فى الضعف جدا وفى الساعة الرابعة تقريبا تكون فى غاية ضعفها ثم فى المساء بعد مغيب الشمس بساعة أو ساعتين تكون قوتها

كهى فى الصباح أعنى فى غاية قوتها ثم تأخذ فى التناقص أولا بسرعة ثم تبطئ حتى تصل الى غاية ضعفها الثانى وهذان التغيران يشاهدان السنة كلها حتى فى زمن الغيم غيرأن قوتهما تختلف باختلاف كثرة الغمام وسمكه وكهربائية الصيف أقوى من كهربائية الشتاء بمرتين والغالب أنهما فى جميع الاشهر تزيدأ وتنقص على طريقة النسبة المستقيمة لارتفاع الشمس على الافق وثبت من المشاهدات أن العواصف تكون أقوى وأكثر فى زمن القمر الجديد والامتلاء منها فى أوقات الربيع

(فى النسبة الكهربائية) . وليس هناك نسبة بين كهربائية الجو وثقله وحرارته بخلاف رطوبته فان لها بها نسبة عظيمة لان غايتى ارتفاع الكهربائية تكونان فى الوقت الذى يكون فيه الهواء محملا بمقدار عظيم من الرطوبة ومتى تكاثف البخار المائى المتحمل له الجو وسقط على هيئة مطر أو ثلج أو برد فانه يتكهرب بكهربائية تزيد جدا عن كهربائية الجو اذا كان الزمن هادئا صحيا

(فى بيان الكهربائية)

ثم ان كهربائية الماء الجوى تارة تكون زجاجية وتارة راتنجية ككهرباء الهواء وتكون أيضا فى الصيف أعظم منها فى الشتاء *(تنبيه)* اعلم أن المغناطيس سيال واحد ولكن جعل الله تعالى فيه خاصيتين احداهما جنوبية والاخرى شمالية وجعل تعالى السيال الكهربائى متنوعا الى نوعين أحدهما زجاجى والآخر راتنجى على حسب تسلطنه فى أفراد المعادن وأيضا هو سار فى السائلات الجوية ويكون على حسب تجمعه وقوته زجاجيا أو راتنجيا وذلك اذا سح المطر مرتين وتخلل بينهما زمن قليل فانه قد يتفق أن أحدهما يتكهرب بكهربائية مخالفة لكهربائية الآخر وان كانا متساويين فى الشدة ويندر جدا وجود أمطار غير مكهربة ولا يشاهد ذلك الا فى الامطار التى تحصل فى المسافة التى تتخلل بين سحتى مطر مختلفى الكهربية أو حين ما يكون المطر خفيفا

(فى بيان الضباب)

الضباب الرطب يكون عموما أقل كهربائية من الضباب البارد الجاف وزجاجية الثلج أكثر من راتنجيته ولم تعرف الى الآن الحالة الكهربائية للبرد بفتح الراء

(فى كهربائية الغمام)

قد اعتبرت الغمامة الكثيفة الحاملة للعواصف جسما واحدا يتراكم على سطحه مقدار مخصوص من السائل الكهربائى المنتشر فى الفضاء المعرض لتأثيرهذه الغمامة ولعل ذلك هو الذى يحدث شكل هذه الكتل المتكونة من الابخرة الحوصلية المائية فثبت بموجب ما ذكر أن الجو يكون دائما مكهربا ومثله فى ذلك الغمام وأنه يمكن أن كهربائية احدى سحابتين قريبتين لبعضهما تكون مخالفة لكهربائية الاخرى

(فى تداخل السحاب فى بعضه)

اذا كان الهواء مضطربا ولم يكن لكتلته الا اتجاه واحد فان السحب تجذب بالريح وتتبع اتجاهه ولا يحصل بينها وبين بعضها ملامسة ولا معارضة ولا اختلاط أما اذا تقلب الجو برياح متعارضة فانه يشاهد اذ ذاك شرر كهربائي واضطراب وانزعاج متى تقاربت السحب لبعضها حتى تتجاذب أي يدخل كل منها في سلطنة جذب الأخرى فحينئذ يشتق البرق والسحابة العاصفة فيسمع الرعد وكثيرا ما يشاهد تسير طبقات من السحب في اتجاهات متعارضة أو أن تلك الطبقات تأتي من السماء من مواضع مختلفة وتنضم بعد ذلك في محل واحد ومن هذا المحل تظهر العواصف وذلك عقب تأثير الغمام على بعضه بيسير

(في الغمامة الصاعقية)

قد يشاهد أحيانا على الافق غمامة مظلمة مسودة تبقى واقفة جزأ من النهار وتكون السماء في غير هذا الموضع نقية صحية ثم يتجه الريح نحو تلك الغمامة الصاعقية وتتقدم نحو السمت حتى تصل اليه بسرعة وتغطي السكون ببرقع معتم وتسير مسبوقة بالرياح والبرق والرعد ومتبوعة بالامطار الوابلة والبرد بفتح الراء الذي ينتشر ويتدحرج في ممرها

(في كهربائية الارض ونزول الصواعق)

قد ثبت أن الارض مكهربة كالهواء لكن يقال هل كهربائيتها من نوع كهربائية الهواء أقول المقرر خلافه فان علماء الهيئة ذكروا أن كهربائية الهواء في الغالب تكون زجاجية بخلاف كهربائية الارض فانها راتنجية فاذا انقطعت الموازنة بين هذين السائلين وانجذب بموجب أسباب مخصوصة في محل ما مقدار كبير من أي نوع كان من الكهربائية حصل في الموضع المقابل لذلك المحل تراكم كهربائية مخالفة في الاسم للاولى والغالب تولد العواصف من هذا الحادث فاذا كان في شدة قوته فان الشرر المنقذف من الغمام جهة الارض أو من الارض جهة الغمام يحصل الموازنة بينهما ثانيا وهذا هو أصل الصاعقة الصاعدة والصاعقة النازلة التي هي مهولة مخيفة بسبب ما يحدث عنها من الاتلاف والاهلاك المدهش الغريب كيف لا وهي صورة تتشكل بأشكال غريبة مخالفة لبعضها ولم تصل العلوم الى الآن لتوضيحها وبعد ذهاب الريح العاصف والصاعقة يظهر كأن السكون اكتسب قوة جديدة وتعظم قوة الحيوانات وتشتد وتزيد حيويتها ويحسن الابنات وتصير الروائح العطرية للازهار أقبل وألطف وبالاختصار يظهر كأن الكائنات كلها حظيت بحياة جديدة قوية *وقد غلط من ظن أن أصوات النواقيس ولغط طلق المدافع يشتت الصواعق اذ الغالب أن الحركة المنطبعة في الهواء من اهتزازات الاجسام الرنانة تجذب هذه الصاعقة اليها وأنه كثيرا ما يحصل أن الصاعقة تصيب أبراج النواقيس وتهدمها وتهدم من ضربها وتحرق السفينة زمن طلقها مدافعها *ومما يشتت الصواعق القوية جدا المطر الغزير الذي هو موصل جيد للسائل الكهربائي فيحصل الموازنة بين الارض والجو ولم يعرف الى الآن سبب لغط الصاعقة والرعد هل ذلك مجرد قعقعة منعكسة من الغمام أو تتابع أصوات متواصلة بينها وبين بعضها مسافة قصيرة أو أن ذلك من مصادمة الهواء الذي يتكون فيه وقت حصول الصاعقة خلو بسبب

اتحاد كمية عظيمة من السائل البخاري حيث يحصل ذلك في الطبقات المرتفعة من الجو أو أن ذلك من مصادمة الهواء الشرر كهربائي احتاز فيه بسرعة قوية بحيث ان حالة اهتزازاته الرنينة وسعتها وشدتها تكون على حسب قوة هذا الاثر المهول والذي يظهر لي أن الاخير هو القريب للعقل

(في قوله تعالى فأتبعه شهاب ثاقب)

أي اتبعه ولحقه وقرئ فاتبعه والشهاب ما يرى منقضا من السماء ثاقب مضيء في الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين اذا صعدوا للجو لاستراق السمع فيقتلهم أو يحرقهم أو يخبلهم قالوا وانما يعودون يسلم منهم حيا طمعا في السلامة ونيل المراد كراكب السفينة * ولقائل أن يقول انهم اذا صعدوا فاما أن يصلوا الى مواضع مقصودهم أو الى غير تلك المواضع فان وصلوا الى مواضع مقصودهم احترقوا وان وصلوا الى غير مواضع مقصودهم لم يفوزوا بمقصودهم أصلا فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل واذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلا بخلاف حال راكب السفينة فان الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود أما ههنا فالشيطان الذي يسلم من الاحتراق هو الذي لم يصل الى مواضع المقصود واذا لم يصل الى تلك المواضع لم يفز بالمقصود فوجب أن لا يعود الى هذا العمل البتة * والاقرب في الجواب أن نقول هذه الواقعة انما تتفق في الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين شياطين الانس أي المنجمين وشياطين الجن والله سبحانه وتعالى أعلم

(في بقية الآثار الجوية وتكون الشهب وفيه أمور)

(الاول الضياء المنطقي) هذا الضوء المنسوب لمنطقة البروج نادر في المناطق المعتدلة وكثير بين المدارين وهو نور ضعيف مبيض يقرب في الشبه من ضوء المجرة المسماة أيضا بالطريق اللبنية أو درب التبانة * وأما شكله فتارة يكون مخروطيا قاعدته متمائلة جهة الشمس ورأسه متجهة نحو نجم من نجوم منطقة البروج وأحيانا يكون عدسيا مفرطحا مستدقا موضوعا في مسطح خط الاستواء الشمسي وحدوده المشاهدة تمتد الى مسافة بعيدة ويظهر في الربيع بعد غروب الشمس وفي الخريف قبل طلوعها ونسبه علماء الهيئة للضوء المنعكس من الكواكب الصغيرة القريبة حد الشمس وبعضهم جعل أصل هذا الحادث كأصل الفجر الشمالي وبعضهم رفض هذا الرأى وقال ان الضياء المنطقي لا يصح كونه ناشئا من جو الكونه يتبدو راء مدار الارض فاذا كان حادثا ضوئيا يقال حينئذ ماسببه وبعض الفلكيين الذين اعتبروا الحجارة الساقطة التي سنذكرها فيما يأتي سيارات صغيرة أو بقايا سيارات موجودة كثيرة العدد في مجموع عنار أو أن الضوء المنطقي يمكن كونه حاصلا من مجموع كواكب صغيرة نشاهد مقدارا عظيما منها على شعاع واحد بصري بواسطة وضعنا في مسطح دائرة الاستواء الشمسي فهي أصغرها لعسر مشاهدة كل منها على حدته ولو مع الاستعانة بالنظارات القوية لكن متى كانت منضمة مع بعضها نتج منها ضوء مختلط مشابه في شكله لذنب ذوات اللحى

(الثانى النيران الطيارة) هى شعل لطيفة خفيفة مضيئة تخفق وترفرف فى الليل على الاماكن الآجامية وفى محال الدفن وعلى القبور نفسها وفى ميادين الحروب وهى ناشئة من التعفنات مع مصاحبة السائل الكهربائى فتلتهب من محاكة الهواء وينسب لهذا الاثر معظم قصص العفاريت والشياطين والسحرة التى تفزع منها سكان القرى بل والمدن وتستولى عليهم الغفلة فى ذلك

(الثالث الشهب الساقطة) هى اكر صغيرة من نار تطير أى تجرى فى السماء مجتازة أى جهة كانت من جهاتها راسمة فى سيرها قوسا يختلف فى العظم والاتساع والغالب أنها تطفئ بنشرها ضياء قويا وتركها بعدها ذنبا من الضوء طويلا وقد يبقى ضوؤها محفوظا معها مدة وجودها القصير وأحيانا يتناقص تدريجا من ابتداء ظهورها الى نهايته ثم انها تارة تهف على الارض وتارة تتحرك بين أوراق الاشجار الكبيرة وتارة تضيع فى الطبقات المرتفعة من الجو

(الرابع الشعلة) هى شعلة مضيئة سريعة الزوال تشاهد هنالك على السفن المصابة بالعواصف والقدماء كانوا اذا رأوا هذا الحادث وشاهدوا واحدة من تلك النيران سموها هيلانة واذا شاهدوا اثنتين أو اكثر سموها بأسماء آلهة كانوا يعترفون بها وتتناشد بها شعراؤهم المخرفون والكهربائية هى سبب هذا الحادث

(الخامس الاكر النارية الشهبية والحجارة الساقطة من الجو) الاكر النارية هى أعظم ما تستغرب العقول وتندهش منه الافكار وتفزع منه الافئدة وضوؤها الذى ينتشر منها نير لامع كالذى ينتشر من الشمس وتختلف أشكاله وشدته ولمعانه لا الى نهاية وعظمها الظاهرى تعتريه جميع الابعاد فيكون من أصغر ما يتصور فى الجسم الى ما يكون قطره قدر بيضة الدجاجة والنعامة وتأتى من محال مختلفة من السماء متجهة جهة الارض فتارة تخط بسيرها خطوطا تقرب لان تكون موازنة لسطح الارض وتارة تسقط راسبة بحيث تقرب للخط القائم على الارض وتارة تخط أقواسا منحنية وزعموا أنهم شاهدوا منها ما يثبت فى الجو فيكون شبيها بكرة مرنة مقذوفة بانحراف على جسم صلب فيحصل منها وثبات وقفزات ومع ذلك تتبع فى سيرها الخط الزاوى أى قطر الشكل المربع المتوازى الاضلاع

(فى بيان حركة هذه الاكر)

حركة هذه الاكر سريعة جدا وشوهدت سرعتها أحيانا تفوق عن ستين ميلا فى الثانية فتقطع فى زمن وجودها وان كان قصيرا مسافة كبيرة من السماء ويظهر كأنها ألهبتها وأوقدت فيها نارا فاذا وصلت الى نهاية سيرها تتمزق بصوت كالمدفع أو الصواريخ وتنقسم الى قطع صغيرة تطفئ فجأة وتترك فى الهواء بخارا خفيفا معتما يتبدد شيأ فشيأ حتى يزول فى زمن قصير ويسمع عند تمزقها فرقعة وأصوات مرعبة تشبه قوتها صوت طلق جملة مدافع فى آن واحد فتزعزع الهواء وتزعج الارض والآثار القديمة المتينة وترعب جميع الكائنات وبعد غيبوبتها ببعض ثوان بل وقت زوالها بالفعل يسمع فى الجو صفير قوى سريع وتسقط على الارض حجارة

تهدم سقوف الابنية بل الغالب أنها تحرقها وتكسر فروع الاشجار وتجرح وتميت الاشخاص والحيوانات التي تقع عليها كقوله تعالى فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهي من الظالمين ببعيد وفي الآية مسائل

﴿المسئلة الاولى﴾ في الامر وجهان (الاول) أن المراد من هذا الامر ماهو ضد النهي ويدل عليه وجوه (الاول) أن لفظ الامر حقيقة في هذا المعنى مجاز في غيره دفعا للاشتراك (الثاني) أن الامر لا يمكن حمله ههنا على العذاب وذلك لانه تعالى قال فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وهذا الجعل هو العذاب فدلت هذه الآية على أن هذا الامر شرط والعذاب جزاء والشرط غير الجزاء فهذا الامر غير العذاب وكل من قال بذلك قال انه هو الامر الذي هو ضد النهي (الثالث) أنه تعالى قال قبل هذه الآية انا أرسلنا الى قوم لوط فدل هذا على أنهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب الى قوم لوط وبايصال هذا العذاب اليهم * اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى أمر جمعا من الملائكة بأن يخربوا تلك المدائن في وقت معين فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل فكان قوله فلما جاء أمرنا اشارة الى ذلك التكليف * فان قيل لو كان الامر كذلك لوجب أن يقال فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها لان الفعل صدر عن ذلك المأمور * قلنا هذا لا يلزم على مذهبنا لان فعل العبد فعل الله تعالى عندنا وأيضا ان الذي وقع منهم انما وقع بأمر الله تعالى وبقدرته فلم يبعد اضافته الى الله تعالى عز وجل لان الفعل كما تحسن اضافته الى المباشر فقد تحسن أيضا اضافته الى المسبب * الوجه الثاني أن يكون المراد من الامر ههنا قوله تعالى انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون * وههنا وجه ثالث وهو أن يكون المراد من الامر العذاب كما تقدمت الاشارة اليه وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الاضمار والمعنى ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها

﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى في هذه الآية بنوعين من الوصف (فالاول) قوله جعلنا عاليها سافلها * روى أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكب لهم اناء ثم قلبها دفعة واحدة وضرب بها الارض (واعلم) أن هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين (أحدهما) أن قلع الارض واصعادها الى قريب السماء فعل خارق للعادة (والثاني) أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الارض بحيث لم تخر لسائر القرى المحيطة بها البتة ولم تصل الآفة الى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضا (الثاني) قوله وأمطرنا عليها حجارة من سجيل فجعل تعالى جو تلك المدائن متمكونا بالشهب أي الاكر النارية المعقبة بالاحجار (قوله من سجيل) اختلفوا في السجيل على وجوه (الاول) أنه فارسي معرب وأصله سنككل وأنه شئ مركب في غاية الصلابة قال الازهري لما عربته العرب صار عربيا وقد عربت كلمات كثيرة كالديباج والديوان والاستبرق (والثاني) سجيل أي مثل السجل وهو الدلو العظيم

(والثالث)

(والثالث) سجيل شديد من الحجارة (والرابع) مرسلة عليهم من أسجلته اذا أرسلته وهو فعيل منه (والخامس) من أسجلته أى أعطيته تقديره مثل العطية فى الادرار (والسادس) هو من السجل الكتاب تقديره من مكتوب فى الازل أى كتب الله أن يعذبهم بها والسجل أخذ من السجل وهو الدلو العظيمة لانه يتضمن أحكاما كثيرة وقيل مأخوذ من المساجلة وهى المفاخرة (والسابع) من سجيل أى من جهنم أبدلت النون لاما (والثامن) السماء الدنيا وتسمى سجيلا (واعلم) أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات * فالصفة الاولى كونها من سجيل * الصفة الثانية قوله تعالى منضود قال الواحدى هو مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه على بعض وفيه وجوه (الاول) أن تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض فى النزول فأتى به على سبيل المبالغة (والثانى) أن كل حجر فان ما فيه من الاجزاء منضود بعضها ببعض وملتصق بعضها ببعض (والثالث) أنه تعالى عند تكوينها انضد بعضها فوق بعض وأعدها الاهلاك الظلمة (واعلم) أن قوله منضود صفة لسجيل (الصفة الثالثة) مسوّمة وهذه الصفة صفة للاحجار معناها المعلمة واختلفوا فى كيفية تلك العلامة على وجوه (الاول) قال الحسن والسدى كان عليها أمثال الخواتم (الثانى) قال ابن صالح رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع (الثالث) قال ابن جريج كان عليها سيما لا تشارك حجارة الارض تدل على أن الله تعالى انما خلقها للعذاب

(المسئلة الثالثة) قال علماء الهيئة لم يعلم الى الآن بالضبط الارتفاع الذى تبدأ فيه مشاهدة هذه الآثار فان بعضهم شاهدها فى علو ينوف عن ثلثمائة ميل وآخرون رأوها قريبة من سطح الارض وهى كما تحصل على الارض تظهر فى البحر وتمزق فيه بل يقال انها اسقطت حجارة جوية على سفن بينها وبين الجزائر والبرور مسافة كبيرة جدا وأهلكتهم * وقد أمعن الفلاسفة فى الازمنة السالفة أفكارهم وتأملاتهم فى هذه الاكر النارية وأمطارها الحجرية وذكرها بعدهم علماء كل عصر ولم يختلفوا فى أوصافها العمومية وانما حصل الاختلاف فى بعض أشياء خصوصية وقد اطلع بعضهم على الكتب القديمة فوجد حصول هذا الاثر أكثر من مائتى مرة واستمر القدماء زمنا طويلا يعتبرونها أثر غضب آلهتهم وانتقامهم وحفظت تلك الحجارة مقدسة عندهم فى معابد وهيا كل كثيرة ومعدودة آية دالة على عظم جبروته سبحانه وتعالى وقوة سلطانه * وهذه الحجارة متشابهة الطبيعة ولا تختلف عن بعضها الا فى مقدار أجرامها وصلابتها ودقة حبياتها وعدد الجواهر الداخلة فى تركيبها ومقاديرها ولها أسماء كثيرة مثل حجارة الصاعقة وحجارة القمر والحجارة الجوية والحجارة السماوية والحجارة العلوية وغير ذلك ولم يعثر المعدنيون المشتغلون بمعادن الارض الى الآن على معادن أو حجارة شبيهة بتلك الحجارة * وتحصل الاكر النارية فى جميع البلاد وتمزق فى جميعها على حد سواء وحلل حجارتها كثير من الكيماويين وذكروا نتيجة أعمالهم فلم يتبين لهم أن هذه الحجارة فيها مشابهة لحجارة أرضنا واستظهر كثير من الطبيعيين فى أصل هذه الاحجار آراء مختلفة فقال بعضهم انه يمكن أن تكون آتية من براكين القمر أى جبال نيرانه ولذلك

سموها بحجارة القمر وقال بعضهم انها بقايا كواكب وبقايا الهيولى الاصلية تأليفها وانتظام العالم منها وبعضهم اعتبرها أجراما صغيرة كوكبية فى أعمار مختلفة من تكونها تجذبها الارض فى كرة جذبها وقال بعضهم انها مجتمع جو ضوئى لذوات الأذناب وهنالك آراء غير ذلك فلا حاجة لايرادها ههنا

فى بيان قوله تعالى وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون

وفى الاية مسائل

(المسئلة الاولى) اعلم أنه تعالى ذكر فى هذه الآية أنه جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل ليتوصل المكلف بذلك الى معرفة السنين والحساب فيمكنه ترتيب مهمات معاشه من الزراعة والحراثة واعداد مهمات الصيف والشتاء وأوقات العبادات والاستدلال بأحوال الشمس والقمر من الوجهين المذكورين فى هذه الآية مما يدل على التوحيد من وجه وعلى نعم الله تعالى من وجه آخر

(المسئلة الثانية) الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدر هو أن يقال الاجسام فى ذواتها متماثلة وفى ماهياتها متساوية ومتى كان الامر كذلك كان جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لاجل الفاعل الحكيم المختار *أما بيان أن الاجسام متماثلة فى ذواتها وماهياتها فالدليل عليه أن الاجسام لاشك أنها متساوية فى الجسمية والتحيز والجرمية فلو خالف بعضها بعضا لكانت تلك المخالفة فى أمر وراء الجسمية والجرمية ضرورة أن مابه المخالفة غير مابه المشاركة واذا كان كذلك فنقول ان مابه حصلت المخالفة من الاجسام اما أن يكون صفة لها أو موصوفا بها أولا صفة لها ولا موصوفا بها والكل باطل * أما القسم الاول فلأن مابه حصلت المخالفة لو كان صفات قائمة بتلك الذوات لكانت الذوات فى أنفسها مع قطع النظر عن تلك الصفات متساوية فى تمام الماهية واذا كان الامر كذلك فكل ماصح على جسم وجب أن يصح على كل جسم وذلك هو المطلوب * وأما القسم الثانى وهو أن يقال ان الذى به خالف بعض الاجسام بعضا أمور موصوفة بالجسمية والتحيز والمقدار فنقول هذا أيضا باطل لان ذلك الموصوف اما أن يكون جسما ومتحيزا أولا يكون والاول باطل والالزم افتقاره الى محل آخر ويستمر ذلك الى غير النهاية وأيضا فعلى هذا التقدير يكون المحل مثلا للحال ولم يكن كون أحدهما محلا والآخر حالا أولى من العكس فيلزم كون كل واحد منهما محلا للآخر وحالا فيه وذلك محال وأما ان كان ذلك المحل غير متحيز وله حجم فنقول مثل هذا الشئ لايكون له اختصاص بحيز ولا تعلق بجهة والجسم مختص بالحيز وحاصل فى الجهة والشئ الذى يكون واجب الحصول فى الحيز والجهة يمتنع أن يكون حالا فى الشئ الذى يمتنع حصوله فى الحيز والجهة *وأما القسم الثالث وهو أن يقال مابه خالف جسم جسما لاحال فى الجسم ولامحل له فهذا أيضا باطل لانه على هذا التقدير يكون ذلك الشئ شيأ مباينا للجسم لاتعلق له به فحينئذ تكون الاجسام

من حيث ذواتها متساوية في تمام الماهية وذلك هو المطلوب * فثبت أن الاجسام باسرها متساوية في جميع لوازم الماهية فكل ماصح على بعضها وجب أن يصح على الباقي فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر أيضا وبالعكس واذا كان كذلك وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص وايجاد موجد وتقدير مقدر وذلك هو المطلوب فثبت أن اختصاص الشمس بذلك الضوء بجعل جاعل وأن اختصاص القمر بذلك النوع من النور بجعل جاعل فثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وهو المطلوب ..

(المسئلة الثالثة) قال أبو علي الفارسي الضياء لا يخلو من أحد أمرين اما أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط وحوض وحياض أو مصدر ضاء يضوء ضياء كقولك قام قياما وصام صياما وعلى أي الوجهين فالمضاف محذوف والمعنى جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذات نور ويجوز أن يكون من غير ذلك لانه لما عظم الضوء والنور فيهما جعلا نفس الضياء والنور كما يقال للرجل الكريم انه كرم وجود

(المسئلة الرابعة) الضوء اذا وقع على الاجسام المعتمة انعكس وان وقع على الاجسام الشفافة انكسر اذا علمت ذلك فتعلم أن للضوء أحكاما منها أنه ينتشر من الاجسام المضيئة في كل جزء ومنها أنه اذا سرى في وسط ذي طبقة واحدة كالماء والهواء كان سريانه على خط مستقيم ومنها أنه ينعكس اذا وقع بانحراف على جسم معتم صقيل ثم يتجه اتجاها آخر ويسير به على خط مستقيم أيضا ومنها أنه اذا كان الوسط مختلف الكثافة كان سيرها دائما على خط مقوس ولذا كان لا يصل الينا من الشمس على خط مستقيم أصلا لكون طبقات الهواء مختلفة الكثافة وكذا ضوء بقية الكواكب * ومن ذلك تعلم أنه لا يمكننا أن نشاهد كوكبا في حيزه الحقيقي وانما نشاهده قبل بزوغه من الافق وبعد غروبه فيه كما هو شأن سيره على الخط المقوس وعلى حسب كثافة الوسط يكون زيغان الاشعة الضوئية أعني تقوس خط سيرها وذلك اذا وضعت قرصا معدنيا في اناء وأبعدته حتى لا تراه فلو صب في الوعاء ماء شيأ فشيأ لشوهد ارتفاع القرص كلما ارتفع الماء حتى يشاهد القرص بتمامه مع أنه قار في محله وما ذاك الا لكون أشعة القرص ارتفعت في الماء فعلى قياس ما سبق يقال ان الجو المحيط بنا أكثف من الجو الذي فوقه الى حد الكوكب فهو بمنزلة الماء ينكسر عنده ضوء الكوكب فيصل للعين على خط مقوس فيرى الكوكب قبل بزوغه من الافق فعلم أن الانكسار في الهواء مثل الانكسار في الماء موجب لتقوس خط الشعاع غير أن ذلك التقوس يكون في الهواء أكثر بسبب تعدد الانكسار فيه بعدد طبقاته فان الانكسار فيه واحد والشعاع الضوئي هو الاجزاء الضوئية المتجهة من الجسم المضيء الى جهة ما والضغث الضوئي جملة أشعة يجتمع من أحد طرفيها على هيئة الضغث وهو القنو والحزمة الضوئية مجموع أضغاث ثم ان الاشعة ان أتت من بعد عظيم كالاشعة الآتية الينا من الشمس تعتبر

موازية وأشعة الحزمة منفرجة و يعرض لها الانضمام بمرورها فى وسط يجمع أشعتها الى نقطة واحدة تسمى البورة فاذا جاوزت الاشعة تلك البورة أخذت فى الانفراج ثانيا واتجهت على خط مستقيم فى السير الجديد فتكون حزمة ثانية (واعلم) أن شدة الضوء تنقص على حسب مربعات المسافة فاذا أنفذ الضوء من ثقب ضيق ووقع على جسم بعيد عن ذلك الثقب بمسافة ثم أبعد عنه بمسافة ضعف المسافة الاولى زادت سعة السطح المستنير عما كانت أربع مرات ونقصت قوة الضوء عما كانت مثلها وذلك لأن الضوء لم تزد كميته بل انتشر فى مساحة قدر الاولى أربع مرات فضعفت قوته والاجسام الغير النيرة فى ذاتها على ثلاثة أقسام (الاول) الاجسام المعتمة وهى التى لا ينفذ منها الضوء والقول بأن عتامتها آتية من كثافة أجزائها أحسن من القول بأنها من طبيعتها لانها اذا رققت جدا نفذ الضوء منها واذا ألصقت ورقة مرققة من الذهب على جسم زجاجى شوهد منها ضوء مائل للخضرة اذا نظر من خلفها الشمس أو المصباح (الثانى) الاجسام الشفافة وهى التى ينفذ منها الضوء ولا تحجب ماوراءها فيرى ماخلفها أتم الرؤية وهذه ان غلظ حجمها جدا تلونت لانها تشرب حينئذ جزأ من الضوء النافذ فيها فنجد الماء القليل صافيا والماء الكثير أزرق أو أخضر واذا وقف الانسان فى عمق بحر وكان البحر صافيا جدا وفوقه مائة وخمسون قدما من الماء شاهد ضوء الشمس كضوء القمر على الارض لا يزيد عنه بشئ (الثالث) الاجسام النصف شفافة أعنى التى بين الشفافة والمعتمة وهى التى ينفذ فيها بعض الضوء ولا تشاهد من خلفها ألوان المرئيات ولا أشكالها ولا أبعادها كالورق المدهون بالزيت والزجاج الخشن فالاجسام المعتمة اذا صادفها الضوء فى سيره على الخط المستقيم كما ذكرنا لا يستنير منها الا ما كان جهة الضوء والجهة المقابلة يوجد فيها ظل تلك الاجسام ويمتد بعيدا عنها الى مسافة ما وكلما اشتد الضوء زادت قتامة الظل والظل المذكور لا ينتهى من جميع الجوانب بحد قطعى تام بل يظهر فى جوانبه خيال ظلى يأخذ فى الضعف حتى ينتهى وهذا الخيال يسمى بالغبش .

❊(المسئلة الخامسة)❊ اعلم أن الناس اختلفوا فى أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة واذا ثبت أنه عرض فهل حدوثه فى هذا العالم بتأثير قرص الشمس أولا جل أن الله تعالى أجرى عادته بخلق هذه فى الاجرام المقابلة لقرص الشمس بتأثيرها فيهم على سبيل العادة فهى مباحث عميقة وانما يليق الاستقصاء فيها بعلوم المعقولات ❊ واذا عرفت هذا فنقول النور اسم لأصل هذه الكيفية وأما الضوء فهو اسم لهذه الكيفية اذا كانت كاملة تامة قوية والدليل عليه أنه تعالى سمى الكيفية القائمة بالشمس ضياء والكيفية القائمة بالقمر نورا ولا شك أن الكيفية القائمة بالشمس أقوى وأكمل من الكيفية القائمة بالقمر وقال تعالى فى موضع آخر جعل فيها سراجا وقمرا منيرا وقال فى آية أخرى وجعلنا سراجا وهاجا فكلام أهل اللغة مضطرب فى تفسير الوهاج فمنهم من قال الوهج مجتمع الضوء والحرارة فبين الله تعالى أن الشمس بالغة الى أقصى الغايات فى هذين الوصفين وهو المراد بكونها سراجا وهاجا وروى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما

ان

أن الوهاج مبالغة فى الضوء فقط يقال للجوهر اذا تلألأ توهج وهذا يدل على أن الوهاج يفيد الكمال فى الضوء وفى كتاب الخليل الوهج حر النار والشمس وهذا يقتضى أن الوهاج هو البالغ فى الحر * وأما كلام أهل الهيئة فمضطرب أيضا فعظمه سطح الشمس المشاهد لنا مغطى ببقع ونكت تختلف فى العدد والقدر ومع ذلك فالظاهر أنها لا تأثير لها فى عظم الضوء ولا فى الحرارة المنبعثين الينا فى ذلك وهل الشمس جرم مشتعل مسلط عليه نور ان شديد أو أنها كما قال بعضهم كوكب مضىء مسكون بسكان يستضيئون بغمام ملتهب نير أو أنها كما قال بعض متأخرى الطبيعين مؤلفة من طبقات متحدة المركز مختلفة الطبيعة يؤثر بعضها فى بعض كما يحصل ذلك فى صفيحات العمود الكهربائى أو أنها كرة عظيمة من سائل كهربائى متجمع تحدث قوته الجاذبة والدافعة فى أجرام الكواكب معنى غير محسوس يسمى الجاذبة أو التثاقل العمومى ومعارفنا لم تزل الى الآن قاصرة على تحقيق ما هو الأجدر من هذه الاقوال بالصحة

(المسئلة السادسة) قوله وقدره منازل نظيره قوله تعالى فى سورة يس والقمر قدرناه منازل وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون المعنى وقدر مسيره منازل (والثانى) أن يكون المعنى وقدره ذا منازل والضمير فى قوله وقدره فيه وجهان (الاول) أنه لهما وانما وحد الضمير للايجاز والا فهو فى معنى التثنية اكتفاء بالمعلوم لان عدد السنين والحساب انما يعرف بسير الشمس والقمر ونظيره قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه (والثانى) أن يكون هذا الضمير راجعا الى القمر وحده لانه بسير القمر تعرف الشهور وذلك لان الشهور المعتبرة فى الشريعة مبنية على رؤية الأهلة والسنة المعتبرة فى الشريعة هى السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله

(المسئلة السابعة) اعلم ان انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر انتفاع عظيم وذلك أن الشمس فى عشرة فى أذار تدخل برج الحمل فينتشر النور بين القطبين وينور أنصاف كل الدوائر المتوازية فتظلم الأنصاف الاخرى فيستوى النهار والليل فيكون هذا هو الاعتدال الربيعى وكلما تقدمت الارض بوسطها فى دائرة وسط فلك البروج يستضىء القطب الشمالى بالشمس ستة أشهر الى الاعتدال الخريفى ويزيد النور حول هذا القطب الى العاشر من حزيران فيمكث القطب الجنوبى فى الظلام ستة أشهر ويخيم فيه الظلام مسافة مساوية للمسافة التى حصل فيها ازدياد النور جهة القطب الشمالى ثم فى عشر حزيران وآخر ثلاثة أشهر من العاشر من شهر اذار يتوجه القطب الشمالى الى جهة الشمس فيشتد ضوؤها على الاماكن المجاورة لهذا القطب فيكون الضوء مستمرا الى بعد ثلاث وعشرين درجة ونصف فيختفى القطب الجنوبى وما حوله من الاماكن بالكلية عن الشمس الى بعد ثلاث وعشرين درجة ونصف وينتشر ضوء الشمس فى نصف الارض الشمالى وينور أزيد من أنصاف الدوائر المتوازية فيكون النهار فيها أطول من الليل وفى النصف الجنوبى يكون الامر بالعكس فيكون الليل أطول من النهار وتقع المساواة فى الاماكن التى بخط الاستواء فتستوى فيها ساعات الليل والنهار فيكون الصيف فى نصف الارض الشمالى والشتاء فى النصف الجنوبى

قوله ثم فى عشر حزيران الخ كذا بالاصل وهو غير ظاهر اه

فيسمى هذا الزمن المنقلب الصيفي وفي آخر ثلاثة أشهر نحو العاشر من أيلول لا توجه الارض في دورانها قطبيها الى الشمس فيحدث ما كان في العاشر من آذار فيسمى هذا الزمن الاعتدال الخريفي فينعدم الضوء في القطب الشمالي ويغلب فيه الظلام ستة أشهر الى الاعتدال الربيعي وينعكس ذلك في القطب الجنوبي فانه يستضيء دائما ويمكث فيه النهار ستة أشهر ثم بعد مضي ثلاثة أشهر وفي العاشر من كانون أول تتوجه الارض جهة الشمس قطبها الجنوبي فيكون القطب الشمالي بتمامه في الظلام الى بعد ثلاث وعشرين درجة ونصف فيكون وضع الارض حينئذ على عكس وضعها في العاشر من حزيران فيحصل منه نظير ما تقدم ولكن على التضاد وهو طول النهار في النصف الجنوبي وطول الليل في النصف الشمالي فيكون الصيف في الاول والشتاء في الثاني وهذا هو المسمى بالمنقلب الشتوي فهذه أربعة أزمنة ناشئة عن أوصاف الارض الاربعة بالنسبة للشمس وبها انقسمت السنة أربعة فصول وليست هذه الفصول مستوية المدة فان الربيع يمكث نحو اثنين وتسعين يوما وواحدى وعشرين ساعة وست عشرة دقيقة ويمكث الصيف نحو ثلاثة وتسعين يوما وثلاث عشرة ساعة وثلاثا وخمسين دقيقة ويمكث الخريف نحو سبعة وثمانين يوما وسبع عشرة ساعة وثماني دقائق ويمكث الشتاء تسعة وثمانين يوما وساعة واحدة وثلاثين دقيقة

(المسئلة الثامنة) لما تبين أن دائرة الاستواء الارضية تتجه في زمنين مختلفين الى الشمس من السنة وهما الانقلابان دائما في الزمانين الاخيرين في السنة وهما الاعتدالان وبهذه الحركة تنفصل السنة الى الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة تنتظم مصالح هذا العالم وبسبب الحركة العمومية تحصل النهار والليل فالنهار يكون زمانا للتكسب والطلب والليل يكون زمانا للراحة وقد استقصينا في منافع الشمس والقمر في تفسير الآيات الشريفة اللائقة بها فيما سلف وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله تعالى على الخلق وعظم عنايته بهم فانا قد دللنا على أن الاجسام متساوية ومتى كان كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين وحيزه المعين وصفته المعينة ليس الا بتدبير مدبر حكيم قادر قاهر وذلك يدل على أن جميع المنافع الحاصلة في هذه العوالم بسبب حركات الافلاك وبسير الشمس والقمر والكواكب المتعلقة بالحركة المستوية فدائرة وسط فلك البروج هي دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف وهذه الدائرة تمتد الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف من دائرة الاستواء وهاتان الدائرتان تسميان بالمدارين وهما يدلان على موضع الشمس الذي تنتهي اليه في الصعود ثم تهبط الى مثل محلها الذي صعدت منه وهكذا وأما الدائرتان القطبيتان فهما على البعد من القطب بثلاث وعشرين درجة ونصف وهما ما يكون عليهما النهار الدائم أو الليل الدائم مدة كون الشمس في نقطتي الانقلابين ثم ان المدارين ودائرتي القطب يقسمان الارض الى خمس مناطق منطقة شديدة الحرارة ومنطقتان معتدلتان ومنطقتان شديدتا البرودة فالاولى هي ما بين المدارين أشد الاماكن حرا بسبب وجود الشمس دائما في سمت بعض نقطها ويسمى أهلها أرباب الظلين لان الشمس

في وجودها في نصف النهار تتبعت أشعتها في تلك المواضع ستة أشهر جهة الشمال وفي الستة أشهر الاخرى يمتد الشعاع جهة الجنوب والثانية والثالثة كل منهما هو بين أحد الدائرين ودائرة قطبيه ولا تكون الشمس في سمت رأس أهلهما أبدا فيسمى أهلهما أرباب اختلاف الظل لان أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس في الجنوب وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية يرونها في الشمال وأما الرابعة والخامسة فاحداهما من مبتدأ الدائرة القطبية الشمالية الى القطب الشمالي والاخرى من مبتدأ الدائرة القطبية الجنوبية الى القطب الجنوبي وفيهما غاية اشتداد البرودة ويسمى أهلهما أرباب الظل الدوار لان الظل في زمن صيفهم يدور حولهم (واعلم) أنه يوجد في الكرة السماوية دوائر أنصاف النهار ودوائر متوازية ودائرة معدل النهار ودائرة وسط فلك البروج وهذه الدائرة الاخيرة هي دائرة وسط فلك البروج الذي هو منطقة منتهية بدائرتين متوازيتين لدائرة وسط فلك البروج وعرض هذه المنطقة نحو سبع عشرة درجة وفيها سائر الدوائر التي تمر فيها الكواكب ثم ان منطقة فلك البروج منقسمة الى اثني عشر برجا وكل برج ثلاثون درجة وفي كل برج جملة من الكواكب * ثم ان الشمس تقطع بسيرها في كل فصل من فصول السنة ثلاثة بروج للربيع الحمل والثور والجوزاء وللصيف السرطان والاسد والسنبلة وللخريف الميزان والعقرب والقوس وللشتاء الجدي والدلو والحوت كما قال تعالى وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون

﴿المسئلة التاسعة﴾ ما يكون عليه الليل والنهار * ان دائرة الاستواء مستوى الليل والنهار في سائر أيام السنة وكلما حصل التباعد عن هذه الدائرة جهة الشمال والجنوب طال نهار الصيف وليل الشتاء بحسب كيفية البعد قلة وكثرة فاعظم طول النهار في دائرة القطب أربع وعشرون ساعة وأعظم طوله الى نفس القطب يكون من أربع وعشرين ساعة الى ستة أشهر على حسب قرب الاقاليم وبعدها كقوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * معناه نسلخ النهار من الليل أي نميزه منه يقال انسلخ النهار من الليل اذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه وأما اذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت في آخره * فان قيل فالليل في نفسه آية فأية حاجة الى قوله نسلخ منه النهار * فنقول الشئ تتبين بضده منافعه ومحاسنه ولهذا لم يجعل الله تعالى الليل وحده آية في موضع من المواضع الا وذكر آيات النهار معها * وقوله فاذا هم مظلمون أي داخلون في الظلام واذا للمفاجأة أي ليس بعد ذلك أمر ولا بد لهم من الدخول فيه

﴿المسئلة العاشرة﴾ في قوله تعالى والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره وآية لهم الليل نسلخ منه النهار والشمس تجري والقمر قدرناه فهي كلها آية وقوله والشمس تجري اشارة الى سبب سلخ النهار فانها

تجري لمستقر لها وهو وقت الغروب فيفسلخ النهار وفائدة ذكر السبب هو أن الله تعالى لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال أن يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله انما سلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى والشمس تجري لمستقر لها بامر الله تعالى فغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل أن يقال بأن قوله والشمس تجري لمستقر لها اشارة الى أن نعمة النهار بعد الليل كأنه تعالى لما قال وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ذكر أن الشمس تجري فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه فقوله لمستقر اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ووجه استعمال اللام للوقت هو أن اللام المكسورة في الأسماء لتحقيق معنى الاضافة لكن اضافة الفعل الى سببه أحسن الاضافات لأن الاضافة لتعريف المضاف بالمضاف اليه كما في قوله دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشترى للأكل واذا علم أن اللام تستعمل للوقت فنقول وقت الشئ شبه سبب الشئ لان الوقت يأتي بالامر الكائن فيه والامور معلقة بأوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا وأقم الصلاة لدلوك الشمس لان الوقت معروف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجري الشمس وقت استقرارها ويحتمل أن تكون بمعنى الى أى الى مستقر لها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من الجمعة الى يوم الخميس فجاز استعمال ما يستعمل فيه من أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ والشمس تجري الى مستقر لها وعلى هذا في ذلك المستقر وجوه (الاول) مستقرة في مكانها ولها جريان على نفسها وجريان آخر حتى تعود لما ابتدأت منه (الثاني) الليل أى تجري الى الليل (الثالث) أن ذلك المستقر ليس الى الزمان بل هو للمكان وحينئذ ففيه وجوه (الاول) هو غاية ارتفاعها في الصيف وهو قربها منا وانخفاضها في الشتاء وهو بعدها عنا (الثاني) هو الدائرة التي عليها مستقرها حيث لا تميل عن منطقة البروج ويحتمل وهو الوجه الثالث والشمس تجري لمستقر لها لحد معين ينتهي اليه دورها فشبه بمستقر المسافر اذا قطع مسيره وهو مستقر أو لكبد السماء فان حركتها فيه توجد الا أنه يظن أن لها هنالك وقفة فان أصحاب الهيئة قالوا الشمس فلك مستقر يدور فيه سائر الكواكب السيارة وقرئ لا مستقر لها على أن لا بمعنى ليس وقوله ذلك اشارة الى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته أى ذلك الجري البديع المنطوي على الحكم الرائعة التي تحار في فهمها العقول والافهام تقدير العزيز العليم *فان قيل عددت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار لما الوجه المختار عندك قلنا الوجه المختار هو أن المراد من المستقر المكان أى تجري في مستقرها والمجري الذي لا يختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة وذلك تقدير الله تعالى الذي قدر على اجرائها على الوجه الانفع

(المسئلة الحادية عشرة) في قوله تعالى والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم قال الزمخشري لا بد من تقدير مضاف ليتم به معنى الكلام لان القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى انا قدرنا مسيره منازل وعلى ما ذكره يحتمل أن يقال المراد منه والقمر قدرناه ذا منازل لان ذا

الشئ قريب من الشئ ولهذا جاز قوله عيشة راضية لان ذا الشئ كالقائم به الشئ فأتى بلفظ الوصف وقوله حتى عاد كالعرجون القديم أى اذا رجع فى آخر منازله وهو الذى يكون قبيل الاجتماع فى آخر سنة من التسع عشرة دق واستقوس حتى عاد كالعرجون كالشمراخ المعوج وقرئ العرجون بوزن الفرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون والقديم المتقادم الزمان قيل ان ماغبر عليه سنة فهو قديم والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط فى جواز اطلاق القديم عليه وانما تعتبر العادة حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين انها بناء قديم أوهى قديمة ويقال لبعض الاشياء انه قديم وان لم يكن له سنة ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال فى العالم انه قديم لان القدم فى البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه واطلاق القديم على العالم لا يعتاد الا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه (واعلم) أن القمر فى حد ذاته جرم مظلم يكتسب الاستضاءة من شعاع الشمس ثم ان بعض أهل الميقات زعم أن الكلف الذى يرصد فى القمر هو شعوب وجبال كالموجود فى الارض واستظهر خلوه عن الهواء وهو يدور على نفسه فى سبعة وعشرين يوما وثمان ساعات تقريبا فيستقبل شعاع الشمس بأحد جزئيه فى نحو أربعة عشر يوما ويمكث بالجزء الآخر مثلها فى الظلام ولما كانت مدة دوران القمر حول الارض مساوية لمدة دورانه على نفسه لم يظهر لنا الا أحد النصفين فى سائر الحالات ولكون القمر غير مستضئ عبذاته لم يمكنا أن ننظر منه الا الجزء المستضئ بالشمس وهذا هو السبب فى تنوع صوره فى رأى العين * وبيان ذلك أن القمر اذا توسط بين الشمس والارض خفى عن بصرنا لان نصفه المستقبل للارض يكون بتمامه فى الظلام فيسمى قمرا جديدا ومحاقا وتسمى هذه الحالة قرانا وبتقدمه فى السير فى دائرته ومحاذاته بالجزء المضئ يظهر أولا هلالا كالقوس المنحرف بطرفيه جهة المشرق وفى ثامن يوم يظهر فى صورة نصف دائرة لان نصف الجزء المستضئ بشعاع الشمس هو المتوجه جهة الارض فيسمى حينئذ الربع الاول ولا يزال يتقدم حتى يتم نصف دورانه حول الارض الى اليوم الخامس عشر فيوجه الى الارض سائر النصف المستنير الذى يظهر مدورا فيسمى حينئذ بدرا وتسمى هذه الحالة حالة الاستقبال ثم يأخذ الجزء المستضئ المحاذى للارض فى النقصان الى اليوم الثانى والعشرين فلا يظهر لنا الا نصف هذا الجزء فيسمى حينئذ الربع الاخير واذا كان القمر فى الربع الاول أو الاخير يقال هو فى التربيع لان الخط الموصول من القمر الى الارض يصنع زاوية قائمة مع الخط الذى يوصل الارض بالشمس والزاوية القائمة ربع الدائرة واذا كان القران أو الاستقبال يقال انه فى درجة الاجتماع على خط مستقيم

(المسئلة الثانية عشرة) فى قوله تعالى والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم والقمر قدرناه بالنصب باضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ بالرفع على الابتداء أى قدرنا له منازل وقيل قدرنا مسيره منازل وهى ثمان وعشرون الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزبانى الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد

السعود سعد الاخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه فاذا كان فى آخر منازله وهو الذى يكون قبيل الاجتماع حتى يظهر هلالا جديدا يكون كالقوس المنحرف بطرفيه جهة المشرق وقوله حتى عاد كالعرجون القديم (اعلم) أن للقمر دورة فى كل تسع عشرة سنة ترجع فى آخرها صورة القمر كما كانت عليه فى أول هذه المدة ولما كانت السنة الشمسية تفضل على اثنى عشر هلالا جديدا بأحد عشر يوما ظهر أنه اذا كان بين السنتين صفر من السنة الاولى من الدور القمرى فانه يكون فى السنة الثانية أحد عشر يوما والثالثة والرابعة كذلك فتكون الجملة ثلاثة وثلاثين فاذا ألقيت الثلاثين على أنها قمر جديد زاد ثلاث سنوات أولية والسنة الخامسة والسادسة والسابعة بثلاثة وثلاثين فاذا ألقيت الثلاثين على أنها قمر جديد فيكون الباقى ثلاثة والثلاثة الباقية أولا فيكون الباقيان ستة والثامنة والتاسعة والعاشرة قمر جديد والباقى ثلاثة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة قمر جديد والباقى ثلاثة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة قمر جديد والباقى ثلاثة والسابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة قمر جديد فيكون الباقى عن الجميع ثمانية عشر وأحد عشر فهى تسعة وعشرون يوما فى آخرها دق واستقوس حتى عاد كالعرجون القديم

﴿فى بيان الدور القمرى﴾

الدور القمرى هو كل تسع عشرة سنة وقد حسب أهل الهيئة السنة التى قبل التاريخ الرومى فكانت أول الدور وما بعدها هى الثانية منه وهكذا * وكيفية استخراج نسبة السنة للدور أن تأخذ عدد تاريخ السنة المطلوبة وتضيف اليه واحدا وتقسمه على تسعة عشر فما فضل بعد القسمة فهو عدد ما مضى من الدور مثلا اذا أخذت سنة ألف وثمانمائة وستة وسبعين وقسمتها على تسعة عشر كان الفاضل بعد القسمة الصحيحة أربعة عشر فهى عدد دور سنة ألف وثمانمائة وستة وسبعين

﴿المسئلة الثالثة عشرة﴾ فى قوله تعالى لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون اشارة الى أن كل شئ من الاشياء المذكورة خلقه الله تعالى على وفق الحكمة فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر والا لكان تعطل سيرهما وانتظامهما وارتباطهما * وقوله ولا الليل سابق النهار قيل تفسيره أن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهى سلطان النهار وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أى الليل لا يدخل وقت النهار والثانى بعيد لان ذلك يقع ايضا حالا الواضح والاول صحيح ان أريد به ما بيناه وهو أن معنى قوله تعالى ولا الليل سابق النهار أن الشمس تدور على نفسها فى خمسة وعشرين يوما واثنتى عشرة ساعة * وقد استنبطها بعض أصحاب الميقات من تحول كلف الشمس الذى يظهر على ظهرها ورجوعه فى أزمنة مخصوصة * ولها دورة أخرى حول شئ وخلق الله تعالى الكواكب السيارة كل واحد منها له حركتان احداهما تحرك الكوكب على نفسه والاخرى تحركه حول الشمس وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكبا أصلا لان كل كوكب من

قوله حول شئ كذا بالاصل وهو غير ظاهر

الكواكب

الكواكب اذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب الى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة الينا تقدم ذلك الكوكب فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس فتبين أن سلطان الليل يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس فقوله لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر اشارة الى حركتها على نفسها وحركتها الاخرى أى الحركة السنوية وبعدنا وقربنا منها وقوله ولا الليل سابق النهار اشارة الى الحركة اليومية وفيه مسائل

(المسئلة الاولى) ما الحكمة فى اطلاق الليل وارادة سلطانه وهو القمر وماذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الاشارة الى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض فان الشمس جعل تعالى لها دورانين فى ذلك جعل الكواكب السيارة لها دورتين دورة القرب والبعد الذى خلق منها الفصول الاربعة ودورة على نفسها خلق منها تعالى النهار والليل فقال الليل والنهار ليعلم أن الاشارة الى الحركة التى بها تتم الدورة فى مدة يوم وليلة ويكون لجميع الكواكب أو عليها طلوع وغروب وشروق فى الليل والنهار

(المسئلة الثانية) ما الفائدة فى قوله تعالى لا الشمس ينبغى لها أن تدرك بصيغة الفعل وقوله ولا الليل سابق النهار بصيغة اسم الفاعل ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر نقول الحركتان الاوليان اللتان للشمس ولا تدركهما القمر مختصتان بالشمس فجعلهما كالصادرتين منها وذكر بصيغة الفعل لان صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخيط الا أن يكون يصدر منه الخياطة والحركة الثالثة هى التى وقع منها الجذب والدفع فالاول نشأ منه القرب والبعد والثانى نشأ منه الحركة اليومية فهاتان الحركتان ليستا مختصتين بكوكب من الكواكب السيارة بل الكل فيهما مشترك فالحركة ليست كالصادرة منه فاطلق اسم الفاعل لانه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خائط وان لم يكن خياطا

(المسئلة الثالثة) فان قيل قوله تعالى يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا يدل على خلاف ماذكرتم لان النهار اذا كان يطلب الليل فالليل سابقه وقلتم ان قوله ولا الليل سابق النهار معناه ماذكرتم كما تقدم فيكون الليل سابقا ولا يكون سابقا قلنا قد ذكرنا أن المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر وهو لا يسبق الشمس بالحركة والمراد من الليل هنالك نفس الليل وكل واحد لما كان فى عقيب الآخر فكأنه طالبه

(المسئلة الرابعة) فان قيل لم ذكر ههنا سابق النهار وذكر هنالك يطلبه ولم يقل طالبه قلنا ذلك لما بينا من أن المراد فى هذه الآيات من الليل كواكب الليل وهى الكواكب السيارة المختصة بحركة البعد والقرب وهى الحركة السنوية وبالحركة على نفسها وهى الحركة اليومية وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثا لصدور التقضى منه

(المسئلة الرابعة عشرة) قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون يحقق ماذكرناه أى لكل طلوع وغروب وشروق فى يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضا بالنسبة لهذه الحركة وكل حركة فى فلك تخصه

وفيه وجوه (الوجه الاول) التنوين في قوله وكل عوض عن الاضافة معناه كل واحد واسقاط التنوين للاضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير في شيء واحد فلما سقط المضاف اليه لفظا ردّ التنوين عليه لفظا وهو في المعنى معرف بالاضافة (فان قيل) فهل يختلف الامر عند الاضافة لفظا وتركها فنقول نعم وذلك لان قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم الى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه فاذا قال كل كذا يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الاضافة وهذا كما في قبل وبعد اذا قلت أفعل قبل كذا أفاد فهم الفعل قبل شيء مخصوص فاذا حذفت المضاف وقلت أفعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شيء فان قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين قولنا كل فرق فنقول نعم عند قولك كلهم أثبت الامر للاقتصار عليهم وعند قولك كل منهم أثبت الامر أولا للعموم ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم وعند قولك كل أثبت الامر على العموم وتركته عليه (الوجه الثاني) اذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال يسبحون فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) ما بينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيار (ثانيها) أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظرا لكونه لفظا موحدا غير مثنى ولا مجموع ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعا وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاؤا ولا يقول كل جاآ بالتثنية (ثالثها) لما قال ولا الليل سابق النهار والمراد ما في الليل من الكواكب أي كواكب الليل السيارة قال يسبحون

(المسئلة الخامسة عشرة) هذا يدل على أن لكل كوكب سيار فلكا فما قولك فيه * نقول أما السبعة السيارة فلكل واحد كوكب أو كوكبان أو ثلاثة تدور حوله وتسمى هذه الكواكب السيارة أي توابع التوابع وكل واحد له أيضا حركتان حركة على نفسه وحركة حول كوكبه

في بيان قوله تعالى الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها

وفيه مسائل * (المسئلة الاولى) * قال صاحب الكشاف الله مبتدأ والذي رفع السموات خبره بدليل قوله وهو الذي مدّ الارض ويجوز أن يكون الذي رفع السموات صفة وقوله يدبر الامر يفصل الآيات خبر بعد خبر قال الواحدي العمد الاساطين وهو جمع عماد يقال عماد وعمد مثل أهاب وأهب وقال الفراء العمد والعمد جمع العمود مثل أديم وأدم وأدم وقضيم وقضم وقضم والعماد والعمود ما يعمد به الشيء ومنه يقال فلان عمد قومه اذا كانوا يعتمدونه فيما بينهم

(المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الارض وبأحوال النبات * أما الاستدلال بأحوال السموات فقوله بغير عمد ترونها فالمعنى أن هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاؤها هنالك لاعيانها ولذواتها لوجهين (الاول) أن الاجسام متساوية في تمام الماهية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز (والثاني) أن الخلاء لا نهاية له والاحياز المعترضة في ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهي بأسرها متساوية ولو وجب

حصول جسم فى حيز معين لوجب حصوله فى جميع الاحياز ضرورة أن الاحياز باسرها متشابهة فثبت أن حصول الاجرام الفلكية فى أحيازها وجهاتها ليس أمرا واجبا لذاته بل لا بد من مخصص ومرجح ولا يجوز أن يقال انها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها والا لعاد الكلام فى ذلك الحافظ ولزم المرور الى ما لا نهاية له وهو محال فثبت أن يقال الاجرام الفلكية فى أحيازها العالية لاجل أن مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هنالك فجعل لكل مجموع نجمى سرا ساريا يسمى بقوة الجذب والدفع فهذا برهان قاهر على وجود الاله القاهر القادر ويدل أيضا على أن الاله ليس بجسم ولا مختص بحيز لانه لو كان حاصلا فى حيز معين لا متنع أن يكون حصوله فى ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا أن الاحياز بأسرها متساوية فيمتنع أن يكون حصوله فى حيز معين لذاته فلا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لا تنفك عن ذلك الاختصاص وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث فثبت أنه لو كان حاصلا فى الحيز المعين لكان حادثا وذلك محال فثبت أنه تعالى متعال عن الحيز والجهة وأيضا كل ما سما فهو سماء فلو كان تعالى موجودا فى جهة فوق لكان من جملة السموات فيدخل تحت قوله تعالى الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها فكل ما كان مختصا بجهة فوق فهو محتاج الى حفظ الاله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الاله منزها عن جهة فوق * أما قوله ترونها ففيه أقوال (الاول) أنه كلام مستأنف والمعنى رفع السموات بغير عمد ثم قال ترونها أى وأنتم ترونها أى مرفوعة بلا عماد (الثانى) هو أن العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الاجسام انما بقيت واقفة فى الجو العالى بقدرة الله تعالى الذى جعل فيها قوة سارية من بعضها الى بعض أوجبت وقوفها وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى فنتج أن يقال انه رفع السماء بغير عمد ترونها أى ليس لها عمد فى الحقيقة الا قوة وضعها تعالى وتلك القوة هى قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وابقاؤه اياها فى الجو العالى وأنهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك * وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر فهو قوله سبحانه وتعالى وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى (واعلم) أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة (الاول منهما) فيه وجوه (الاول) قوله وسخر الشمس والقمر وحاصله يرجع الى الاستدلال على وجود الصانع القادر العلى القاهر بحركات هذه الاجرام وذلك لان الاجسام متماثلة فهذه الاجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص (الثانى) وأيضا ان كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلا بد أيضا من مخصص لاسيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك فى بعض الاحياز وتسكن فى البعض فحصول الحركة فى ذلك الحيز المعين والسكون فى الحيز الآخر لا بد فيه أيضا من مرجح * وهنالك وجه آخر وهو الثالث أن تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه يحصل من عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلا بد من مقدر (الوجه الرابع) أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة الى الشمال

وبعضها مائلة الى الجنوب وهذا أيضا الاية الا بتدبير كامل وحكمة بالغة (النوع الثاني منهما) قوله تعالى كل يجري لأجل مسمى وفيه قولان (الاول) تحقيقه هو أن الله تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرا خاصا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء ومتى كان الامر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك (والقول الثاني) أن المراد كونهما متحركين الى يوم القيامة وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك بقوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت وقوله اذا السماء انشقت وقوله اذا السماء انفطرت وجمع الشمس والقمر وهو كقوله سبحانه وتعالى ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده * ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال يدبر الامر وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم والاولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالايجاد والاعدام وبالاحياء والاماتة وبالاغناء والافقار ويدخل فيه انزال الوحي وبعثة الرسل عليهم السلام وتكليف العباد وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من أعلى العرش الى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها الا الله تعالى والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شيء فانه لا يمكنه تدبير شيء آخر الا الباري تعالى فانه لا يشغله شأن عن شأن أما العاقل فاذا تأمل في هذه الآية الشريفة علم أنه تعالى يدبر عالم الاجسام وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمحدثات والممكنات * ثم قال تعالى يفصل الآيات وفيه قولان (الاول) أنه تعالى بين الآيات الدالة على الهيته وعلمه وحكمته (والثاني) أن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان (أحدهما) الموجودات الباقية الدائمة كالافلاك والشمس والقمر والكواكب وهذا النوع من الدلائل هو الذي تقدم ذكره (والثاني) الموجودات الحادثة المتغيرة وهي الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والهرم بعد الصحة وكون الأحمق في أهنى العيش والعاقل الذكي في أشد الاحوال فهذا النوع من الموجودات والاحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة * وقوله يفصل الآيات اشارة الى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفصيل * ثم قال لعلكم بلقاء ربكم توقنون (واعلم) أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهي أيضا تدل على صحة القول بالحشر والنشر لان من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على عظمها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر أولى * يروى أن رجلا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه انه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة وكما خلق الاجرام السماوية وخلق حركاتهم دفعة واحدة * وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي وان كان الخلق عجزت عنه وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش الى ما تحت الثرى بحيث

قوله وحاصل الكلام الخ كذا بالاصل والتركيب غير مستقيم اهـ

لا يشغله شأن عن شأن

﴿في بيان قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان وفيه مسائل﴾

(المسئلة الاولى) اعلم أن الله تعالى لما بين أن كونه خالقا لجميع الاجرام وعين حيزها في الفضاء وعين خطوط دوائرها للنفع والانتفاع ذكر أن من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة ولما بقيت حياة الكائنات ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فان نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما تظهر نعمهما ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير وذلك أن الشمس يحصل من سيرها الظاهري المائل حول الارض الفصول الاربعة التي لا تحصل عند سكان ما بين المدارين وتكون اثنين فقط جهة القطبين أما في المناطق المعتدلة فهي أربعة وتكون أدوارها منتظمة فتنتشر في تلك المناطق ومقياس الزمن الذي لا يختل نسقه ولا يتعطل سيره انما يؤخذ من كونها تحرك جميع ما هو معرض لتأثيرها حركة لا تتغير * وقد قسمت منطقة البروج الى اثنى عشر قسما كما قلنا وكل قسم منها ثلاثون درجة ومن سير الشمس بحسب الظاهر في هذه الاقسام تحصل الفصول الاربعة ومددها وذلك أن هذه الكواكب بتركها النصف الجنوبي من الكرة ودخولها في نصفها الشمالي تنفتح السنة الشمسية أعني بمجرد دخولها في برج الحمل وفي ذلك الوقت يبتدئ الربيع الذي يحيا به الكون و يستمر تسلطن هذا الفصل مدة اجتيازالبرج المذكور و برج الثور والجوزاء ثم تدخل على التعاقب في السرطان والاسد والسنبلة وهذه تسمى بفصل الصيف فينبعث الينا منها مدة اقامتها في تلك البروج أشعة شديدة الحرارة ثم بعد بلوغها هذا الارتفاع تنزل جهة النصف الجنوبي فتجتاز على التوالي الميزان والعقرب والقوس ويقال لهذه البروج الثلاثة فصل الخريف ثم يدخل الشتاء فتكون الشمس حينئذ في أبعد نقطة عنا ولا ينبعث منها الينا الا أشعة مائلة فتقطع بروجه الثلاثة أعني الجدي والدلو والحوت ثم ترجع لمحلها الاول

(ومن النعمتين) نعمة القمر الذي هو كوكب الليل وسراجه ويشاهد في هيآت مختلفة كثيرا وهو جرم مظلم كروي كالكواكب السيارة له حركتان احداهما حول محوره وثانيتهما حول الارض و يقطع مداره حول الارض في تسعة وعشرين يوما ونصف تقريبا وهي تسعة وعشرون يوما واثنتا عشرة ساعة وأربع وأربعون دقيقة وثانيتان وثمانية ثوالث وهذا هو المسمى بالشهر القمري ويتم دورته على محوره في سبعة وعشرين يوما ونصف تقريبا ويتأخر طلوعه على الأفق كل يوم خمسين دقيقة ونصف هذا هو الحد الاوسط والسنة الارضية اثنا عشر شهرا قمريا وأحد عشر يوما و يبتدئ دور انتظام الاشهر القمرية بعد كل تسع عشرة سنة تقريبا أو مائتين وخمسة وثلاثين شهرا قمريا وهو كما ذكرنا يستفيد نوره من نور الشمس فيقابلها بجميع أوجهه جزأ فجزأ ولا نشاهد بمقتضى حركاته الا نصف كرته فقط ولا يتغير ذلك النصف أصلا في كل مرة فتارة يستضيء كله وتارة بعضه ومن هذه التغيرات ينشأ ما يسمى بأوجه القمر وهي أربعة القمر الجديد المسمى بالمحاق والقمر الممتلئ أي الكامل المسمى

بالبدر والربع الاول والربع الاخير فاذا كانت الارض بين الشمس والقمر كان هنالك استقبال واذا كان القمر بين الشمس والارض كان هنالك اجتماع واذا كان القمر في وسط المسافة بين محل الاستقبال والاجتماع أعني بعيدا عن كل منهما بتسعين درجة كان هنالك تربيع والقمر حينئذ يكون اما في ربعه الاول واما في ربعه الأخير ثم هو في دورته حول الارض يخط قطعا ناقصا والنقطة التي يكون فيها أقرب الى الارض تسمى حضيضا والتي يكون فيها أبعد عنها تسمى أوجا ومدار القمر الذي يخطه حول الارض ويكون على شكل قطع ناقص مائل عن دائرة وسط فلك البروج المسماة بالدائرة الكسوفية بخمس درج فالقمر غالبا يكون فوق هذه الدائرة أو تحتها ولا يمكن مشاهدة الخسوف الا اذا كان القمر على تلك الدائرة مباشرة وكل من الخسوف والكسوف قد يكون كليا وقد يكون جزئيا على حسب ستر الكواكب عنا كلا أو بعضا ولا نشاهد الكسوفات الشمسية الا في بعض أقطار الارض وتكون كلية وجزئية وحلقية بخلاف الكسوفات القمرية فانه يشاهدها من كان القمر اذ ذاك فوق أفقهم ولا تكون حلقية أصلا ويشاهد في سطح القمر نكت كثيرة لا تتغير ولا تختلف كميتها ولا مقاديرها ومن ذلك استنتج ما ذكرناه من أننا لا نشاهد دائما الا نصفه المحاذي لنا فقط ولجسم القمر تأثير قوي على الارض فتسلطن المد والجزر وحصول كثير من الحوادث ربما كانت حاصلة من تأثير القمر

(المسئلة الثانية) لما كان القمر وحده كافيا في اثبات الوحدانية والقدرة الصمدانية لا يحتاج معه الى دليل آخر قال بعده الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان وغيرهما من الآيات اشارة الى أن بعض الناس ان لم تكن له النفس الزكية التي يعينها الله تعالى بالدلائل التي في القرآن فله في الآفاق آيات منها الشمس والقمر وانما اختارهما للذكر لان حركتهما بحسبان تدل على وجود فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص ولو اجتمع من في العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطؤا أن يبينوا أسرار حركة مجموع نجمي مع مجموع آخر وجملة أعدادها لما بلغ أحد مراده الا أن يرجع الى الحق سبحانه ويقول جعل تعالى لها أسرارا وأعدادا لا يعلمها الا هو كما أراد الرحمن الى قوله تعالى يسجدان

(المسئلة الثالثة) ان في قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ترتيبا من وجوه (أحدها) هو أن الله تعالى لما أثبت كونه رحمانا وأشار الى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن ذكر نعمه العظيمة التي أنعم بها على عباده فضلا وكرما وبدأ بخلق الانسان فانه نعمة جميع النعم به تتم ولولا وجوده لما انتفع بشيء ثم بين نعمة الادراك بقوله علمه البيان وهو كالوجود اذ لولاه لما حصل النفع والانتفاع ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر كما قلنا وشرحنا ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين في الارض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق فان الرزق أصله منه ولولا النبات لما كان للآدمي رزق الا ما شاء الله واصل النعم على الرزق الدار وانما قلنا النبات هو أصل الرزق لان الرزق اما نباتي واما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان ولولا

النبات لما عاش الحيوان والنبات هو الاصل وهو قسمان الأول يشتمل على جميع النباتات التي لها أزهار واضحة والثاني يشتمل على النباتات الخفية الزهر فالقسم الاول ثلاث وعشرون رتبة والنباتات خفية الزهر لا تكون الا رتبة واحدة وهي الرابعة والعشرون وكل من هذه الرتب يشتمل على النبات الذي ليس له ساق والمتطفل على الاشجار والذي له ساق (الثاني النجم) وفيه وجهان (أحدهما) النبات الذي لا ساق له (والثاني) نجم السماء المعلوم والاول أظهر لانه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ذكر أرضيين في مقابلة سماويين ولان قوله يسجدان يدل على أن المراد ليس نجم السماء لان من فسره به قال يسجد بالغروب والشروق وعلى هذا فالشمس والقمر أيضا يغربان ويشرقان فلا يبقى للاختصاص فائدة وأما اذا قلناهما أرضيان فنقول يسجدان بمعنى ظلالهما وانبساطهما وانقباضهما وتأثيرهما وازهارهما فيسجدان فيختص السجود بهما دون الشمس والقمر وفي سجودهما وجوه (الاول) سجودهما من أوراقهما وكثيرا ما يتغير وضع أوراق بعض النباتات تغيرا واضحا من الغروب الى الشروق وذلك أن هنالك نباتات تنبسط أوراقها من الشروق الى الغروب وتنقبض من الغروب الى الشروق وأغلب وقوع ذلك في شجر الصفصاف وشجر اللبخ وشجر السنط والنبات المسمى بالمستحي فور يقات تويجه تنفتح عند ابتداء الليل وتنقبض عند ابتداء النهار واذا لامسها أدنى جسم انبسطت على الارض كالساجدة فجميع أوراق النباتات بهذه الخاصية التي عينها لها المعين الحكيم سبحانه بقوله الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان (الثاني) سجودهما من ازهارهما * الازهار مجموع الاعضاء المعدة لتكوين الثمر ويختلف النبات في التزهر فمنه ما يتزهر في أقل من سنة من مدة زرعه كالنباتات الحشيشية التي منها القمح ومنه ما يتزهر في كل سنة من مدة حياته ومنه ما يتزهر في كل سنتين أو ثلاث من وقت انباته مرة وغالب النبات يتزهر في ابتداء فصل الربيع وبعضه يتزهر في الصيف والقليل في الخريف وأقل منه في الشتاء ومن حيث ان كل نوع منه عين له تعالى التزهر في وقت معين فعين تعالى لتبسم الازهار ساعات مختلفة فمعظم الزهر يتبسم في ساعات النهار كلها ومنه ما تشخص أحداقه وتنقبض في ساعات معينة كزهر اللبين فانه يتبسم عند انصداع الفجر وينقطب قبل الشروق بساعة وزهر البقلة الحمقاء يتبسم قبيل الظهر بقليل وزهر الغاسول يتبسم قبيل الغروب وزهر شب الليل يتبسم في أول ساعة من المساء ويبقى كذلك مدة ساعتين وزهر نبات ست الحسن يتبسم في الساعة الرابعة من الليل ويدوم ابتسامه الى عاشر ساعة منه ولما رأى النباتيون تلك الخاصية العجيبة التي عينها الله تعالى لتلك الازهار بحسب ساعات ابتسامها سموها المؤقتة الزهرية وتنقسم الازهار الى ابتسامات ليلية وابتسامات نهارية فالأولى كزهر بعض أنواع العليق فانه يتبسم بعد الشروق بساعة ويبقى مبتسما الى الزوال والثانية الشب الظريف فانه يتبسم قبل الغروب بساعتين ويبقى مبتسما الى قرب الفجر وهنالك أزهار اعتدالية نسبة الى الاعتدال الربيعي والاعتدال الخريفي وهذه الازهار تبتسم ثغورها وتعبس مرارا في ساعات منتظمة

وتنقسم الى اعتدالية نهارية واعتدالية ليلية فالاولى تبتسم كل يوم قبل الزوال بساعة وتبقى مبتسمة بعد الزوال بثلاث ساعات والثانية تبتسم بعد المغرب وتبقى كذلك الى الصباح فهذه الانقباضات والانبساطات الزهرية التى خصها الله تعالى بها وعينها لها فى أزمنة منتظمة دالة على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله (الوجه الثالث) مجودهما من تأثيرهما * اذا تأمل عاقل فى الاعضاء النباتية التى تكلمنا عليها يتعجب من صنع البارى عز وجل وقدرته جل وعلا وذلك أنه يشاهد الجذور ذات الالياف الشعرية التى تمتص السائلات الكائنة فى الارض بقوة عجيبة وتنقل السائل المغذى الى أوعية النبات وكذلك الى السوق والفروع والاوراق القائمة فى وسط الهواء المعد لتغذيته ثم الاوراق التى هى أعضاء تنفس وتحلب وافراز يمتص بها النبات الهواء ويخرج الابخرة والغازات التى ليست نافعة لغذائه وكذلك الاوعية المختلفة الاشكال التى تدور فيها العصارة اللينفاوية والعصارة المصلحة وكذلك المسام القشرية والخلايا وجميع هذه الاجهزة الحية التى تحصل بها الوظائف النباتية وكل هذه الاعضاء ليس لها الاغاية واحدة هى تغذية الزهر ونحوه * ولنتكلم عليها فنقول ان المشاهدة تثبت لنا أن الجذور والسوق والاوراق والفروع لا توجد الا لتكوين الزهر والزهر لا يوجد الا لتكوين الثمر والثمر لم يخلق الا لتغذية البذر وهذا هو المقصود من الانبات لان القدرة الالهية وجهت جميع الافعال لتناسل النوع وحفظه فى النباتات والحيوانات ثم ان أعضاء التناسل كما فى الحيوانات تتكون من عضو الذكر وعضو الانثى فحينئذ توجد مشابهة عظيمة بين النباتات والحيوانات فى الكائنات العضوية حيث ان أهم الوظائف وهو التلقيح يحصل بكيفية تحصل بها المشابهة بينهما وباجتماع أعضاء التناسل النباتية مع بعضها يتكون الزهر ويوجد فى النبات ذكر وأنثى كما فى النخيل ومنه خنثى فاذا بحثنا فى زهر من الازهار نرى أن عضو التأنيث شاغل للمركز دائما وحوله أعضاء التذكير ومن المشاهد أيضا أن عدد أعضاء التذكير يكون دائما أكثر من عدد أعضاء التأنيث لان الحكمة الالهية اقتضت اتقان هذه الاشياء اتقانا بديعا محكما لانه قد يتفق أن أعضاء التذكير لا يكون جميعها صالحا للتلقيح فيقوم البعض مقامها وعضو التأنيث وعضو التذكير كل منهما مركب من ثلاثة أجزاء فعضو التأنيث يكون وضعه فى وسط الزهرة وهو أنبوبة فيها بعض طول وهى فى النبات بمنزلة المهبل فى الحيوانات ويوجد فى قاعدة تلك الانبوبة كرات صغيرة تستحيل بعد التلقيح الى بذر وهذه الكرات فى النبات بمنزلة الرحم والمبيض فى الحيوانات ويوجد أيضا فى الجزء العلوى من الانبوبة بعض انتفاخ له فوهة يكون بمنزلة فوهة المهبل فى الحيوانات وعضو التذكير متكون أيضا من ثلاثة أجزاء الاول العسيب وهو خيط رفيع الثانى يوجد فى الطرف الاعلى للعسيب بعض انتفاخ يشبه الحشفة الثالث يوجد فى هذه الحشفة غبار وهو الطلع وفى الورقة التى يحصل فيها التلقيح كثيرا ما نشاهد فى الاعضاء التناسلية للنبات تغيرات محسوسة تسبق هذه الوظيفة وأن هذه الاعضاء تفعل حركات مختلفة الوضوح * ولنذكرها فى بعض النباتات

التي تكون فيها أوضح فنقول * أعضاء التذكير القشرة التي توجد في أزهار السذاب تنعطف نحو أعضاء الاناث وتنحني بعد أن كانت موضوعة وضعا أفقيا أولا وتضع عليها أجزاء من طلعها ثم تنعطف الى الانتصاب واحدا بعد واحد وأعضاء الاناث تنحني وتقصر وتفتح الفوهة الهبلية وبعده تنتصب وفي جملة أجناس مثل حشيشة الزجاج وشجرة التوت الورقية تكون أعضاء التذكير منعطفة نحو مركز الزهرة أسفل أعضاء الاناث وكذا خيوط أعضاء التأنيث تفعل في بعض نباتات حركات أيضا لكي تتجه نحو أعضاء التذكير وهذا مما يشاهد في بعض أنواع التين الشوكي وفي نبات حبة البركة تخيوط أعضاء التأنيث أو فروع الخيوط المتقاربة من بعضها تتباعد أولا وتنعطف نحو أعضاء التذكير بانحناآت وتنتصب ثانيا متى ألقت أعضاء التذكير طلعها عليها وأيضا عدة نباتات مائية كالدمثين الكبير والدمثين الصغير وبرسيم الماء وغير ذلك أزهارها الزهرية تكون مختفية أولا تحت الماء ثم يرى أنها تأخذ في القرب من سطحه شيأ فشيأ فتظهر عليه وتبتسم ومتى حصل التلقيح تنزل ثانيا تحت الماء لكي تنضج فيه بذرها فالحكمة الالهية خصت كل نبات بخاصية عجيبة من الحركات المشتملة على الانبساط والانقباض والدواء والغذاء والسم فأشار اليها بقوله جل من قائل الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان (الوجه الرابع) سجودهما من جذورهما وجذوعهما وفروعهما (اعلم) أن الجذر هو الجزء الاسفل من النبات وغالبه يكون مستترا في الارض مستعدا للتعمق على خط مستقيم وقد توجد جذور تكون غير مستترة كجذور الطحلب وغيره من النباتات المائية واستعداد الجذور للتعمق هو الخاصية التي خصها الله تعالى بها من الامتداد في الارض وجزء الجذر الاعلى الحاف على سطح الارض الحائل بين الجذور والساق يسمى عنق الجذر أو عقدة الحياة والساق والجذع اسمان لمسمى واحد وهو الجزء الذي يعلو عنق الجذر مستعدا للارتفاع ومنه تتفرع الفروع وتنبت الاوراق وتخرج الثمار فالنبات الذي لا ساق له يسمى نجما وعقدة الحياة فيه تقوم مقام الساق والفروع تولدات أو شعب من الساق تنشأ من الجراثيم النابتة من الخشب من طرف تولد نخاعي ومن حيث انها كالاوراق في الوضع فلا نفردها بالتعريف لان ما يتعلق بها يعرف من الكلام على الاوراق غير أننا ننبه على ما يحدث لها من التسمية بالنظر لاتجاهها مع الساق فنقول * متى كانت الساق منتصبة وكونت عند اجتماعها بالفروع زاوية حادة سميت الفروع مرتفعة أو صاعدة أو مستقيمة وان كانت متقابلة أو فقية وكونت مع الساق زاوية تقرب من الاستقامة كفروع شجر الحور بالمهملة سميت منفرجة وان تفاوتت وكونت مع الساق الزاوية المذكورة كفروع الزنزلخت سميت جهرية وان كانت أطرافها أنزل عن محل اندغامها في الساق حتى صارت كقوس تقعيره يلي الارض كفروع الصفصاف سميت منكبة وان انسدلت أطرافها انسدالا يقرب من الاستقامة لضعفها وطولها كالصفصاف المسمى سميت مدلاة وان تساوت في العلو كفروع الصنوبر سميت سامية أو مصفصفة وان استقامت وانضمت من أسفل حتى اكتسب منها النبات شكلا اهراميا كالسرو سميت أهرامية وأما

فروع الشجر التي ليس لقممها المطرية الا طبقة واحدة خشبية فتسمى أخلافا * والورق جزء
من الساق يخرج منفرشا بأن تنفصل عن الساق حزيمات ألياف وتتباعد عن بعضها
فينفرش المنسوج الخلوي انفراشا رقيقا ميتوما و بذلك الانفراش تتثبت الحزيمات وتنتظم
فيتكوّن الورق والتباعد المذكور للألياف اما أن يكون حال خروجها من الساق أو بعد
أن يبقى فيها بعض طول ففي الحالة الأولى تتكوّن الاوراق اللاذنيبية وفي الثانية تتكوّن
الاوراق الذنيبية والذنيب حزيمة ألياف متصلة ببعضها تضم الورق بالساق * ومنسوج
النباتات مكوّن من أجزاء أعظمها القشرة المركبة من البشرة والمنسوج الخلوي والمنسوج
الخشبي المسمى بالوعائي ليس الانوعا من المنسوج الخلوي وهو مكوّن من أنابيب ذات تفرعات
تسمى بالاوعية الليمفاوية وأنابيب أخرى تسمى بالاوعية الهوائية فالأولى تمر فيها السوائل
المغذية والثانية الغازات والهواء ويوجد قصبات تكون بين النسيج الخلوي والاوعية

في بيان كيفية التغذي

وكيفية التغذي أن جذر النبات من أطرافه الدقيقة يمتص السوائل الصالحة من الارض
فتسري السائلات الى أعلى الشجرة وكيفية ذلك هي أن العصارة المائية حال دخولها في
النبات تسري في الاوعية الليمفاوية المحيطة بالنخاع فتسد الاوعية ومتى انسدت الاوعية
نفذت العصارة في الاوعية الكائنة بين الطبقات الخشبية وان العصارة كما تتجه في سيرها
اتجاها عموديا تتجه اتجاها أفقيا أيضا لان أكثر الانابيب الليمفاوية اما أن تكون ذات مسام
أو شقوق ترشح منها العصارة بواسطة المنسوجات الخلوية وتنفذ في أوعيتها الجانبية

في حقيقة التغذية

التغذية وظيفة بها تمثل النباتات جزأ من الجواهر الصلبة والسائلة والغازية المنتشرة في
باطن الارض أو في وسط الجوّ بعد أن تمتصها منها اما بالاطراف الدقيقة لأليافها وهي
الالمام الاسفنجية واما بالاجزاء الخضر التي تنمو في الهواء * فالتغذية من باطن الارض
بواسطة أن الجذور تمتص الماء المتحمل بالاصول المغذية التي توجد ذائبة فيه باطراف أليافها
الصغيرة الدقيقة جدا وهي التي سميناها بالالمام الاسفنجية لكن جميع الاجزاء الخضر
للنباتات كالاوراق والفروع ونحوها متمتعة بقوّة امتصاص شديد جدا فتمتص الهواء وبعض
غازات من الجوّ تكون صالحة للينفا المغذية وهي كالتنفس في الحيوانات فالسوائل التي
امتصتها الجذور اختلطت مع السوائل التي دخلت في النباتات بالتأثير الماص لأوراقه
فيتكوّن ما يسمى بالعصارة الليمفاوية أي السائل المغذي للنبات فاذا وجد تياران متضادّان
للعصارة الليمفاوية فتصعد من الجذور الى الاوراق وبعد تنوّعها وانصلاحها في هذه
الاعضاء تنزل ثانيا من الاوراق نحو الجذور فظهر حينئذ أن النباتات كالحيوانات لها تنفس
حقيقي وهذه الوظيفة متضاعفة فيها لانها لا تحصل في الاوراق التي هي المؤثرات الرئيسة
للتنفس فقط بل فيها وفي أغلب الاجزاء الأخرى للنبات بواسطة الاوعية الحلزونية فالنباتات
تتنفس بالاوراق وبأنابيب هوائية وهي الاوعية الحلزونية لجميع العناصر الآتية من

التنفس تختلط بالعصارة الليمفاوية تنصلح وتتجرد عن المقدار الزائد من الاصول المائية بالتبخير وعن الجواهر التى صارت غير نافعة للتغذية ولذا يحصل فيها انصلاح مخصوص فتكتسب خواص جديدة ومتى تبعت طريقها معاكسا للذى مرّت فيه تنزل ثانيا من الاوراق نحو الجذور من خلال الطبقات الشكبية أى الجزء القابل للنمو من القشرة

﴿فى بيان الامور المختصة بالليمفا﴾

واصعود الليمفا فى الاوعية ونزولها الى الجذور جملة أمور (الاول الحرارة) لانها أعظم مؤثر فى صعودها لكونها تنعش القوة الحيوية الجامدة من البرد وتساعد القوة المذوبة على تحليل الجواهر الفردة الغذائية وتركيبها (الثانى الضوء) فان له تأثيرا عجيبا فى جميع وظائف النبات وبدونه تضعف قوة الانبات ويصاب النبات بسوء القنية فيموت (الثالث) شوهد أن النبات النامى فى بيت معدّ لوقايته ينعطف الى جهة كوات البيت ويميل الى منافذه الآتى منها الضوء وأن الجزء المستنير أقصر من المظلم وان الاجزاء المظللة تطول طالبة للضوء ويضعفها فتنحنى الى جهته (الرابع) أن دورة العصارة والتغذية لا تتمان الا بواسطة فعل عضوى مصاحب لارتفاع وانحطاط فى درجة الحرارة فبسبب تعاقب هذه الافعال تحصل حركة مستمرة فى المنسوج النباتى فينشأ عنها نوع انقباض وعانى يتحرك به جميع أعضاء النبات وباستمرار حركة الليمفا فى الانابيب تصعد حتى تنتهى الى قمم الفروع وحينئذ لا يمكنها التقهقر والرجوع لان قوة صعود العصارة الجديدة من فعل الاعضاء تمنعها من ذلك فتسرى بين القشرة والخشب وترجع للجذر ثانيا فظهر لك مما ذكرناه أن جميع وظائف النبات صادرة من هذه الافعال وذلك بان تحصل قطع جزء شجرة من الخور حال نباتها ورقها فحين وصول القطع الى نصف قطر الساق ينبثق منها ماء رائق شفاف ويسمع لخروجه نوع صفير صادر من فراقع الهواء المصاحبة لانبثاق الماء ثم اثقب شجرة أخرى فحين وصول الثقب الى المحور ينبثق من الاوعية القريبة من النخاع مقدار عظيم من الماء مختلط بالهواء ويسمع الصفير المذكور ويستمر يسمع مدة الصيف ويقوى اذا اشتد حر الشمس ويكثر التحلب ويكون بالليل ضعيفا جدا والادوية الرديئة تؤثر على النباتات بالرداءة كما تؤثر على الحيوانات وذلك أن السوائل القابضة اذا وضعت على محل قطع عرق فى الحيوانات قبضت فوهته ومنعت النزيف والنباتات كالحيوانات فى ذلك فاذا بل محل قطع الفربيون بأحد السوائل القابضة وقف بزوغ العصارة أوقل وجميع المهيجات التى تهيج أنسجة الحيوانات تهيج أيضا أعضاء النبات أو تميته اذا عرفت ذلك علمت أن كل ما أثر فى الحيوانات أثر فى النبات حتى النخس فعلى هذا لو نخست أعضاء التذكير من نبات التين الشوكى أو غيره بابرة ولو رقيقة جدا يشاهد فى العضو المنخوس تقلصات وحركات أشد من حركات الاضطراب فالحكيم المخصص الذى خصص هذه النباتات من النعم بالازهار والاثمار والبذور والسكر والصموغ والادوية النافعة والمسمة فسبحانه من اله أتقن كل شئ وجعل فيها خضوعا له سبحانه وتعالى وأخرجها من الارض وأدامها وأثبتها عليها

باذنه فسخر الشمس والقمر كلامنهما بحركتين وسخر النجم والشجر بحركتي الانقباض والانبساط وبحركة العصارة الصاعدة والنازلة وجعل سبحانه وتعالى رؤس الشجر في الارض وأطرافها في الهواء فجميع انقباض أعضاء النباتات الصاعدة والنازلة يميل الى السجود لهذا الرب المعبود كما قال تعالى الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان وقد بسطنا الكلام لاقتضاء المقام فنحمد الله تعالى ونشكره ونتوب اليه ونستغفره من جميع الذنوب والآثام

﴿في بيان قوله تعالى فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾

وفيه مسائل *﴿المسئلة الأولى﴾* ان الصبح صبحان الاول الصبح المستطيل كذنب السرحان ثم تعقبه ظلمة خالصة ثم يطلع بعده الصبح المستعرض في جميع الافق وهو الصبح الثاني الذي هو الضوء يبشر بالصباح ويشتت ظلمات الليل وهو معدوم في خط الاستواء وانما تبتدئ مشاهدته في الاجزاء الجنوبية من المناطق المعتدلة ويقوى ظهوره كما قربت الاقطار القطبية وأهل تلك البلاد يمكثون أربعة أشهر تقريبا بدون رؤية الشمس غايته أن الصبح في هذا الليل الطويل يضيء عليهم اضاءة تكفي لاجتيازهم السهول والاراضي وضوء الشروق الذي يشاهد عند طلوع الشمس يعقب الصبح كما أن ضوء الغروب يسبق الشفق وما ذلك الا أن ضوء هذا الكوكب يبقى نافذا في فضاء الجو حتى يصل الينا وتنسب تلك الانوار المدهشة البارقة التي تسبق الشمس وتصحبها حيثما تقارب حد الافق لكثافة الجو وللأبخرة السابحة فيه وهذه الالوان اللامعة اشبهها بالصبح والشروق والشفق لا تظهر في سماء سكان المدارين فالقدرة الربانية والحكمة الالهية لم ترد كمال انتشار تلك الحوادث المشرقة ووصولها الى غاية جمالها واضاءتها البارقة الا لسكان القطبين فكلما لاحت هنالك تلك الانوار البهية يحصل في عقولنا اندهاش وفي أفكارنا اضطراب ويزيد ايقاننا بوجود مبدع حكيم صانع للموجودات وهو بكل شئ عليم

﴿المسئلة الثانية﴾ ان جميع الطبيعيين والفلاسفة تحيروا في كيفية ضوء الشمس وحرارتها فمنهم من قال الظاهر أنها لا تأثير لها في عظم الضوء ولا في الحرارة المنبعثين الينا من ذلك الكوكب ومنهم من قال هل الشمس جرم مشتعل مسلط عليه نوران شديد أو أنها كوكب مضيء مسكون بسكان يستضيؤن بغمام ملتهب نيرأو أنها كما قال متأخرو الطبيعيين مؤلفة من طبقات متحدة المركز مختلفة الطبيعة يؤثر بعضها في بعض أو أنها كرة عظيمة من سائل كهربائي أي مجتمع تحدث قوته الجاذبة والدافعة في أجرام الكواكب معنى غير محسوس يسمى الجاذبية أو التثاقل العمومي ثم قالوا بعد هذا معارفنا لم تزل الى الآن قاصرة عن معرفة ذلك * ونحن نقول هب أن النور الحاصل في العالم انما كان بتأثير الشمس الا أنا نقول الاجسام متماثلة في تمام الماهية ومتى كان الامر كذلك كان حصول هذه الخاصية لقرص الشمس يجب أن يكون بتخليق الفاعل المختار مكور الليل على النهار

﴿أما بيان المقام الاول﴾ فهو أن الاجسام متماثلة فى كونها اجساما ومتحيزة كما تقدم فلو حصل الاختلاف بينها لكان ذلك الاختلاف واقعا فى مفهوم مغاير لمفهوم الجسمية ضرورة ان مابه المشاركة مغاير لما به المخالفة فنقول ذلك الامر اما أن يكون محلا للجسمية أو حالا فيها أولا محلا لها ولا حالا فيها والاول باطل لانه يقتضى كون الجسم صفة قائمة بذات أخرى وذلك محال لان ذلك المحل ان كان متحيزا أو مختصا بحيز كان محل الجسم غير الجسم وهو محال وان لم يكن كذلك كان الحاصل فى الحيز حالا فى محل لا تعلق له بشئ من الاحياز والجهات وذلك مدفوع فى بديهة العقل والثانى أيضا باطل لانه على هذا التقدير الذوات هى الاجسام ومابه حصلت المخالفة هو الصفات وكل ماصح على الشئ صح على مثله فلما كانت الذوات متماثلة فى تمام الماهية وجب أن يصح على كل واحد منها مايصح على الآخر وهو المطلوب * والقول بأن مابه حصلت المخالفة ليس محلا للجسم ولا حالا فيه فساده ظاهر فثبت اذا بالبرهان أن الاجسام متماثلة واذا ثبت هذا فنقول كل ماصح على أحد المثلين فانه يصح أيضا على المثل الثانى واذا استوت الاجسام بأسرها فى قبول جميع الصفات على البدل كان اختصاص جسم الشمس بهذه الاضاءة وهذه الانارة لا بد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار الواحد القهار واذا ثبت هذا كان فالق الاصباح فى الحقيقه هو الله تعالى وحده وذلك هو المطلوب والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿المسئلة الثالثة فى تقرير هذا المطلوب﴾ ان الظلمة شبيهة بالعدم بل البرهان القاطع قد دل على أنه مفهوم عدمى والنور محض الوجود فاذا أظلم الليل حصل الخوف والفزع فى قلب الكل فاستولى النوم عليهم وصاروا كالاموات وسكنت المتحركات وتعطلت التأثيرات ورفعت التفصيلات فالنوم سكون جميع وظائف المخالطة كما أن السهر تحركها والسبب المسبب للنوم تعب الجهاز العصبى وسببه الحقيقى نقصان وفور الدم نحو المخ فكلما تحول الدم عن هذا العضو يسعفه النوم والوسائط المسعفة فى تولد النوم هى عدم المنبهات البدنية والخارجية للجهاز العصبى فالخارجية كالضوء والبدنية كالحركات العضلية والنفسانية والنوم اذا حصل وقت الليل فانما هو من حيث ان الاعضاء كانت من تعب النهار ولم يبق فيها منبه فاذا وصل نور الصباح الى هذا العالم فكأنه نفخ فى الصور مادة الحياة وقوة الادراك فضعف النوم وابتدأت اليقظة بالظهور وكلما كان نور الصباح أقوى وأكمل كان ظهور قوة الحس والحركة فى الحيوانات أكمل ومعلوم أن أعظم نعم الله تعالى على الخلق هو قوة الحياة والحس والحركة ولما كان النور هو السبب الاصلى لحصول هذه الاحوال كان تأثير قدرة الله تعالى فى تخليق النور من أعظم أقسام النعم وأجل أنواع الفضل والكرم اذا عرفت هذا فكونه سبحانه فالق الاصباح من أجل البراهين فى كونه دليلا على كمال قدرة الله تعالى ومن أجل اقسام الدلائل فى كونه فضلا ورحمة واحسانا من الله تعالى على الخلق

﴿المسئلة الرابعة﴾ قال بعضهم الفالق هو الخالق فكان المعنى خالق الاصباح وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل والله تعالى أعلم بحقيقة كلامه وأسرار كتابه * وأما قوله تعالى وجاعل

الليل سكنا فاعلم أنه تعالى ذكر فى هذه الآية الشريفة ثلاثة أنواع من الدلائل الفلكية الدالة على التوحيد (فاولها) ظهور الصباح وقد فسر بمقدار الفهم (وثانيها) قوله وجعل الليل سكنا قال صاحب الكشاف السكن ما يسكن اليه الرجل ويطمئن اليه استئناسا به واسترواحا اليه من زوج أو حبيب ومنه قيل للنار سكن لانه يستأنس بها ألا تراهم سموها المؤنسة ثم ان الليل يطمئن اليه الانسان لانه تعب بالنهار فاحتاج الى زمان يستريح فيه وذلك هو الليل كما قال تعالى وجاعل الليل سكنا فتسكن فيه جميع الحواس لتعويض مانقص منها ونوم هذه الاعضاء أعنى أعضاء الحواس يكون على التوالى فأول ما يسكن وظيفة الابصار ثم الذوق ثم الشم و يبقى كل من السمع واللمس متيقظا بعض تيقظ ليوصل بعض احساسات ثم تتناقص الادراكات الغير المنتظمة شيأ فشيأ حتى تزول بالكلية فان قيل ان الخلق يبقون فى الجنة فى أهنى عيش مع أنه ليس هناك ليل فعلمنا أن وجود الليل والنهار ليس من ضروريات اللذة والخير فى الحياة قلنا كلامنا فى أن الليل والنهار من ضروريات مصالح هذا العالم فى الدنيا وأما الدار الآخرة فهذه العادات غير باقية فيها فظهر الفرق (وثالثها) قوله تعالى والشمس والقمر بحسبان وفيه مباحث

﴿المبحث الاول﴾ معناه أنه قدر حركة الشمس والقمر بحسبان معين من السنين والشهور ولو قدرنا كونهما أسرع و أبطأ مما وقع لاختلت مصالح العالم فهذا هو المراد من قوله والشمس والقمر بحسبان

﴿المبحث الثانى﴾ فى الحسبان قولان (الاول) وهو قول أبى الهيثم أنه جمع حساب مثل ركاب وركبان وشهاب وشهبان (والثانى) أن الحسبان مصدر كالرجحان والنقصان وقال صاحب الكشاف الحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب ونظيره الكفران والغفران والشكران اذا عرفت هذا فنقول معنى جعل الشمس والقمر حسبانا جعلهما على حسبان لان حساب الاوقات ليس الا بدورهما وسيرهما

﴿المبحث الثالث﴾ قد صح بالحساب أن النجوم تتقدم كل يوم فى الوصول الى خط نصف النهار بنحو أربع دقائق عن وصولها فى اليوم السابق وما يقطعه النجم من الزمن فى رجوعه الى خط نصف النهار يسمى يوما نجميا وزمن اليوم النجمى أربع وعشرون ساعة الا أربع دقائق وهذه المدة أيضا هى المدة الحقيقية التى تسيرها الشمس على حسب الظاهر وقد تقدم الكلام على علة تعويق القمر فى حلوله فى خط نصف النهار باحدى وخمسين دقيقة وهذه العلة هى علة تأخر الشمس كل يوم نحو أربع دقائق عن ظهورها فى النصف ولما كانت الشمس على حسب الظاهر لا تسير كل يوم فى دائرة وسط البروج الا درجة ولا تقطع منه الا درجة واحدة احتاج الامر أن نجعل لها درجة زائدة كل سنة حتى يمكن أن ترجع وتصل الى المحل الذى انتقلت منه يعنى خط نصف النهار الذى ابتدأت منه السير وهذا كله هو السبب فى كون السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم والسنة النجمية ثلاثمائة وستة وستين يوما وربع يوم * واليوم النجمى مستوى الزمن دائما وليس كذلك اليوم الشمسى

لان

لان الارض حين بعدها الاقرب تعوق الشمس بعض شيء عن الظهور في خط نصف النهار فيكون اليوم حينئذ أزيد من أربع وعشرين ساعة واذا كانت الارض في البعد الابعد فلا يبلغ أربعا وعشرين ساعة وقد سمي أهل الهيئة الساعات التي تحسب بالشمس الزمن المختلف والزمن الحقيقي وسموا الساعات التي تؤخذ من ساعة صحيحة مضبوطة الزمان الاوسط وهذان الزمانان ليسا دائمين متفقين لان أيام الشمس ليست مستوية الزمن فقد يكون الاختلاف ربع ساعة ففي الشتاء تكون ساعات الزمان الاوسط أطول من ساعات الزمان المختلف وعكس ذلك يقع في الصيف

(المبحث الرابع) السنة هي الزمن الذي تسيره الشمس على حسب الظاهر وهو مسافة ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وخمس ساعات وخمس وأربعين دقيقة ولاجل التسهيل قالوا ثلاثمائة وخمسة وستون يوما ثم اعتبروا ما ألقوه وأهملوه فوجدوه نحو يوم في كل أربع سنوات سنة كبيسة تقال على السنة التي يضاف اليها في كل أربع سنين يوم وهذا اليوم مجمع مما ألقي في كل سنة وهو ست ساعات فبهذا اليوم تصير السنة الرابعة ثلاثمائة وستة وستين يوما مع أنها في السنة البسيطة أي المعتادة ثلثمائة وخمسة وستون يوما وكما تعتبر البساطة والكبس في السنة الشمسية تعتبران كذلك في السنة القمرية التي هي احدى سني التاريخ العربي ومبدأ هذا التاريخ العربي من هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة المشرفة الى المدينة المنورة وأوله يوم الجمعة الموافق لاربعة من شهر حزيران الرومي سنة ستمائة واثنتين وعشرين من الميلاد وبعضهم يقول ان أوله يوم الخميس الموافق لثلاثة من حزيران من تلك السنة ولما كانت سنو هذا التاريخ قمرية غير متعلقة بسير الشمس كانت غير متوافقة المبدأ مع السنين الشمسية وأول شهورها شهر المحرم وآخرها ذو الحجة وهذه الشهور قسمان أفراد وأزواج يعني مركبة من ثلاثين يوما وتسعة وعشرين يوما على التعاقب كما في الجدول الآتي وهي قسمان بسيطة وكبيسة فالبسيطة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما والكبيسة ثلاثمائة وخمسة وخمسون يوما وهذه السنوات تنقسم أيضا من جهة أخرى الى أدوار كل دور ثلاثون سنة تسع عشرة منها بسيطة واحدى عشرة كبيسة وهذه الاخيرة هي الثانية والخامسة والسابعة والعاشرة والثالثة عشرة والسادسة عشرة والثامنة عشرة والحادية والعشرون يعني من الدور واليوم مبدؤه بعد غروب الشمس ثم ان أول الشهر عند العرب أو غيرهم هو موافق لثامنه وخامس عشره والثاني والعشرين منه والتاسع والعشرين ولنذكر لك هنا جدولا تعرف به استخراج أوائل شهور السنة وهو هذا

محرم ٣٠	صفر ٢٩	ربيع أول ٣٠	ربيع ثاني ٢٩	جمادى أولى ٣٠	جمادى ثانية ٢٩	رجب ٣٠	شعبان ٢٩	رمضان ٣٠	شوال ٢٩	ذو القعدة ٣٠	ذو الحجة ٣٠
١	٣	٤	٦	٧	٢	٣	٥	٦	١	٣	٤
٢	٤	٥	٧	١	٣	٤	٦	٧	٢	٣	٥
٣	٥	٦	١	٢	٤	٥	٧	١	٣	٤	٦
٤	٦	٧	٢	٣	٥	٦	١	٢	٤	٥	٧
٥	٧	١	٣	٤	٦	٧	٢	٣	٥	٦	١
٦	١	٢	٤	٥	٧	١	٣	٤	٦	٧	٢
٧	٢	٣	٥	٦	١	٢	٤	٥	٧	١	٣

يعني اذا كان محرم يوم الاحد فاول صفر يوم الثلاثاء وأول ربيع الاول يوم الاربعاء وهكذا واذا كان أوله يوم الاثنين فانه يكون أول صفر يوم الاربعاء وربيع الاول يوم الخميس وهكذا واذا كان أول محرم يوم السبت فانه يكون أول صفر يوم الاثنين وأول ربيع الاول يوم الثلاثاء وقس على ذلك وبهذا تعرف كيفية استخراج السنة الهلالية الحسابية من هذا الجدول * وأما السنون الرومية فانها تبتدئ من سنة ثلاثمائة واثنتي عشرة مضت من ظهور سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ويحسبون من ابتداء الثلاثمائة والاثنتي عشرة وشهوره تشرين الاول وتشرين الثاني وكانون الاول وكانون الثاني وشباط واذار ونيسان وايار وحزيران وتموز وآب وأيلول * وأما التاريخ القطبي فأوله يوم الجمعة وأيام سنيه البسيطة مثل السابق وكذلك الكبيسة وأول شهوره توت وآخرها مسرى وبعد هذا الاخير يعدون خمسة أيام في البسيطة وستة في الكبيسة وتسمى باللواحق كما أنها أيضا تسمى أيام النسيء وأسماء شهور هذه السنة توت وبابه وهاتور وكيهك وطوبه وأمشير وبرمهات وبرموده وبشنس وبؤنه وأبيب ومسرى * وطريقة معرفة السنة الكبيسة من البسيطة الرومية أن تأخذ عدد السنة وتضعفه فان خرج نصفه زوجا كانت السنة كبيسة والا كانت بسيطة ويمكن أن يكون الاوفق للطبع طريقة أخرى وهي أن تقسم عدد السنة على أربعة فان انقسم عليها من غير كسر فاضل فهي كبيسة ثم انه قد ظهر في الحساب أنه بزيادة اليوم في كل أربع سنوات تزيد الكسور الفاضلة ثلاثة أرباع ساعة فاحتاج الامر الى جمع هذه الثلاثة أرباع وتكميلها ثلاثة أيام وطرحها كل أربعين سنة يعني أن تجعل السنة الآخيرة من كل قرن من ثلاثة قرون مثلا غير كبيسة مع أن حقها أن تكون كبيسة بوصف كونها أربعة وأما السنة الأخيرة من رابع قرن فانها تكون دائما كبيسة مثلا سنة ١٧٠٠ وسنة ١٨٠٠ وسنة ١٩٠٠ من الميلاد هي ثلاثمائة وخمسة وستون يوما فهي بسيطة بخلاف سنة ٢٠٠٠ فانها تكون ثلاثمائة وستين يوما فهي كبيسة والله سبحانه وتعالى اعلم

﴿في قياس الزمان﴾ وقياس الزمن الذي قسمه القبائل المتقدمون الى أقسام كثيرة متنوعة كانت في الغالب جعلية والاقرب الى الصحة منها والضبط ما كان مؤسسا على حركات الاجرام السماوية والارصاد الفلكية وقد بنيت هذه الاقسام على أصول قوية غير متغيرة وتلك الاقسام المستعملة هي القرن والسنة والشهر والأسبوع واليوم

﴿في بيان هذه الاقسام﴾ أما القرن فهو مائة سنة والسنة هي المدة التي تتم فيها دورة كاملة للشمس مبتدأة من نقطة حتى ترجع اليها وتسمى بالسنة المدارية * وأما الشهر والاسبوع واليوم فهي تقسيم السنة الى اثنى عشر شهرا والشهر الى أسابيع والاسبوع الى أيام مستعمل عموما من قديم الزمان وهو من المعارف الفلكية ومدة الشهر تختلف من ثمانية وعشرين يوما الى أحد وثلاثين يوما والاسبوع سبعة أيام ولذلك سمي أسبوعا وجعل القدماء لتلك الأيام السبعة سبعة كواكب سيارة

﴿الخاتمة﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الحمد لله المنفرد بابداع المركبات والبسائط الغني فلا يفتقر في فعل من أفعاله الى شئ من الاسباب والوسائط تعالى شأنه انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون (أحمده) حمد عالم بأنه الفعال لما يريد وأشكره شكر جازم بتنزه ذاته الاقدس عن الكمية والكيفية والانحصار والتحديد وأصلي وأسلم على فاتح مغلقات كيمياء السعادة ومانح جواهر المعارف بكلماته المفرغة في أجمل قوالب الاجاده عنصر عناصر المجد وأصل أصول الفضائل وأشرف معادن الاسرار الربانية وموصلها الى أهلها على حسب القوابل سيدنا محمد الذي هو خلاصة الكائنات الموصوف بأكمل الصفات ﴿أما بعد﴾ فأقول اعلم أن الله تبارك وتعالى لما أمرنا في مواضع عديدة من القرآن الشريف أن نتفكر في آلائه كما قال تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض وقال تعالى قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وقال تعالى أفلا تتذكرون بين لنا من ذلك أعظم الدلالة على عظم قدرته في تكوّن الاجرام والمولدات بقوله تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ولنذكر هنا ما أمكن وكيفية تكوّن طبقات الارض طبقة فطبقة وكيفية دورانها فنقول

﴿بيان كيفية تكوّن طبقات الارض﴾

(اعلم) أرشدك الله تعالى أنا قد اعتبرنا الارض على ما تحقق نجمة من الكواكب الفلكية المالئة للفضاء الذي لا حد له وعرفنا المحل الذي تشغله من المجموع الشمسي والطريق الذي خطته لها القدرة الالهية والحركات المخصوصة بها وشكلها الشبيه بالكروي المفرطح جهة الاقطاب وذكرنا أن هذا الشكل نشأ من لينها ورخاوتها وأحسن من ذلك أن يقال من سيولة تلك الكرة زمن نشأتها ووجودها وأثبتنا أيضا أنها مكوّنة من مقدار عظيم من جواهر تختلف في كونها صلبة أو مائعة أو سائلة مرنة أعني هوائية أو سائلة غير قابلة للضبط ولا للوزن وبحثنا

عن التى تتعلق بالاجزاء السائلة والهوائيـة من كرتنا بحثا جغرافيا وقد تقدم الكلام عليه
ونبحث الآن فى جزئها الجامد فنقول الذى يظهر أن التقلبات والتغيرات التى تكابدها الكرة
انما تحصل فى هـذا الجزء فقط وأن الدنيا القديمة تختلف بالكلية عن الدنيا الجديدة بل الدنيا
الجـديدة الموجودة بين القطبين لا تشـبه بوجـه من الوجوه البر المتصل الجنوبى ولا الارض
الموجودة عنـد القطب الشمالى وأن الجبال ليست متماثلة فى الاتجاه وأن السهول والاودية
لها اختـلافات شـتى وبالاختصار فعدم انتظام الاشياء متسلطن فى ذلك الجزء فقد يعسر أو
يستحيل أن يوجد تماثل وتساو تام بين شيئين متوازيين بحسب ذلك وهذا كله ناشئ من التقلبات
والتغيرات التى تحصل دائما فى الارض والظاهر أن هذه الصخور الموجودة فى تلك الكرة
تبلورت من قديم فى سائل لم يوجد الآن فى الكون ما يدل عليـه ولا ما يوقفنا على حقيقته * قال
بعض المؤلفين اذا كان الامر كذلك فلا يكون هـذا السائل الا سائلا ناريا مائيا أى ماء مبيضا
بالنار بعـد الاحمرار وعرض لضغط شديد جدا بحيث لا يمكن تصعيده وانتشاره فى الفضاء
فأثر على الاجرام المذابة فيـه بقوة مساوية لقوته الانبساطية ولا يمكننا حسبان تلك القوة
اذ الماء الذى هو عـلى هيئـة بخار فى حرارة مساوية لحرارة الحـديد الأحمر وهى ثلاثمائة
وسبع درجات من مقياس رعومر يرفع وزنا مساويا بالوزن مائة وثلاثين ألف جو ويرفع فى حرارة
أربعمائة وخمس وستين درجة من ذلك المقياس وزنا مساويا بالاربعة وأربعـين مليونا من الجو
انظر ما مقدار القوة العظيمة لهـذا الماء المبيض بعـد الاحمرار اذا كانت درجـة حرارته
مساوية لحرارة ذوبان الذهب أعنى ألفين وثلاثمائة وسـبعا وعشرين درجـة وهـذا كله جائز
متى أثرت قوة شبيهة بما ذكر وهـذا الماء الأبيض قد ذكر فيما تقدم فى بحث البحر المسجور
ثم ان تلك الصخور يتحلل تركيبها سريعا بمماسـة الماء والهواء والضوء وقد تتراكب عليها
صخور أخرى تكون أولا على هيئـة طبقات متوازية للسطح الذى رسبت واستندت عليـه ثم
تتسلطن عليها تقلبات وصروف دهـرية تفسـد انتظامها وتغير معالمها والفواعل لهـذه
التقلبات مجهولة أيضا كأزمنتها والفيلسوفى المشتغل بالبحث عن الكائنات لا يمل من منظر
تلك الهيولى بل يبحث عن الاجزاء التى يمكنـه الوصول اليها مع غاية الانتباه ثم يجـمع أعماله
ويقابل بينها ويستنتج منها نتائج صحيحـة بدون أن يفتش عـلى توضيح تلك الاعمال نفسها وبدون
أن يعتنى بربطها وتطبيقها عـلى رأى من الآراء ونهايتها ما يكون أنه ربما تجاسر على استنباط
آراء تضاف الى الآراء والمذاهب السابقـة التى عرضت الى وقتنا هـذا فى كيفيـة تكون
الكرة ومعرفة أصول تلك التقلبات والتغيرات التى يظهر لنا أنها غـيرت سطحها هذا
وينبغى أن نعتبر تبعا لبعض المعلمين القواعد الآتية أصولا صحيحة وحقائق ثابتة فى الجيولوجيا
وهى (أولا) أن الكرة الأرضية الغيرالتامة الاسـتدارة ليست من طبيعة واحدة (ثانيا)
ان كثافة طبقات هذه الكرة تأخذ فى الزيادة كلما قربت الى المركز (ثالثا) ان هذه الطبقات
مهيأة تقريبا بانتظام حول مركز ثقل الارض (رابعا) ان سطح هـذه الكرة المغطى بعضه
بالبحر له شكل يختلف قليـلا عن الشكل الذى تأخـذه الكرة بموجب نواميس الموازنة لو

قدرت سائلة (خامسا) ان عمق البحر انما هو يسير قليل بالنسبة للفرق بين محورى الارض (سادسا) ان عدم انتظام الارض والاسباب التى تحدث تضاريسها غير متوغلة فلا تقدح فى كرويتها (سابعا) ان الارض كلها كانت فى الابتداء سائلة وهذه الاصول مختارة عموما ولم يزل الفلكيون والمشتغلون بالكائنات يؤسسون أعمالهم عليها فمن العبث الاشتغال بالمجادلة فيها وطالما تكلم فى جميع الاعصار من ابتداء نظام العالم والاشتغال بالعلوم الى وقتنا هذا أناس منهمكون على دراسة العلوم فى كيفية تكون الارض وأول من أظهر الآراء والاقوال فى كيفية خلق الارض هم الهنود والكلدانيون والمصريون والعبرانيون ثم اشتغل بعدهم بهذا الموضوع فلاسفة اليونانيين ووصلت الينا آراؤهم ولم تزل العلماء تتذاكر فى هذه المسئلة بعدهم زمن سطوة الرومانيين ومن خلفهم فى المملكة مع أن العلوم كانت فى تلك الازمنة محدودة غير متسعة وغير نامية * ثم لما ظهرت المعارف وأخذت العلوم فى الاتساع والنمو بذل الحادثون بعدهم غاية اجتهادهم فيها بعد الوقوف على ماقاله القدماء طلبا للوقوف على القصة لكرة الارض ومع ذلك كانت آراؤهم فى ذلك غير تامة السداد لكونهم أسسوها على مشاهدات قليلة أولم تبلغ حد التواتر أورديئة الارصاد وأما الآن فان المتأخرين من علماء العرب عرضوا كالقدماء أيضا آراء وبينات تعليمية غير أنها بديعة الاستنباط لكونها مستخرجة من أفكار نيرة قادحة وأقيسة واضحة كشفوا بها هذا السر الخفى أعنى كيفية تكون الارض ويمكن ارجاع تلك الآراء الى أربعة رئيسة (الاول) نسبة الكل للنار والمختارون لهذا الرأى يسمون بالمسجوريين وهو مأخوذ من قوله تعالى والبحر المسجور أى البركانيين (الثانى) نسبة الكل للماء والمتمسكون بذلك هم النبطونيون المنسوبون لنبطون اله البحر فى خرافات القدماء (الثالث) هو القول بتوافق هاتين القوتين أعنى الماء والنار بان أحدثا فعلهما على التعاقب (الرابع) هو القول بتكوين فواعل تجددت على التعاقب فحصل من فعلها تجديد جولة مختلفة ومن المعلوم أن أصحاب هذه المذاهب أسسوا آراءهم على أشياء واقعية مخصوصة بأماكن من الارض استندوا اليها وبحثوا كثيرا فى توضيحها ثم أجروها فى بقية أجزاء الارض على حد سواء ومع ذلك فآراؤهم زيادة عن كونها فرضية وجدت مختلة بالنسبة لمشاهدات وأمور واقعية أخر مختلفة الطبيعة كانت مجهولة عندهم أو أنهم لم يستحسنوا التأمل فيها والالتفات اليها * والذى انحط عليه الرأى فى الحالة الراهنة هو أنه لا يمكن الوقوف على حقيقة الارض ولا على كيفية تكوينها بوجه يمكن تطبيقه على جميع كتلتها غاية مايكون أنه ينبغى أن يجتهد فى مشاهدة الامور الواقعية فيها ويقابل بينها وبين بعضها ثم تستنبط منها النتائج التى توضح وتشرح بغاية التدقيق والصحة فينبغى للمشتغل بالبحث فى ذلك أن لا يتعب نفسه فى دراسة القطع والكسر الارضية فانها تكون دائما غير تامة وغير كافية للدراسة وانما عليه أن يتجاسر على ارتكاب الاخطار ومشاق الاسفار الطويلة ويتسلق على قلل الجبال وينزل فى المهاوى والمهلكات ويدخل فى أفواه الجبال من جبال النيران ويتتبع الحفر المعدنية فى مجازاته وطرقه العميقة وينتقل من محال

الى محال أخر من الكرة ليشاهد آثار التقلبات الأرضية فى أماكنها ويقابل بينها وبين بعضها ويدخل فى بوراتها بعيد غيبوبته عنها سنين كثيرة ويهب الباقى من حياته لزيادة غناه وثروة وطنه الذى شرفه بثمرة استكشافاته التى ماوصل اليها الابعسر شديد * ثم ان بحثنا فى الجزء الصلب من الكرة الارضية بالقسمة لتركيبه نرى أنه يختلف لا الى نهاية وأن اختلاف طبيعة الجواهر أكثر من اختلاف أشكالها ولذا عد ذلك من الاشياء التى لا يمكن تعريفها ولا حصرها فى أقسام لما أن الصفات والهيآت التى تميزها عن بعضها غير واضحة الدلالة كفاية من أول الامر ومع ذلك كان من اللازم للوقوف على حقيقتها معرفتها فى أثناء هذه الهيولى وهذه التقلبات والتغيرات * والمعدنيون هم أول من ميز الارض وقسمها الى نوعين (الاول) يشتمل على الاراضى التى تحتوى على عروق غنية من المعادن (الثانى) يشتمل على الاراضى المكوّنة من طبقات خالية بحسب الظاهر من ذلك * ثم بعد زمن ما قسمت الاراضى الى ثلاثة أنواع أراض ذات سهول وأراض ذات تلول وأراض ذات جبال * ثم بعده قسمت الاراضى الى أراض أوليه أو أصلية وأراض ثانوية وأراض ثالثية وأراض جرفية وأراض بركانية وأراض انتقالية * فالاراضى الاولية هى التى اعتبر كونها أقدم تكوينا وأنها موجودة من ابتداء تجمد الكرة * وصفاتها الاصلية هى أنها تحتوى على بقايا حفرية من الكائنات العضوية نباتية كانت أو حيوانية ولا يوجد فى تركيبها أجزاء أرضية فيها علامة كونها أقدم منها * وهذه الاراضى اما جبال وأما سهول تكون أحيانا متسعة جدا ولا تغطى غيرها من الاراضى بل تكون مستورة بأراض أحدث منها * وهذه كثيرة الغور بحيث لا يمكن الوصول الى أعماقها ومعظم الكرة مكوّن منها أولا أقل من كونها تمتد على جميع سطحها على هيئة قشرة متصلة غير منقطعة مكوّنة أقواسا كثيرة عظيمة غير منتظمة * وقد تحقق حسبما شاهدناسابقا أن هذه الاراضى كابدت تبلورا حقيقيا غير أنه لم يكن هناك عندنا مايدل على طبيعة السائل الذى كان ماسكا فى محلوله هذه الاصول المختلفة لتلك الصخور التى هى فى غاية الصلابة ولتلك المعادن التى لا يمكن أن تقلدها الصناعة ومعظمها فيه غنى وثروة لمن يملكها ويظهر أن هذا التبلور أقدم ثم يأخذ فى التناقص شيأ فشيأ حتى ينتهى بأن تتغير الارض الى راسب غير منتظم ثم ان من الصخور المتبلورة ما يدل على زيادة حداثة أزمنته غير أنه تكون فيه محدودية السعة أكثر ويظهر أن الاقدم من هذه الاراضى الاصلية رسب على هيئة كتل أو طبقات أفقية تكون أظهر وأوضح وأكثر ميلا وانحناء واختلافا كلما كانت الطبقات أحدث * وقد قسمت الاراضى الاصلية سابقا الى أجناس كثيرة يمكن حصرها أو ارجاعها الى خمسة رئيسة فانها تحتوى على الصوّان أى الاغرانيت المختلف التكوين والاغنيس والمكاشيست والفيلاد المسمى أيضا بالشيست الاصلى والسرنيتين المسمى أيضا أوفوليت والبرفير أى السماق والكاس المحبب والفلزات والجواهر الثمينة * وتكون تلك الاراضى عموما على هيئة طبقات منحرفة جدا وهى أقل صلابة من الاراضى الاصلية وأقل تبلورا منها * والاراضى الاصلية هى مركبة كما قلنا من صخور حبوبية

ومن ميكاشيستى كلمة يونانية معناها الورقى اللامع وقد تكونت فى الزمن الاول ولا تزال آخذة فى التكوّن الى الآن فالصخور الحبوبية تشغل الجزء السفلى من الاراضى الاصلية ومابقى من الصخور التى ذكرناها يشغل الجزء العلوى منها * ويتسلطن وجود ثلاثة جواهر معدنية فى صخور الارض الاصلية هى الميكا أى الجوهر اللامع والفلدسبات والكوارتس أى حجر البلور فاذا كانت هذه الجواهر الثلاثة متوزعة فى الصخرة على السوية على هيئة حبوب مختلفة الغلظ سميت الصخرة حبوبية * ولا تكون الصخور الحبوبية على هيئة طبقات بل تكون جبالا وهى قاعدة أغلب سلاسل الجبال وترتكز عليها جميع أراضى الرسوب وتتميز أنواع الميكا الشيستى والطلق الشيستى عن الصخور الحبوبية بأنها على هيئة طبقات ورقية قد تكون رقيقة جدا وهى مكونة أيضا من الميكا والفلدسبات والكوارتس وقد يفقد الكوارتس ويتسلطن الميكا والفلدسبات اللذان يعرفان بلمعانهما ونسجهما الورقى فيكسبان هذه الصخور نسجا ورقيا يميزها عن غيرها * وأحيانا يوجد فى وسط هذه الصخور طبقات حجرية جيرية ذات ثخن عظيم تدل على أن الحجر الجيرى تكوّن فى الزمن الاول وأنواع الميكا الشيستى والطلق الشيستى أقل انتشارا من الصخور الحبوبية وموضوعة فوق الصخور المذكورة غالبا فان قيل ماسبب اختلاف النسيج فى هذين التكوينين قلنا ان الصخور الاولى بيرد المواد المضطرمة بسرعة صار تبلورها غير واضح فاكتسب نسجا ورقيا وذلك كالميكا الورقى والطلق الورقى وغيرهما فهذه الطبقة حينئذ أقدم جميع الصخور فهى الصخور الاصلية حقيقة وأما الصخور الحبوبية والصخور الاسوانية فلم تتكوّن الا بعدها ببرد بطئ تحت الارض ولذا صارت حبوبية بلورية وحينئذ فالصخرة الحبوبية والصخور التى تتكوّن منها الطبقة السفلى من الاراضى الاصلية ليست هى الصخور المتكوّنة أولا كما كان يظن قديما بل لا تنسب كلها الى الزمن الاول نعم ابتدأ تكونها أثناء الزمن الاول لكن استمر تكونها تحت القشرة الارضية الاولى أو أواخر الأزمنة الاخرى ولم تزل تتكوّن تحت أقدامنا الى الآن وحينئذ يكون وضعها فى ضمن تكوينها الزمن الاول وعدّها من جملة أقسام الارض الاصلية خطأ فالصخور الاصلية التى تنسب للزمن الاول حقيقة هى صخور الطبقة العليا من الأراضى الاصلية وأما الطبقة السفلى فتنسب الى جميع الازمان وجميع الاراضى كالمتحصلات البركانية وهذا لا يمنع ضمها الى الطبقة العليا فى الدراسة حيث ان هذين التكوينين ترتيبهما واحد

(فى بيان أوصاف الصخور الاصلية)

(اعلم) ان أوصاف الصخرة الحبوبية هى صخرة حبوبية أصلية مكوّنة من الميكا والفلدسبات والكوارتس وهذه العناصر الثلاثة تكون على هيئة حبوب بلورية متوزعة فيها على حدّ سواء وترى بالنظر وأغلب صلابتها ناشئ عن الكوارتس وهى قابلة للصقل وكثيرا ماتفقد صلابتها بتأثير المياه فيها فتستحيل بمضى الزمن الى طفل ورمل وسبب ذلك تحلل الفلدسبات ومتى تسلطن مقدار الميكا فى الصخرة الحبوبية صارت ورقية وتتكوّن من الصخرة الحبوبية

فى بر مصر جبال مستديرة يندر أن تكون جوانبها رأسية وتوجد هذه الصخرة أيضا على هيئة آكام منفصلة عن بعضها والمسافات التى بينها مشغولة بصخور نارية أخرى حاصلة من برد بعدى وذلك كالصخور الاسوانية والبورفيرية والصخرة الثعبانية؛ ومجموع هذه الصخور تتكون منه السلسلة التى تتجه موازية لخليج العرب المسمى ببحر القلزم وبالبحر الأحمر وهى أعلى الجبال التى ببلادنا الان منها ما يبلغ سبعة آلاف قدم الى ثمانية آلاف بالنسبة لمستوى البحر الاحمر

(فى أوصاف الميكا الشيستى) هو صخرة على هيئة صفائح قد تكون مختلطة ببعض جواهر معدنية متوزعة فيها مجردة فى الغالب عن الكوارس والفلدسبات اللذين يدخلان فى تركيب الصخور الحبوبية

(فى أوصاف الطلق الشيستى) هو صخرة طلقية صفوحية هشة أو مندمجة وهى تتكون منها طبقات فى الاراضى الاصلية كما فى وادى القصير ووادى أسوان وغير ذلك

(فى أوصاف الحجر الصابونى) هى صخرة لينة دسمة الملمس كالصابون توجد كتلا وهى طلق مندمج وهذه الصخرة توجد فى جبل البرامات من أسوان وتصنع منها البرامات ونحوها والطين الاسوانى الذى فى هذا الجبل وتصنع منه قوالب الآجر الجيدة التى تتحمل تأثير الحرارة الشديدة وحجارة الشبقات ليست الا من هذا الحجر الغير النقى ومعدن النحاس الذى ببلادنا يوجد فى جبل البرامات

(فى أوصاف الصخرة الاسوانية) هى صخرة مكونة من الكوارس والفلدسبات وتخالف الصخرة الحبوبية فى أن الميكا يستبدل فيها بالامفيبول وانما سميت بهذا الاسم لكثرة وجودها فى أسوان

(فى أوصاف البورفير أى حجر السماق) هو صخرة تركيبها من الفلدسبات ويوجد فيها بعض جواهر معدنية ويوجد فيها أيضا بلورات من الفلدسبات وأصلها نارى ويتكون منها عروق تقطع الاراضى الاصلية وهى تستعمل للزينة ويوجد فى القطر المصرى جملة أنواع من حجر السماق فى الجبال الاصلية

(فى أوصاف الصخرة الثعبانية) هى صخرة نارية أغلبها مكون من الطلق أى كوكب الارض وهى ذات لمعان توجى ومكسرها ارتجى وتحتوى على جواهر معدنية متوزعة فيها بقع تشبه البقع التى تشاهد على جلد الثعبان ولذا سميت بالصخرة الثعبانية ويتكون عنها كتل فى الوادى الذى بين قنا والقصير وقد استخرجها القدماء واستعملوا منها رخاما أخضر للزينة

(فى أوصاف الميكا) هو جوهر لامع لونه يختلف وهو مكون من أوراق رقيقة جدا قابلة للانثناء تنفصل عن بعضها بسهولة أملس لادسومة فيه ولمعانه يشبه لمعان الذهب أو الفضة أحيانا فيحصل الاشتباه فيه ويكفى فى التحقق أنه ليس الا مادة ترابية مجردة عن الذهب والفضة تمرسه بين الاصابع فيستحيل الى مسحوق وهو مركب من سليس وشب وجير ومغنيسيا ومكاس الحديد وهو أحد العناصر الداخلة فى تركيب الاراضى الاصلية

(فى أوصاف الفلدسبات) هذا الجوهر اما أن يكون مندمجا أو متبلورا ويكون اما

أحمر أو ورديا أو أخضر أو أسود أو أبيض وهو مركب من سايس وشب وبوتاس أو صودا أى قلى وقد يحتوى على قليل جدا من الجير وهو أحد العناصر الكثيرة الوجود فى الاراضى الاصلية من القطر المصرى ونحوه

(فى أوصاف الكوارس وهو البلور الصخرى) هذا الجوهر شكله هو ذو الاسطحة المعينية وشكله الثانوى هو المنشور ذو الاسطحة الستة الذى ينتهى بهرمين مسدسى الاسطحة وتوجد على أسطحته خطوط عمودية على أضلاعه وهيئته زجاجية ومكسره متموج لامع* والكوارس الزجاجى يكون كتلا أو عروقا فى الصخرة الاسوانية وقد يكون لون البلور الصخرى بنفسجيا فيسمى بالكركهان وقد يكون وردى اللون أو أصفر أو أزرق أو مائلا للسواد والكوارس الراتنجى يشبه الراتنج المكسور جديدا والكوارس أحد العناصر التى تدخل فى تركيب الصخور والاراضى الاصلية أيضا

(فى أوصاف الطلق) هذا الجوهر يشبه الميكا فهو مكون من جملة أوراق رقيقة مثله وألوانه كألوانه لكنه أكثر رخاوة وأقل لمعانا منه وملمسه صابونى يقطع بالسكين و يخطط بالاظافر وهو مركب من سليس ومغنيسيا ويدخل فى عدة صخور أصلية وكثيرا ما يصاحب الحرير الصخرى فى الصخور النارية من وادى القصير

(فى أوصاف الحجر الجيرى السكرى) هو كربونات الجير النقى وهو أبيض لطيف مكون من صفائح صغيرة لامعة وقد يكون شبيها بالسكر المكرر فيسمى برخام التماثيل وهو نسبة الى الطبقة العليا من الاراضى الاصلية وقد يوجد فى الطبقة السفلى منها أو فى الاراضى المتوسطة وقد تتنوع الحجارة الجيرية المندمجة التى فى الارض الثانية متى لامستها الصخور النارية فتصير سكرية الهيئة ولا تحصل هذه الاستحالة الا فى جزء قليل منها والحجر الجيرى يكون ميكانيا اذا احتوى على الميكا وطلقيا اذا احتوى على الطلق ومغنيسيا اذا احتوى على المغنيسيا

(فى المواد النافعة من الاراضى الاصلية)

تشتمل الاراضى الاصلية على مواد كثيرة الاستعمال فى الفنون والصنائع فقد صنع القدماء عمدا ومسلات وصناديق لحفظ أمواتهم من الصخرة الاسوانية وكل من القاولين أى الطين الصينى والبيتونزية الذى هو صخرة مكونة من الفلدسبات والكوارس يستعمل فى صناعة الصينى باختلاطهما مع طين الصينى والبلور الصخرى الذى يصنع منه البلور والصخور الجبوبية المختلفة يوجد منها مقدار عظيم فى الطبقة السفلى من الارض الاصلية* وينبغى لمن أراد استعمال الصخور الجبوبية أو الصخور الاسوانية فى أدوات الزينة أن يأخذها من الجبال الجبوبية ذات الجوانب الرأسية أو ذوات النتوآت لانها تقاوم تأثير الهواء لكن استخراجها وصنعها يستدعيان مصاريف جسيمة فاذا كان المراد صخورا جبوبية سهلة الانفصال تصنع بسهولة فلتؤخذ من الجبال الجبوبية ذوات الرؤس المستديرة لانها تقطع بسهولة وتحصل منها كتل كبيرة الا أن الهواء يفسدها بمضى الزمن فتفقد أشكالها ويوجد طين الصينى فى هذه الجبال المستديرة وكل رخام التماثيل والحجر الجيرى السكرى والطلق والرخام

الأخضر القديم والمرمر الجصي الابيض وحجر ابرامات تنسب الى الطبقة السفلى من الارض الاصلية أيضا وأكثر وجودها فى الطبقة العليا من الارض المذكورة * ويوجد فى الاراضي الاصلية أيضا جواهر معدنية نافعة فيوجد فى شقوق الاراضي الاصلية أو عروقها أحجار ثمينة وذلك كالتورمالين والياقوت الاصفر والزيركونا والكوريندون والياقوت الأحمر والزمرذ والزبرجد واللازورد الكثير الاستعمال فى الصباغة * والصخور الحبوبية ذات الحبوب الغليظة تحتوي على صفائح رقيقة من الميكا الشفاف بسبب قابليتها للانثناء تكون جيدة الاستعمال فى شبابيك السفن البحرية لان خاصيتها أن تقاوم الارتجاجات القوية التى تحصل فى السفن ويوجد فى هذه الصخور أيضا قصدير وعروق من نحاس وكوارس ذهبي اللون والطبقة العليا من الاراضي الاصلية أي التى يتسلطن فيها الميكا الشيستي والطلق الشيستي تحتوي على جواهر معدنية أكثر من الصخور الحبوبية فجملة من معادن الطبقة السفلى توجد أيضا فى الطبقة العليا كما أن السفلى تحتوي على جملة معادن من الطبقة العليا ولا غرابة فى ذلك فان الارض واحدة وأصل الطبقتين واحد والعناصر التى يتكونان منها واحدة * فالزمرذ والياقوت الأزرق ونحوهما من الاحجار الثمينة وحجر الصنفرة والحرير الصخري والبلومباجين أي مادة الاقلام الرصاصية يؤخذ أغلبها من صخور الطبقة العليا ويوجد فيها الصخرة الثعبانية والطلق وجملة معادن من الكروم واللازورد والكوبلت وهي مواد نافعة جدا فى النقش ومعادن مختلفة من الحديد والنحاس وبعض عروق من الرصاص والذهب والفضة هذا والاراضي الاصلية مجردة عن الحفريات فلا يوجد منها شئ فى باطن الصخور وهذا يدل على أن سطح الارض لم يكن معمورا بنباتات ولا بحيوانات أثناء تكون الاراضي الاصلية

* فى الاراضي المتوسطة *

الاراضي المتوسطة المسماة أيضا بالانتقالية هي المحتوية على بعض بقايا من الاجسام الآلية من الحيوانات الرخوة وطبقات منها مغطاة بالبقايا المذكورة وتكون تلك الاراضي عموما على هيئة طبقات منحرفة جدا وهي أقل صلابة من الاراضي الاصلية وأقل تبلورا منها وهي موضوعة دائما بين هذه الاراضي الاصلية والاراضي الثانوية وتختلط بها اختلاطا تاما بحيث يعسر بل يتعذر تعيين محل منشئها أو انتهائها فاذا لا يستغرب أن يوجد فى معظمها صفات القسم الأول والثالث والغالب أن الفحم الحجري وحجر البلاط المسمى الاغريس الاحمر هما اللذان يفصلان الصخور الانتقالية عن الصخور الثانوية واعتبر هذا التكوين أول تكوين لهذه الثانوية ويوجد فى أثناء الصخور الانتقالية صخور متبلورة أعني من السماق وربما تنسب للصخور الاولية اذ لم يكن عندنا يقين بأنها رسبت على جوهر كلسي مسود مملوء بالحيوانات النباتية فبموجب ذلك تكون من الانتقالية ولا بد * وتشتمل الاراضي على ثلاث طبقات وهي الارض السيلورية والارض الديونيزية والارض الفحمية

* فى الاراضي السيلورية *

بكسر السين وضم اللام وكسر الراء المهملة وانما سميت بهذا الاسم نسبة الى قسم من انكلترة كان يسكنه السيلوريون والارض المذكورة المكونة من الرسوبات البحرية واضحة فيه * وهي مرتكزة على الطبقة العليا من الاراضي الاصلية

وشغلها

وثخنها عظيم فقد يبلغ فى بعض الجهات ألفين وستمائة ذراع لكن الغالب أن لا يتجاوز
تسعمائة ذراع وهى مكونة من شيست طفلى وحجارة جيرية وفى بعض محال منها حجارة رملية
وكان البحر يشغل أغلب سطح الكرة أثناء تكون الارض المذكورة لانه لا يعرف أثر
نبات ولا حيوان عاش فى ذلك الزمن فى المياه العذبة أو على سطح وهذه الارض واضحة فى بعض
أراضى انكلترة والبوهيم وتوجد هذه الاراضى أيضا بفرانسا بأكناف أنجيرة على هيئة
اردواس يستعمل فى تغطية سقوف المنازل وفى الكتابة عليها بالطباشير وتشتمل الارض
السيلورية على حفريات كثيرة وهذا دليل على أن البحار كانت مشغولة بحيوانات فنيت
وانقطع نسلها فيشاهد فيها ميما كن أخطبوطية ورتبة الحيوانات القشرية التى تشاهد
فيها كثيرة وأشكالها عجيبة مخالفة لاشكال الحيوانات القشرية التى تعيش فى زماننا هذا
وتتميز الارض السيلورية عن غيرها بأنها متمزقة فلا يتضح منها فى البلاد التى توجد فيها الا قطع
لم تتفدمنها الطفحات العديدة وطبقاتها التى كانت أفقية أولا صارت مائلة أو رأسية
* فى الاراضى الدونيزرية * بكسر الدال المهملة وضم الواو وسكون الزاى والراء وسميت
بهذا الاسم لانها تظهر بوضوح فى أرض من أراضى انكلترة تسمى بذلك وهى ترتكز على
الارض السيلورية ويوجد فى جزئها السفلى زلط منضم تخافقى يتعاقب مرارا مع حجر رملى
القديم حجارة رملية وشيستية أى طفلية وفى مدة تكون الارض الدونيزرية كانت ترتفع
فوق المياه لكنها كانت متفرقة عن بعضها فكانت البحار تغطى أغلب الارض القارة
وهذه الارض يوجد فيها بعض أنواع نباتية وحيوانية بنيتها أكثر تضاعفا من بنية
النباتات والحيوانات التى خلقت قبلها فى المدة السيلورية * وأشكال النباتات الخاصة بالمدة
الدونيزرية كانت تخالف أشكال النباتات المنسوبة الى زماننا هذا فكانت من فصيلة
الاشنة وفصيلة الكبريت النباتى وهى نباتات بسيطة التركيب خفية الزهر حشيشية
فى زمننا هذا لكنها كانت فى ابتداء الخلقة أكبر حجما وكانت أنواعها أكثر عددا ويوجد فى هذه
الارض حيوانات رخوة كثيرة فيها وهى من رتبة ذات الارجل الرأسية ومنها الحيوانات
الرخوة القوقعية وقد وجدوا أسماكا رخوة عجيبة لانها كانت ذات درقة ولذا سميت بالاسماك
ذات الدرقة وبنيتها مخالفة لبنية أسماك زماننا هذا وهو يحمل على نحو الجزء المقدم من جانبى
جسمه عوامين مدببين وذنبه ينتهى بسن مدبب والارض الفحمية قد ذكرت فى المقدمة (واعلم)
أن مجموع الاراضى الثلاثة المتقدم ذكرها أى السيلورية والدونيزرية والفحمية تتكون
عنها الاراضى المتوسطة وهى توجد فى القطر المصرى بوادى أزهل الذى هو قريب من
البحر الاحمر نحو الجنوب الشرقى وهذه الاراضى وان وجدت فيها علامات الارض الفحمية
فالفحم الحجرى مفقود منها الان القليل الذى يوجد منه أثرى * والارض المتوسطة قليلة
الوضوح فى القطر المصرى وقد ارتفعت الجبال البورفيرية والاسوانية من باطن الارض
فى انتهاء تكون أرض الانتقال فتكونت عنها ارتفاعات على شكل قباب كانت محرقة فكان
سطحها غير صالح للانبات فارتفعت قحلة مجردة عن الانبات والصخور المميزة للاراضى

المتوسطة أولها الاركوز وحجر بريش سكرى وبودنج كوارسى وحجر كوارسى وحجر رملى وحجر أحمر وحجر رملى فحمى وحجر شيست اذر وارى وشيست تحين وحجر شيست سليسى وحجر المسن وحجر طرابلسى وحجر جير طفلى ورخام حجر جبلى جيرى قارى وحجر جيرى معدنى وحجر شبت وحجر جص مندمج هذا ما تألفت منه الطبقة الوسطى

(فى المواد النافعة التى فى الاراضى المتوسطة) يوجد فى أنواع الشيست من أرض الانتقال كل من حجر الاختبار وحجر المسن والقلم الاسود وحجر ايطاليا والقلم الاحمر ويوجد فيها أيضا الشب والزاج الاخضر والشب والانتراسيت أى الحجر الفحمى الذى يحترق بدون لهب وعروق كثيرة بدون فلزات مختلفة وخصوصا النحاس والرصاص والخارصين أى التوتيا والحديد ويوجد الزئبق فى الطبقة العليا من هذا الشيست الذى يحصل منه نحاس وقار أيضا والحجارة الجيرية المنسوبة للارض الانتقال تحتوى على مواد نافعة أقل مما تحتوى عليه أنواع الشيست الطفلى لكنها يتحصل منها أحسن الجير وأغلب أنواع الرخام ذات الالوان المختلطة وأنواع الرخام السنجابية والسود المتجانسة والرخام المحتوى على الانكرين ينسب الى هذا التكون وهو مشحون بحفريات أغلبها من الانكرين تشاهد فيه على هيئة بقع صغيرة مستديرة * ويوجد فى وسط هذه الحجارة الجيرية مرمر جصى وحصى حديد وشب ومعادن حديد على هيئة طبقات وعروق ورصاص فضى وخارصين ونحاس وبزموت أى مرقشيثا ومعادن الحديد المهمة ومثلها معادن المنقنيز يكون بين الاراضى والحجارة الجيرية المنسوبة لارض الانتقال وينبثق أغلب المياه المعدنية من بين هاتين الطبقتين وكثيرا ما تشتمل الحجارة الرملية والبودنج التى فى أراضى الانتقال حجارة تحت * ويوجد فى وسط هذه الصخور وفى الجزء العلوى منها الرسوبات العظيمة المهمة المكونة من الفحم الحجرى الذى هو ينبوع الصنائع العظيمة فى البلاد التى تشتمل أرضها عليه وهذه الرسوبات تكون مصحوبة بحجارة رملية وأنواع من الشيست الاسود تحتوى عادة على كثير من انطباعات نباتية وهى أى الرسوبات تكون متوزعة فى باطن الارض أحواضا قليلة الاتساع تدل على برك ومستنقعات عتيقة * ولنشرح بعض هذه المواد النافعة فى الاراضى المتوسطة لتعلم حقيقتها فنقول كل حجر صلب أسود ذى حبوب دقيقة لا يتأثر بالحوامض يستعمل حجر اختبار وهذه الشروط مجتمعة فى الشيست السليسى المنسوب لاراضى الانتقال وحجر ايطاليا شيست طفلى مشتمل على مادة فحمية ولذا يؤثر خطوطا سودا فى الورق ويلوّن الاصابع وتصنع منه أقلام مربعة والنجارون يسمونه بالقلم الاسود والقلم الاحمر طفل محتوى على أوكسيد الحديد الاحمر وتصنع منه أقلام للرسم أيضا * والشب والبوتاسا والنوشادر وهو كثير الاستعمال فى الصنائع وخصوصا فى الصباغة لتثبيت الالوان ويستعملونه فى الطب وأيضا الزاج الاخضر والزئبق يستعمل كثيرا فى آلات طبيعية وكيماوية وخصوصا فى استخراج الذهب والفضة من معدنيهما بالتملغم

(فى الاراضى الثانوية) صخور الاراضى الثانوية أقل صلابة من السابقة ومعظمها

مكوّن من رواسب أو من منقولات وطبقاتها قليلة الميل ثم تصير غالبا أفقية وقد يتكون منها طبقات مقعرة أو محدبة في جزء من كتلتها وسعتها دائما محدودة أكثر من المكونات المتوسطة والكائنات الحفرية في هذا القسم أكثر انتشارا وعددا واختلافا منها في القسمين السابقين. والاقدم من تلك الاراضي يختلط مع أراضي الانتقال بطبقاته المائلة والغالب كونه معوجا متعرجا ويتعاقب مع المكونات البلورية ويحتنى من المعدن في عروق معدنية كثيرة وهاتان الصفتان لا يوجد شيء منهما في الطبقات العليا مع ما فيها من كثرة الاختلاف ولذلك ربما ساغ لنا أن نقول انه كلما قربت تلك الاراضي الثانوية الى الاراضي الانتقالية كانت الطبقات أكثر اختلافا وكانت الكائنات الحفرية أقل عددا سيما في الجنس والنوع * ثم ان الطبقات القديمة تمتد على هيئة سطح كبير وتركيبها متساو في معظم الجهات بل في كلها * وأما الطبقات الجديدة فهي صغيرة محدودة وتختلف عن بعضها مسافة فمسافة فاذا تكون الفواعل والمؤثرات التي حصل منها التقلبات والتغيرات في الطبقات الاول أعني القديمة أثرت في سطح كبير منها وهذه الاراضي من حيث ان بينها وبين الاراضي السابقة الاشكال والهيآت الكثيرة الخفية يعسر وضع تعريف جامع مانع لها وبعض الجيولوجيون سماها بذوات الطبقات المائلة لكن هذه التسمية غير مقبولة لما أن كثيرا من طبقاتها أفقي وبعضهم سماها باراضي الاغريس الاحمر لانهم رأوا أن هذا النوع متسلطن في جميع أراضي هذا القسم وهذه التسمية غير مختارة أيضا لان كثيرا من البلاد التي يوجد فيها كثير من تلك الاراضي لا يوجد فيها شيء من هذا الاغريس وهي عند المعدنيين معروفة بأنها هي التي تتكون منها الاراضي ذوات الطبقات أعني التي فيها الحـتل الارضية المعدنية الوسخة أي المحتوية على المعادن تكون موازية للطبقات وهذا التعريف يكون جيدا اذا لم تحتو تلك الاراضي على عروق معدنية لكن لما كان كثير من أنواع هذا القسم محتويا على كثير من الاغريس الاحمر اضطروا لتسميته بالاسم السابق وان كان فيه بعض ابهام * ويطلق اسم الاراضي الثانوية على ثلاث أراض أي تكوينات الأولى الارض الثانية السفلى وتسمى بالارض الثلاثية وبارض الحجر الرملي المصري من وادي أزهل وبارض الحجر الرملي المدبج والثانية الارض الوسطى وتسمى بالارض الجوراوية وبارض الحجر الجيري المصري من وادي عرباو ووادي اركس والثالثة الارض الثانية العليا وتسمى بالارض الطباشيرية من وادي قنا ولنشرحها على هذا الترتيب فنقول

(في الارض الثانية السفلى أو الثلاثية) انما سميت بهذا الاسم لانها مكونة من ثلاث طبقات تعد من أسفل الى أعلى وهي الحجر الرملي المدبج أي المنقش والحجر الجيري القوقعي والمارن القزحي فالحجر المدبج تركز على الطبقة العليا من الاراضي المتوسطة وألوان الحجارة الرملية التي تتكون عنها هذه الاراضي لطيفة وهي مختلطة بثنيات كثيرة من الميكا فتارة تكون حمراء وتارة صفراء وتارة سنجابية ولذا سميت بالحجارة الرملية المدبجة والحجر الجيري القوقعي انما سمي بهذا الاسم بالنظر للقواقع الكثيرة التي توجد فيه وهي تختلط بالحجر الرملي

المنقش أولا ثم تميز عنه أعنى أن طبقات الحجارة الرملية تتعاقب أولا مع طبقات من الحجر الجيرى القوقعى ثم تنتهى هذه الطبقات الاخيرة بأن تتكون عنها الكتلة كلها والحجارة الجيرية منه دمجة ضاربة للسنجابية أو الخضرة أو الصفرة والغالب أن تكون محتوية على المغنيسيا وهذه الطبقة قليلة الوضوح فى وادى أزهل * والمارن القزحى ويسمى أيضا مارن كوبير نسبة لمن أظهره مركب من طبقات من مارن تتعاقب مع طبقات من طفل أحمر نبيذى اللون أو ضارب للزرقة أو الخضرة كان سببا فى تسمية هذه الطبقة بالمارن القزحى وهذه الطبقة واضحة جدا فى وادى عرباو وادى أزهل ووادى قنا ويوجد فى هذه الطبقة رسوبات كثيرة من ملح الطعام تستخرج من الارض فى بعض البلاد وهى السبب فى تسمية الارض الثانية السفلى أى الثلاثية بالارض الملحية وانما كانت الينابيع الملحية محتوية على كثير من ملح الطعام فى بلاد النمسا وانكلترة لان مياهها تمر على طبقات ملحية فى جوف الارض قبل أن تنبجس على سطحها * وكثيرا ما يكون ملح الطعام مصحوبا بالحجر الجصى أى كبريتات الجير الاندرانى وأحيانا يكون هذا الملح الاخير بمفرده والمارن القزحى كثير الوضوح فى القطر المصرى لان ارتفاعه من مائتى قدم الى أربعمائة

*(فى حفريات الارض الثانية السفلى) * اعلم أن الكائنات التى كانت تعيش فى مدة الارض الثانية السفلى تخالف الكائنات التى تعيش أثناء تكون الارض المتوسطة فالحيوانات القشرية العجيبة لا توجد فى الارض الثانية السفلى والحيوانات الرخوة ذوات الارجل الرأسية قليلة العدد فيها ومثلها الاسماك الدرقية التى ينقرض نسلها فى الارض المذكورة وأما القواقع الرخوة فانها تبتدئ فى الظهور فى الارض المذكورة ويتكاثر عددها فى الارض الثانية الوسطى والنباتات الخفية الزهر التى وصلت الى أعلى درجات نموها فى الارض المتوسطة تكون أقل عددا فى الارض الثانية السفلى وأما النباتات التى تنسب للفصيلة المخروطية فتكتسب بعض نمو وأنواع الورل تكتسب فيها نموا عظيما ثم تظهر بعدها فى الارض الثانية الوسطى أنواع الورل مهولة الجثة ذات هيكل عظيم الجسم غريب الشكل بحيث ان من رأى بقاءها تعجب منها وحصل له الفزع * ولنتكلم على الحفريات التى تتميز بها الارض الثانية السفلى فنقول كانت الارض مغطاة بنباتات مضاعفة التركيب وكانت مغمورة كالبحار بحيوانات عديدة فتحتوى على قوقع كثير وكانت هذه الحيوانات كثيرة العدد فى الزمن القديم ثم انقرضت والقوقع ذوا الصدفتين صغير جدا يوجد منه مقدار عظيم فى الارض الثانية السفلى وخصوصا فى الحجر الجيرى القوقعى * فالميتيلوس المسمى بأم الحلول ينسب الى الحجر الجيرى القوقعى وهو حيوان رخو عديم الرأس وقوقعته مستطيلة ذات ثلاث زوايا ومنه أنواع كثيرة فى البحار الآن * ومن الحيوانات ذوات الجلد الشوكى التى تتميز بها هذه الارض نوع من الانكرين يسمى انكرينوس أى الشبيه بزهر الزنبق * وقد وجد فى الارض الثانية السفلى زاحف كبير الجثة خلق قبل الزواحف المهولة الجثة التى خلقت أثناء تكون الارض الثانية الوسطى وهذا الحيوان هو نوع

تمساح بحرى * ومن الانواع النباتية التى تتميز بها هذه الطبقة الفصيلة المخروطية أى السنوريه كانت نباتات ذات أوراق عريضة متقاربة وموضوعة على بعضها كقشور السمك وأنواع الوولتيزا التى كان يتكون منها أغلب غابات ذلك الزمن عبارة عن جنس من الفصيلة السروية وقد فنى وله صفات تدل عليه وتميزه عن غيره من نباتات الفصيلة المخروطية الحفرية فأوراقه متوالية حلزونية تتكون عنها خمسة صفوف أو ثمانية على الساق وهى عديمة الذنيب جناحية وثماره مخروطية مستطيلة ذات فلوس غير متراكمة موضوعة على بعضها كقشور السمك اسفينية ذات ثلاثة فصوص كاملة أو خمسة * ولاجل اتمام الكلام على الارض الثانية السفلى ينبغى أن نذكر كيفية تكون ملح الطعام الذى يوجد منه مقدار عظيم فى الطبقة العليا من هذه الاراضى أى فى المارن القزحى فنقول * الارض ذات الاتساع التى تكونت من الارض الثانية السفلى أخبرا تسمى بالارض الملحية لانها تعرف بوجود مقدار عظيم من ملح الطعام فيها * فان قيل ما منشأ هذه الرسوبات الملحية الكثيرة التى توجد فى هذه الارض وتتعاقب دائما مع الطفل والمارن على شكل طبقات رقيقة قلنا ان سبب ذلك تصاعد مقدار عظيم من ماء البحر الذى دخل فى منخفضات أو فى تجاويف أو خلجان ثم فصلتها آكام عن البحر بعد ذلك وهذه الظاهرة حصلت وتكررت فى مساحة عظيمة من الشواطئ أثناء تكون الارض الملحية تتكون عنها الكتل العظيمة من ملح الطعام الذى يوجد الآن فى الارض المذكورة وحيث ان هذا الملح موضوع فى طبقات غائرة من الارض لا يمكن استخراجه بسهولة كالملح الذى ينسب للاراضى الثالثة

(فى الاراضى الثانية الوسطى أو الجوراوية) رسبت طبقات الارض الجوراوية فوق الاراضى المحتوية على ملح الطعام وانما سميت بهذا الاسم لان جبال جورا التى بفرانسا مكون أغلبها من الاراضى التى رسبت من البحار فى المدة الجوراوية * وللمدة الجوراوية صفات واضحة تتخذ من الحيوانات والنباتات لجملة من أجناس الحيوانات التى تنسب للمدد السابقة فنيت واستبدلت بحيوانات كثيرة غيرها وتنقسم الارض الجوراوية الى تكوينين هما التكوين اللباسى والتكوين البطارخى فالتكوين اللباسى هو مكون من ثلاثة أجزاء (أولها) طبقات من حجر رملى قليل الصلابة يحتوى على رسوبات معدنية كاملاح المنغنيز والكروم وهذه الطبقات تسمى بالحجارة الرملية اللباسية (وثانيها) حجارة جيرية لباسية قليلة الاندماج مائلة للسنجابية أو للسواد توجد فيها عروق بيض من كربونات الجير دخلت فى شقوق ناشئة امامن الزلازل وامامن الانكماش الذى يحصل فى جميع الصخور المحتوية على كثير من الطفل وهذه الحجارة الجيرية تحتوى على كثير من الحفريات أحدها كثير الانتشار فيها وهو قوقع ذو صدفتين من فصيلة المحار (وثالثها) مارن شيستى طفلى يحتوى على كثير من بقايا عضوية وخصوصا القوقع الغزلى وهو حيوان رخو من ذوات الارجل الرأسية ولم يبق من هذا الحيوان الاعظم مخروطى متحجر يشبه العصا وكان هذا الحيوان يسبح فى قاع البحر ويفرز مدادا كالسبيدو وقد وجد الكيس المحتوى على مداد هذا الحيوان جافا * وجنس القوقع الامونى

خاص بالزمن القديم وقد فني ولم يجدد بعد ذلك * وكان أول ظهوره في الارض الثانية السفلى وقد تكاثر في المدة اللباسية فصار مميزا لهذا التكوين * ولنذكر من جملة الحيوانات الرخوة التي يتميز بها التكوين اللباسي فصيلة المحار المكبير الحجم * وكان يوجد في بحار المدة اللباسية حيوانات نباتية وحيوانات رخوة غير التي ذكرناها وأسماك ذات قشور صلبة لامعة وأنواع من الورل ذات جثة مهولة * ومن العجيب رؤية درجة الاتقان التي وصلت اليها معرفة الحيوانات التي خلقت قبل الطوفان الاول في عصرنا هذا فما أعجب هذه المخلوقات التي كانت في الزمن الذي نحن بصدده فان البحار كانت مملوأة بحيوانات غريبة كالتي ذكرناها وكان يسبح على أمواجها قواقع أمونية عديدة كالزوارق كان محيطها كعجلة العربة وكانت سلاحف كبيرة وتماسيح تزحف على شواطئ الانهار والبرك ولم يكن في الزمن المذكور حيوان ثديي ولا طير انما خلقت فيه بعض حشرات ذات أجنحة كانت تطير في الهواء وكانت الارض قد بردت قليلا في المدة الجوراوية وقل استمرار الامطار وكثرتها ونقص الضغط الجوى أيضا وجميع هذه الاحوال كانت تناسب ظهور وتضاعف الحيوانات العديدة التي ظهرت على سطح الارض حينئذ ولا يحصى مقدار كل من الحيوانات الرخوة والحيوانات الشعاعية التي يوجد من بقاياها في الارض الجوراوية طبقات ذات ارتفاع واتساع عظيمين وتضاعفت في نفس هذه الاحوال النباتات فكما أن شواطئ البحار كانت معمورة بالزواحف المهولة التي ذكرناها كانت النباتات التي تنبت بالاراضي القارة ذات صفات مخصوصة مميزة لها فلا يوجد في عصرنا هذا من النباتات ما يشبه نباتات المدة التي نحن بصددها فان ارتفاع درجة الحرارة وانشحان الجو بالرطوبة وتأثير الاشعة الشمسية كل ذلك كان يساعد على تقوية الانبات كما يشاهد ذلك في عصرنا هذا في بعض الجزائر المدارية وقد فنيت أنواع الولتزيا المنسوبة للارض الثلاثية في المدة المذكورة ونباتاتها شبيهة بنباتات الفصيلة النخلية وأجناسها كثيرة * ولنذكر الانواع النباتية التي تتميز بها المدة اللباسية وهي الفصيلة السرخسية وفصيلة السيقاس والفصيلة الصنوبرية

(في التكوين البطارخي الملبسي) انما سمي بهذا الاسم لان جملة من الاحجار الجيرية التي يتكون منها تنشأ من انضمام حبوب صغيرة مستديرة تشبه بيض السمك المعروف بالبطارخ أو كبيرة تشبه الملبس وينقسم هذا التكوين الى ثلاثة أدوار وهي الدور الملبسي السفلي والمتوسط والعلوي * فالدور الملبسي يبتدئ بحجر جيري ملبسي حديدي وهذا الحجر يحتوي على كثير من الحفريات وخصوصا على أنواع من القوقع الاموني ويوجد فوقه طفل يسمى بطين الجوخ لانه يستعمل ببلاد الانجليز في ازالة المواد الدسمة * والدور الملبسي المتوسط هو مكون من طبقتين منفصلتين عن بعضهما تسمى احداهما الاوكسفوردية وثانيتهما المرجانية فالطبقة الاوكسفوردية منسوبة الى أوكسفورد بلدة من انكلترة وهي ثخينة مكونة من طفل أزرق ويسمى بكلاف ديف بلدة من فرانسا والطبقة المرجانية انما سميت بهذا الاسم لكثرة المساكن الاخطبوطية الحفرية المرجانية فيها وهي مكونة من حجارة

جيرية مندمجة أوملبسية تحتوى على مقدار عظيم من مساكن اخطبوطية تشبه المرجان * ويوجد حجر الطبع المنسوب الى بلاد البافير فوق الحجارة الجيرية المرجانية وقد وجدوا فيه بقايا حفرية كثيرة منها ذوات الاجنحة الاصبعية وبقايا اسماك وحشرات وحيوانات قشرية وأنواع مختلفة من النباتات * والدور الملبسى العلوى هو مكون من طبقتين احداهما مكونة من مارن متعاقب مع طفل أزرق أوضارب للصفرة يسمى بانكلترة طفل كمبريدج وفى فرانسا طفل هونفولوز * والطبقة الثانية مكونة من حجارة جيرية ملبسية تحتوى على كثير من الحفريات والحجارة المستخرجة نافعة فى الابنية لسكان انكلترة * ومن أهم ما يوجد فى هذا الدور أرض نباتية محفوظة فيه وهى ضاربة للسواد تحتوى على مادة خشبية ترابية مدفون فيها جذوع نباتات مخروطية وغير مخروطية وقد اندفنت هذه الاماكن التى نبتت فيها فجذوعها موضوعة وضعا رأسيا وجذورها المثبتة فى الارض متباعدة عن بعضها كجذور أشجار الغابات ويوجد حول بقاياها مقدار عظيم من مادة فحمية (واعلم) أن تكوين الحجر الملبسى يوجد فى القطر المصرى وطورسيناء بين الدرجة الثامنة والعشرين من خطوط العروض الشمالية فى الصحراء المشرقية من القطر المصرى * والدور الملبسى السفلى هو ظهور حيوانات تنسب الى الفصيلة الثديية لكن بنيتها الخاصة بها عجيبة تثبت أن الله سبحانه وتعالى خلق الحيوانات درجات متعاقبة أى أنه تعالى خلق الحيوانات البسيطة التركيب أولا ثم المتضاعفة فالحيوانات الثديية الاولى خلقت على وجه الارض لم توجد فيها جميع الاوصاف الخاصة بالحيوانات الثديية التامة التركيب (واعلم) أن حيوانات هذه الرتبة تولد حية ولم تكن بنيتها تامة بل كانت تنسب الى قسم مخصوص من الحيوانات الثديية نادر الوجود لا يضع أولاده أحياء بل يضع كتلة هلامية شبيهة بالبيضة والجنين معا والأم تحفظ هذه الكتلة زمنا ما فى كيس يوجد تحت بطنها ومتى تم خلق الحيوان الصغير مزق أغشيته وخرج منها وذلك بعد أن يمكث فى هذا الكيس متأثرا بحرارة الأم وهذه كيفية توالد متوسطة بين التوالد بالبيض والتوالد بالاجنة والحيوانات التى تتوالد بهذه الكيفية تسمى بالحيوانات الثديية ذات الأخوين أو ذات الكيس البطنى والحيوانات ذات الكيس البطنى التى تعيش فى زمننا هذا هى الكانجور والساريج وغير ذلك وأول حيوانات ظهرت على وجه الارض من ذوات الكيس البطنى كشفت فى الحجر الجيرى الملبسى الكبير وكانت البحار فى هذه المدة معمورة بزواحف وأسماك وحيوانات رخوة وحيوانات شعاعية وورل ذات أجناس وكانت شواطئ البحار معمورة بالحيوانات الورلية

﴿فى المواد النافعة التى فى الارض الثانية السفلى والوسطى﴾

يوجد بحجر الجص وحجر الجير وحجارة جيرية طفلية تنفع للبناء تحت الماء ويوجد فيهما قليل من الرخام والحجارة الجيرية الملبسية البيضاء مرغوبة تحصل منها حجارة النحت الجيد التى تصنع بسهولة ويستخرج حجر الطبع من الدور الملبسى (واعلم) أن كل حجر جيرى قليل المسام يصلح أن يكون حجر طبع وهذه هى الصفة الاغلبية لحجارة هذه الارض الملبسية ويوجد فيهما أيضا طبقات قليلة الثخن من مادة قابلة للاتقاد تسمى بالمادة الخشبية قد تكون شبيهة بالفحم

الجرى ويوجد فيها أيضا معادن حديد ومعادن نحاس ورصاص وخارصين ومغنيز وزئبق (فى الارض الثانية العليا والطباشيرية) انما سميت بهذا الاسم لان أغلبها متكوّن من الطباشير وأول ظهور كربونات الجير فى تركيب كرة أرضنا لم يكن فى هذه الارض فقد قلنا ان هذا الملح من المواد الداخلة فى تركيب الاراضى المتوسطة وان أغلب طبقات الارض الجوراوية مكوّنة منه وان هذه الطبقات سميكة وعديدة وقد ذكرنا آنفا كربونات الجير التى تتكوّن منها الآن كتلة عظيمة من الاراضى ويدخل منه فى تركيب القشرة الارضية مقدار عظيم لكن ينبغى هنا تكرار ما قلناه لاجل زيادة فهمه فنقول * قد قدمنا أن كربونات الجير يأتى الى كرة أرضنا من المياه الحارة التى تنبع مقدار عظيم منها من شقوق الارض (واعلم) أن مركز الارض هى الينبوع الاعظم لجميع المواد التى تتكوّن منها قشرتها الارضية فكما أن باطن الارض تحصلت منه المواد الصلبة المختلفة التى تتكوّن بواسطة الطفح كالصخور الجرانيتية والبورفيرية والطرشيت والبازلت والطفحات البركانية الجديدة كذلك انقذفت منه على سطح الارض مياه فى حالة الغليان مشحونة بكربونات الجير الحمضى المصحوب بالسليس غالبا وذلك كينابيع جزيرة ازلاندة التى تخرج منها فى أيامنا هذه نافورات من ماء مغلى محتو على السليس ذائبا * فان قيل كيف تكوّنت الاراضى من كربونات الجير الحمضى الذائب فى المياه الحارة قلنا لما كان البحر مغطيا أغلب سطح الكرة الارضية فى الازمان الاولية كانت المياه الحارة المشحونة بكربونات الجير الحمضى تستفرغ فى باطن هذه المياه بالضرورة فصارت مياه البحر محتوية على مقدار عظيم من هذا الملح فاستولت الحيوانات العديدة التى كانت تعيش فى البحار الاصلية خصوصا الحيوانات النباتية والحيوانات الرخوة ذات الاصداف على هذا الملح من مياه البحر لتكوين غلافاتها وكانت الحيوانات الرخوة والمساكن الاخطبوطية كثيرة العدد فى هذا السائل المحتوى على كثير من هذا الملح وبعد هلاك هذه الحيوانات زالت مادتها الحيوانية بالتعفن فى باطن الماء ولم يبق منها الا المادة الغير العضوية أى كربونات الجير الذى كانت غلافاتها مكوّنة منه فصارت هذه الرسوبات الجيرية تتكوّن وتتراكم على شكل طبقات سميكة فى قاع البحار ثم انضمت الى بعضها فتكوّنت منها طبقات ولما صارت هذه الطبقات تزداد بمضى القرون تكوّنت منها الاراضى الجيرية التى نشاهدها الآن ويدل على ما قلناه أن يتأمل فى قطعة صغيرة من الطباشير بالمنظار المعظم فانه يرى عند ذلك أنها مكوّنة من بقايا عديدة من مساكن أخطبوطية وقواقع أمونية وهذه الظاهرة العجيبة حاصلة ببحر بلطق فى عصرنا هذا فان قاعه آخذ بالبحر فى الارتفاع منذ قرون بسبب رسوب القواقع البحرية الجيرية الحجرية والرمل والطفل فيه ولا شك أن بحر بلطق سطمى بهذه الرسوبات بمضى الزمن القديم وتتكوّن الاراضى الطباشيرية من ثلاث طبقات أى مجاميع تعد من أسفل الى أعلى أولاها طبقة الحجر الرملى الاخضر وثانيتها طبقة الطفل والمارن الاخضر وثالثتها طبقة الحجارة الجيرية الطباشيرية البلاطية * والجواهر المعدنية فى هذه الطبقة كثيرة كملح الطعام وحجر الجص والطفل المندمج المعد لصناعة الآجر وتوجد

فى قاعدتها الطبقات قليلة السمك من الخشبيت القارى ويوجد بين طبقات الخشبيت طفل أسود قارى يحتوى على نباتات حفرية استحالت الى قار ويستخرج من هذه الطبقة حجارة نحت بل رخام ذو ألوان مختلفة والغالب أن يكون ضاربا للصفرة كما فى الرخام الذى يوجد فى بنى سويف وكما فى رخام اسيوط ومن هذه الطبقة قاعدة المقطم نحو الجهة الجنوبية والجهة الشرقية من القاهرة أى وادى حلوان

﴿فى المواد النافعة التى فى الارض الطباشيرية﴾

الصوّان الذى على هيئة كليات يوجد بكثرة فى التكوين الطباشيرى خصوصا فى طبقات الطباشير اللينة ويتخذ منه حجر الزند الذى كان كثير الاستعمال وهذا الجوهر كثير الانتشار فى بر مصر فى طبقات الطباشير نحو قاعدة وادى قنا ووادى سنور ويستخرج من الارض الطباشيرية حجر الجبر الجصى وحجر البلاط الذى تتكوّن منه قاعدة المقطم وحجر رملى حديدى يحتوى على مقدار جيد من الحديد كما فى وادى قنا وكربونات الحديد المحتوى على الطفل الاخضر خشبيت وملح طعام

﴿فى حفريات الاراضى الطباشيرية﴾

نباتات المدة الطباشيرية تشبه نباتات عصرنا هذا فيوجد فيها بعض نباتات تنسب الى زمننا هذا مع أجناس نباتات خاصة بالزمن القديم وقد رأينا من نباتات الزمن القديم أنواعا عجيبة انقرضت وفى المدة الطباشيرية نرى نباتات معتادة كالنخيل وغيره وازداد عدد النباتات ذات الفلقتين وقل عدد أنواع السرخس فى المدة المذكورة وحيوانات المدة الطباشيرية لا تشبه حيوانات عصرنا هذا والحيوانات ذوات الكيس البطنى التى خلقت فى المدة الجوراوية فنيت فى المدة الطباشيرية ولم تخلق من الحيوانات الثديية ما يحل محلها وكانت الارض الطباشيرية معمورة بزواحف كثيرة وأغلبها أنواع الورل المهولة الكبيرة وكانت الاسماك كثيرة فى المدة الطباشيرية لاتساع البحار وكانت تشبه أسماك عصرنا هذا

(فى تكوين الاراضى الثلاثية) ينقسم هذا الزمن الى ثلاث مدد تسمى باليونانية توسين وميوسين وبليوسين فمعنى الكلمة الاولى المدة الجديدة ومعنى الثانية المدة المتوسطة الجدة ومعنى الثالثة الاكثر جدة

﴿الكلام على الارض السفلى المسماة توسين﴾

هذه الارض مكوّنة من رسوبات بحرية ورسوبات من المياه العذبة فالظاهر أن البحر شغل الاحواض الطباشيرية ثم فارقها على التعاقب فتسلطت عليها المياه العذبة ونشاهد هذه الارض نحو قاعدة بر مصر المتوسط أى على عرض الميناء وكلما اتجهت نحو الشمال أخذت فى ازدياد السمك حتى تصل الى القاهرة فهى واضحة فى المقطم ولذا سميت بأرض المقطم وتنقسم الى ثلاث طبقات رئيسة الاولى الطفل الفخارى مع الرمل السفلى والثانية الدبش والثالثة الحجر الجيرى السليسى وقد كشفت بقايا الحيوانات الثديية الحفرية التى لا يوجد

مايشبهها الآن فى الطبقة الحصية من بعض جبال

(فى حفريات الارض الثالثة السفلى) وقد خلقت فى هذه المدة حيوانات ثديية وطيور وزواحف كالتماسيح والسلاحف وأسماك رحيوانات رخوة وحشرات والحيوانات الثديية ذات الجلد الثخين هى أول الحيوانات التى ظهرت فى المدة المذكورة وكانت عديدة ثم خلقت بعدها أنواع الخفاش ثم الحيوانات القرّادة لكن الحيوانات المميزة التى هى القسم الاكثر عددا من الحيوانات الثديية التى تعيش فى زمننا هذا لم تكن موجودة فى المدة المذكورة وذلك كالابل والبقر والغنم أى الضأن والمعز والغزلان وكذا الخيول لم تكن موجودة ولم تظهر الا فى انتهاء الزمن الثالث وكذا القناقذ لم توجد فى الارض المقابلة للمدة المذكورة مع أن زمننا هذا لا يوجد فيه الأعدد قليل من الانواع ذوات الجلد الثخين والحيوانات ذوات الجلد الثخين المعروفة جيدا تشبه الفيلة وفى الزمن المذكور خلقت الحيوانات القيطسية أى الثديية البحرية كالدرفيل والقيطس وكانت أوصافها مخالفة لاوصاف الحيوانات القيطسية التى تعيش الآن وكانت الاسماك كثيرة فى المدة المذكورة

(الكلام على الارض الثالثة الوسطى المسماة ميوسين)

تتكون هذه الارض من رسوبات بحرية ورسوبات عذبية وتنقسم الى طبقتين احداهما تسمى مولاس والثانية تسمى فالون * فطبقة المولاس مكونة نحو قاعدتها من رمل كوراتى تارة يكون نقيا وتارة محتويا على قليل من الطفل وتحتوى على حجارة رملية قد تكون مختلطة بحجارة جيرية تستخرج من معاملها البلاط الطرق وهذه الطبقة بحرية ومغطاة برسوب ينسب للمياه العذبية مكوّن من حجر جيرى ضارب للبياض سليسى قليلا يخالطه طفل رملى يحتوى على كتل متفرقة من حجر الطاحون وهو حجر جيرى سليسى مسامى غالبا ينسب للماء العذب ومسامه تارة تكون دقيقة وتارة خليات متسعة مبطنة ببلورات من كربونات الجير وهذا الحجر الجيرى وان كان مساميا فهو ذو صلابة ومتانة فاذا طرق عليه سمع له رنين وانتشر له شرر وهو يتحمل تأثير الهواء والرطوبة فلا يتغير كثيرا وبسبب ذلك يستعمل للبناء تحت الماء واذا عومل بحمض الكذاب حصل فيه فوران ورسب منه راسب مكوّن من السليسى ويندر أن يحتوى على قواقع حفرية ومنه تصنع أحجار الطواحين وهو يوجد على الجهة الجنوبية الشرقية للقلعة العامرة المصرية من البساتين الى نحو ثلثى جبل الجيوشى * وطبقة الفالون مكوّنة من حجر جيرى محتو على قواقع ومساكن أخطبوطية متبددة يستعمل لتسميد الاراضى وقد وجد كثير من عظام سلاحف وطيور وحيوانات ثديية

(فى حفريات الارض الثالثة الوسطى) الصفة المميزة للمدة التى تكونت فيها الارض الثالثة الوسطى هى اختلاطات النباتات الخاصة بالمنطقة الحارة من افريقية مع نباتات تنبت الآن فى أوروبا وذلك كالنخيل والعناب وجملة أنواع من الفصيلة البقولية مختلطة بشجر الجوز والبلوط الخاصة بالمنطقة الحارة المعتدلة والباردة ويوجد سوى ذلك من أنواع الاشنا والتين والحور والحيوانات التى كانت تسكن الارض القارة هى حيوانات ثديية وطيور وزواحف

وأسماك وقد خلقت حيوانات ثديية جديدة فى المدة المذكورة وهى أنواع من القردة والخفاش وحيوانات كاسرة وحيوانات ذات كيس بطنى وحيوانات قرادة وطيور وزواحف كالافاعى والضفادع والسمندل وكانت المياه العذبة مسكونة باسماك كثيرة والحيوانات الثديية هى التى ينبغى البحث فيها عن الانواع المهمة المميزة لهذه المدة وهذه الحيوانات عديدة وشهيرة بحجمها وأشكالها وقد خلقت منها جملة أجناس فنيت وانقرض نسلها وقد خلق فيها الفيل والفرس والدب والهر والفأر والجند بادستر والتنابير وهذه الحيوانات على قيد الحياة الآن وكان يوجد قردة وكانت البحار مسكونة بعدة حيوانات خلقت فى المدة المذكورة أكثرها حيوانات رخوة كبيرة وكانت تحتوى على حيوانات قشرية * ونباتات المدة المذكورة مشابهة لنباتات عصرنا هذا وقد تكون منها الخشب الحفرى المنسوب الى هذه الارض ولم يستحل الى فحم حجرى لانه إنما اندفن فى الارض جديدا ولم تؤثر فيه الحرارة المركزية ولا ضغط الطبقات العديدة الارضية المتراكبة وهذان الشرطان ضروريان فى تكوين الفحم الحجرى الكثيف المندمج المنسوب للاراضى المتوسطة * والخشب الحفرى الذى يوجد فى هذه الارض والتى قبلها يستعمل وقودا فى جملة من البلاد ويوجد الكهرباء فى هذا الحفرى وهو عبارة عن راتينج متلوّن قليلا بمضى الزمن عليه وكان يسيل من أشجار الزمن الثالث وأمواج بحر بلطيق تأكل الخشب الحفرى الذى يوجد فى قاعه وتفصله ويحصل هذا الجوهر من بحر بلطيق من منذ قرون وكثيرا ما توجد حشرات حفرية فى باطن كتلة الكهرباء وهى محفوظة فيه بلونها وأشكالها فان الكهرباء يمنعها من التعفن

﴿فى الاراضى الثالثة العليا المسماة بليوسين﴾ رسبت طبقات هذه الارض فوق طبقات الأرض الثالثة الوسطى المسماة ميوسين ورسوباتها بحرية مكونة من حجارة جيرية ومارن نحو أسفلها ومن رمل نحو أعلاها فالحجارة الجيرية رملية بيضاء أو ضاربة للصفرة تحتوى على قواقع حفرية ذات صدفتين والمارن ضارب للزرقة يحتوى على قواقع عديدة يعيش أغلبها فى بحارنا الآن والرمل يحتوى على حفريات كثيرة أيضا وخصوصا على كثير من قواقع

﴿فى المواد النافعة الموجودة فى الاراضى الثالثة﴾ يوجد فيها طبقات قليلة السمك من حجر رملى أو من طفل متشرب بقليل من أوكسيد الحديد وكتل صغيرة من رخام أصفر متوزعة فى الطفل والمارن ويوجد فيها الفيروز الذى هو أسنان حفرية متشربة بفوسفات الحديد وأنواع مختلفة من العقيق وخشب متحجر سيما ساق النخيل كما فى الغابة المتحجرة والمرمر الجصى وأملاح كبريتية والمغرة الحمراء المستعملة فى النقش بالحمرة والجص المتبلور والطفل النافع فى قلع الدفر من الثياب لانه يمتص المواد الدسمة وتصنع منه أنواع مختلفة من الأوانى وحجارة الشبقات ويوجد فيها كثير من الكبريت والقار وبعض رسوبات من الخشب الحفرى وحجارة الرحى * ولما أتم الله تعالى خلقة الارض وكونها تعالى من الارض الاصلية والارض الوسطى والارض الثانية السفلى والارض الثانية الوسطى والارض الثانية العليا والارض المتنوعة الى ثلاث مدد توسين وميوسين وبليوسين خلق الله

سبحانه وتعالى فى هذا الزمن أى بعد أن أتم خلق هذه الارضين الحيوانات الثديية وكائنات عضوية حديثة * وقد قلنا ان الحيوانات القشرية والاسماك كانت كثيرة فى مدة تكون الاراضى الثانية وأما هذا الزمن فتسلطنت فيه الحيوانات الثديية وصارت كثيرة العدد واذا استثنينا الحيوانات ذات الكيس البطنى التى تنسب الى الاراضى الجوراوية وجدنا أن الحيوانات الثديية التى خلقت أولا فى الزمن الثالث هى ذوات الجلد الثخين وقد خلقت هذه الحيوانات فى المدة الاولى من الزمن المذكور ثم خلقت حيوانات ثديية فنيت وكانت عجيبة بالنظر لجثتها الهائلة وبقيتها وأغلب الانواع التى خلقت فى هذا الزمن لم تنقرض أنواعها بل هى على قيد الحياة الى الآن ويضاف الى رتبة الحيوانات الثديية زواحف جديدة من جملتها أنواع من السمندل فى حجم التمساح وفى هذا الزمن خلقت طيور لكنها كانت أقل عددا من ذوات الثدى * وكانت البحار معمورة بكثير من كائنات تنسب الى جميع الرتب كما فى زمننا هذا والأزمان ستة زمن تكون الاراضى الاصلية وزمن تكون الاراضى الوسطى وزمن تكون الارض الثانية السفلى وزمن تكون الارض الثانية الوسطى وزمن تكون الارض الثانية العليا وزمن تكون الاراضى المسماة توسين وميوسين وبليوسين * وفى آخر هذا الزمن رسبت الاراضى الطوفانية والاراضى التى بعد الطوفان وفيه حصل الطوفان وخلق الانسان

ولنشرع الآن فى ذكر الحوادث التى وقعت فنقول (اعلم) أن الاراضى الأخيرة مغطاة فى جملة أماكن بطبقة من بقايا غير متجانسة فى السهول والأودية والمغارات وشقوق الصخور وعلى أسطحة الجبال وجوانبها وهذه الطبقة مكونة من مواد مختلفة ناشئة عن قطع انفصلت من الصخور المجاورة لها فالتأكلات التى تشاهد فى قاعدة الأودية وقد أعانت على اتساع الأودية والرواسب المتراكمة فى مكان واحد وهى المكونة من مواد متدحرجة أى متآكلة بالاحتكاك أثناء انتقالها الى بعد عظيم دليل على أن انتقال الأجسام الثقيلة الى مسافات بعيدة ناشئ عن ماء قوى أثر فيها فانقذفت أمواج عظيمة على سطح الارض دفعة واحدة فأخربت جميع ما قابلته أثناء مرورها وتكونت عنها ميازيب غائرة فى الارض ثم جذبت ودفعت البقايا التى حملتها أثناء جريانها غير المنتظم فالارض التى تكونت بهذه الكيفية تسمى بالأرض الطوفانية والظاهرة التى ذكرناها تسمى بالطوفان * فان قيل ما سبب الطوفان قلنا ان الله تعالى أراد بحكمته وقدرته أن يجعل فى الارض سبلا وطرقا ويخلق تعالى جبالا تشغل اتساعا عظيما بقرب البحار أو فى قاعها فلما ارتفعت الارض دفعة واحدة حصل اضطراب فى المياه فانقذفت داخل الاراضى القارة فأغرقتها وغطتها بأمواجها المفزعة المختلطة ببقايا الاراضى التى أتلفتها وكان حصول هذه الحادثة دفعة واحدة لكنها كانت قصيرة المدة متكررة فانكشفت الوديان والسبل كما قرر ذلك فى قوله تعالى سبلا فجاجا * وقد حصل فى أراضى أوروبا بعد ذلك طوفانان وفى آسيا طوفان واحد وكان حصول الطوفانين الأولين قبل ظهور الانسان وأما طوفان آسيا فكان بعد خلق الانسان * ولنتكلم على كل منها فنقول

﴿الكلام على طوفاني أرض أوروبا﴾

الطوفان الاول منهما حصل في شمال أوروبا وكان ناشئا عن ارتفاع جبال النوريج فأخرجت مياه الطوفان أرض السويد والنوريج وأرض الروسيا وأرض شمال النمسا فتغطت جميع سهول تلك الاراضي بأرض طوفانية وبما ان الأماكن التي حصل فيها الارتفاع والبحار المجاورة لها كانت مغطاة بالجليد بالنظر لمجاورتها القطب الشمالي كانت الأمواج التي تنقلب على هذه الأماكن تحمل كتلا عظيمة من الجليد وقد أعانت مصادمتها منها على ازدياد قوة الطوفان * والدليل على حصول الطوفان في تلك الاراضي الرمل والزلط الذي يغطي جميع سهولها ومنخفضاتها وقد شاهدوا مع هذه الرسوبات كثيرا من صخور ضالة تخالف صخور البلاد الموجودة بها الآن فانها تنتسب الى الاراضي الأصلية التي ببلاد النوريج وقد حملتها مياه الطوفان * والطوفان الثاني نشأ عن ارتفاع جبال الألب وقد ملأ أودية أرض فرانسا والنمسا وايطاليا برسوبات مكونة من رمل وطفل وزلط وصخور ضالة أيضا

﴿الكلام على طوفان آسيا وعلى خلق الانسان﴾

خلق الانسان على وجه الارض بعد حصول الطوفان العام (واعلم) أن الاراضي القارة والبحار كانت في انتهاء الزمن الاخير كما هي الآن وكانت الشقوق التي تحدث في الارض والطفحات البركانية لا تحصل الا بعد مضي زمن ولا يتأتى منها الا اتلاف قليل وكان الجو شفافا والانهار تجري بين شواطئ هادئة ساكنة وكانت النباتات كثيرة العدد والارض والمياه والهواء معمورة بكثير من الحيوانات ومع ذلك لم تكمل الخليقة فلم يخلق اذذاك الانسان * وقال بعضهم ان الانسان خلق بجوار نهر الفرات من آسيا الصغرى وهذا القول مثبت بحادثة مهمة شهيرة عند جميع الأمم هي طوفان آسيا أي طوفان سيدنا نوح عليه السلام وقد نشأ عن ارتفاع سلسلة من الجبال في البلاد المذكورة فانشقت الارض فحصلت طفحات بركانية مصحوبة بكثير من أبخرة مائية تكاثفت ثم سقطت مطرا فاغرقت السهول والجبال ووصلت الى ارتفاع عظيم وقد قدمنا شرح ذلك فيما سبق مطولا فارجع اليه ان شئت

﴿في بيان كيفية دوران الارض وفيه دليلان﴾

الدليل الاول قوله تعالى وكل في فلك يسبحون (اعلم) أنه لا يجوز أن يقال وكل في فلك يسبحون الا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى كل أي كل ما كان مغرورا في الخلاء اللانهائي فصارت النجوم وان لم تكن مذكورة أولا كأنها مذكورة لعود هذا الضمير اليها والفلك في كلام العرب كل شئ دائر وجمعه أفلاك واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم أي الخلاء اللانهائي وهو قول الضحاك وقال الاكثرون بل هو شئ تدور النجوم عليه وهذا أقرب الى ظاهر القرآن ثم اختلفوا في كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجري النجوم فيه وقال الكلبي ماء مجموع تجري فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لا تكون الا في الماء قلنا لا نسلم فانه يقال في الفرس

الذى يمد يديه فى الجرى سابح وقال أصحاب الهيئة ان الخلاء هو هواء متخلخل خلخلة لا تدرك حسا تجرى الشمس والنجوم والقمر فيه (واعلم) أن مدلول هذا الكلام على امتناع القول بسكون الارض وأنها خارجة عن الخلاء فهو باطل بل الحق أن دورانها ممكن والله تعالى قادر على كل الممكنات والذى يدل عليه قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون قال صاحب الكشاف التنوين فى كل تنوين عوض عن المضاف اليه أى كلهم فى فلك يسبحون والله أعلم * الدليل الثانى قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا وقوله تعالى أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وقوله تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا واعلم أن كون الارض فراشا مشروط بشروط وهى متضمنة لدلائل (الدليل الاول) فى كونها متحركة وذلك لانها لو كانت ساكنة لما كانت فراشا لنا على الاطلاق لان الارض لو كانت ساكنة لانحلت منها قوة التماسك وفسد تركيب الجزئيات التى لا تتجزأ والدليل على ذلك أنه ينتج من انعزال الارض فى الفراغ قاعدة وهى أن جميع الاجسام تميل الى الانجذاب نحو مركز الارض اذ لا شئ ينفصل من كرة أرضنا ويضيع فى الفراغ فالاجسام التى تقذف بعيدا عن سطحها تعود اليه بسرعة دائما وهذا الميل هو المعبر عنه بالثقل أو بالجذب الارضى فجعل تعالى خاصية الارض أن تجذب نحو مركزها جميع الاجزاء المادية التى هى مركبة منها وجميع الاجسام التى على سطحها أو التى تكون بعيدة عنها وقد ثبت بالتجاريب أن قوة الجذب تكون على حسب عكس مربع المسافة وحينئذ تكون كرة الارض عبارة عن جملة جزئيات منضمة الى بعضها بالقوة الجاذبة الى المركز والظاهر أن شكلها الكروى يدل على أن هذه الجزئيات كانت تتزلق على بعضها فانجمع أغلبها نحو المركز (الدليل الثانى) فى تحركها أيضا قول علماء الهيئة ان الكرة مفرطحة أى منبعجة قليلا جهة قطبيها ومنتفخة جهة خط الاستواء وقد ثبت هذا التفرطح بالمشاهدة وبحركة البندول الاهتزازية أيضا الآتى شرحه فان عدها فى زمن مقدر معلوم يكون أكثر جهة القطبين منه فى خط الاستواء * ونصف قطر الارض فى خط الاستواء يبلغ أربعة آلاف وثلاثمائة ميل وخمسة أميال تقريبا ويجوار القطبين أربعة آلاف ومائتى ميل وتسعين ميلا تقريبا فيكون الفرق بين قطرها الاستوائى وقطرها القطبى خمسة عشر ميلا * ويتضح من ذلك أن كرة الارض لم تكن جزئياتها المادية منضمة كما هى الآن بل كانت متحركة تتزلق على بعضها فأثرت فيها القوة المركزية الطاردة الناشئة عن حركتها اليومية فاحدثت انتفاخا فى كتلتها نحو خط الاستواء وانبعاجا نحو القطبين ثم تصلبت هذه الجزئيات بعد ذلك وحينئذ يعلم أن الارض كانت سائلة فى ابتداء خلقتها وقد قلنا ان مركز الارض لا تزال فيه درجة الحرارة المرتفعة جدا تتجاوز كل ما يتصوره العقل وقدرها بعضهم على وجه التقريب فقال انها مائة ألف وخمس وتسعون ألف درجة ويمكن أن يقال ان جميع المواد الداخلة فى تركيب الارض كانت ابتداء على حالة غازات أو أبخرة بتأثير هذه الحرارة الشديدة كما قررنا ذلك فى تفسير قوله تعالى ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية وقد تقدم شرحه * وحينئذ نتخيل أنها أى الارض كانت فى ابتداء أمرها مادة غازية ومتى علم أن الجواهر

الصلبة التى تستحيل الى غازات تشغل حجما قدر حجمها الاصلى بقدر ألف وثمانمائة حجم نتج من ذلك أن هذه الكتلة الغازية كانت ذات حجم عظيم وحيث ان الكتلة الغازية التى كانت تتكون منها الارض ذات حرارة مرتفعة جدا كانت تضىء فى الفراغ كما تضىء الشمس الآن وكما تضىء النجوم الثابتة والسيارة ليلا * وهذه الكتلة الغازية المضطرمة لما دارت حول الشمس على مقتضى ما جعل تعالى من قوة الجذب العام كانت منقادة الى القوانين المؤثرة فى بقية الجواهر المادية فكانت تبرد وتترك جزأ من حرارتها للطبقات الفراغ الباردة جدا التى بين الافلاك فبسبب هذا التبريد المستمر مع طول الزمن الذى لا يمكن تعيين مدته ولو على وجه التقريب صارت الارض سائلة بعد أن كانت غازية فتناقص حجمها تناقصا عظيما * ومن المقرر فى المشاهدات أن الجسم السائل المتحرك حركة رحوية يكتسب شكلا كرويا فبهذه الكيفية اكتسبت الارض الشكل الكروى المميز لها ولاغلب الاجسام السماوية * وليست الارض منقادة الى حركة رحوية حول الشمس فقط بل لها حركة دوران على محورها أيضا يتكون منها تعاقب الليل والنهار وقد تقرر أيضا بالمشاهدات التجريبية أن الكتلة السائلة المتحركة تنتفخ نحو خط استواء الكرة وتتفرطح نحو قطبيها بسبب اختلاف القوة المركزية الطاردة وبسبب هذه الظاهرة لما كانت الارض سائلة انتفخت نحو خط الاستواء وتفرطحت نحو القطبين واستحالت من الشكل الكروى الى شكل كرة مفرطحة نحو قطبيها (واعلم) أن انتفاخ الارض نحو خط الاستواء وتفرطحها نحو القطبين دليل على أن الارض كانت سائلة ابتداء فان الكرة الصلبة التى من العاج لا يتغير شكلها اذا دارت على محورها قرونا ومتى كانت سائلة أو عجينية انتفخت نحو وسطها وتفرطحت نحو طرفى محورها (واعلم) أنه لولم يخلق الله تعالى الارض أولا غازا ثم سال فصار ماء ثم تعجن فصار صلبا لما كانت الارض فراشا لنا فسبحان القادر الحكيم الحميد البديع الفعال لما يريد وبناء على ما تقدم لك من الادلة المفصلة على ما قاله أهل الهيئة تبين للبيب حق البيان أن الارض دائرة لا محالة كما لا يخفى على المتفطن (الدليل الثانى وهو الشرط الثانى فى الثقل) الثقل هو القوة التى تلجئ الاجزاء المادية الى قربها من الارض اذا كانت بعيدة عنها وتتركها ملازمة لها حتى تأتيها قوة تبعدها عنها والزنة هى مقادير الاجزاء المادية التى تركب منها الجسم ومن الثقل أيضا الجذب الذى هو قوة تلجئ كتل الاجسام وأجزاءها الصغيرة لقربها من بعضها لكنه فى تقريب الاجزاء يسمى بالقوة التماسكية أو الميل (واعلم) أن الاجسام التى تظهر فيها قوة التثاقل صغيرة جدا بالنسبة للارض فان محيطها سبعة وعشرون ألف ميل ولا تبعد عنها الاجسام الا مسافة قليلة لكون الارض تجذبها اليها نظرا الى كبرها عنها وهذا الجذب هو المانع للاجسام من تشتت الاجزاء الصغيرة المنفصلة من الارض وهذه القوة تسمى بالجاذبة الى المركز ولولا هذه القوة لما جعل الله تعالى الارض فراشا لنا

﴿الشرط الثالث وهو الدليل الثالث التجزى﴾ التجزى خاصة للاجسام بها يتمكن من

فصلها الى أجزاء فى نهاية الدقة والأجزاء التى لايمكن تجزيتها الا فى العقل تسمى جواهر فردة ولاشك فى أنه يمكن تجزئة الاجسام الى أجزاء دقيقة جداً فيمكن احالتها الى مسحوق ناعم جداً بحيث لاتدرك أجزاؤه باللمس ولا فى أن الجواهر الرائحية تتطاير منها أجزاء دقيقة جداً تؤثر فى حاسة الشم مناويمكن الحكم على كميتها ودقتها فاننا اذا تأملنا فى المسك مثلا رأينا أن القمحة منه تبقى أجزاؤها الرائحية مدة سنين فى محل يتجدد هواؤه فى اليوم مرات كثيرة من غير أن يظهر فى زنتها نقص واذا حللنا مقدارا يسيرا من اللعل فى قليل من الماء ثم أضفنا له مقدارا عظيما من الماء فمادام الماء متلونا يوجد فيه عدد كثير من أجزاء اللعل تشاهد بالبصر (واعلم) أنه يمكن تقسيم الاجزاء الى عدد خارق للعادة مع بقائها متصلة كما يظهر ذلك فيما لو أخذ سلك من فضة فيه غلظ ما وغطى بصفيحة من ذهب وزنها عشرة دراهم مثلا ثم سحب فى مسحب حتى صار سلكا دقيقا أدق من الشعرة مغطى بالذهب من كل جهة طوله ثلاثمائة ميل فلولم يهئ الله تعالى الاجسام للتجزئة لما كانت الارض فراشا لنا

(الشرط الرابع وهو الدليل الرابع المسام) المسام التى هى خاصية من خواص الاجسام عبارة عن الاخلية التى تكون بين أجزائها سواء كانت كبيرة كما فى الاسفنج أو صغيرة وتلك الاخلية تكون فى الاجسام النامية الحيوانية والنباتية مملوأة بالسوائل وفى غير النامية مملوأة بالغازات ولذا يشاهد عند وضع السكر والاسفنج فى الماء وجود فقاقيع على سطح الماء وماذاك الا من صعود الهواء الذى كان منحصرا فى المسام واختلاف المسام بالكبر والصغر والكثرة والقلة هو السبب فى اختلاف زنة الاجسام المتساوية فى الحجم الظاهرى الذى هو مادة مع المسام فى الحالة الطبيعية وأما الحجم الحقيقى فهو كمية مادة الجسم بقطع النظر عن المسام والكثافة تراكم الاجزاء المادية للجسم فى حجم ولذا كان المكعب من القصدير أكثف من مكعب مماثل له من خشب الفلين وتفاوت زنتها يكون على حسب كمية أجزائها والحرارة لاتمدد الاجسام الا من مسامها فتبعد أجزاء الجسم عن بعضها والاجسام كلها ذات مسام والمعادن أكثرها اندماجا ومع ذلك ينفذ الماء فى مسامها ولذا لو أخذت كرة مجوفة من الذهب والفضة أو أى معدن كان وملئت ماء وسدت سدا محكما ثم ضغطت وطرق عليها بقوة لنفذ الماء من مسامها ولولا ذلك لما جعل الله تعالى الارض فراشا لنا

(الشرط الخامس وهو الدليل الخامس المرونة) المرونة خاصية بها تميل الاجسام الى العود لحالتها الاصلية اذا انقطع عنها تأثير القوة التى أحالتها عن تلك الحالة بجذب أو مصادمة أولى أو ضغط أو ثنى أو نحو ذلك فمن ذلك الوتر الحانى للقوس فانه اذا انقطع رجع القوس الى تمدده والدحروجة التى من العاج اذا سقطت على سطح صلب جدا كالرخام فانه يحصل فيها سطح على حسب اتجاه محورها العمودى وانفراش على حسب محورها الافقى وبالجملة فأكثر الاجسام مرونة هو أسرعها عودا الى حالته وقد تكتسب المرونة فى الاجسام من الصناعة فان النحاس اذا طرق عليه وهو بارد اكتسب مرونة أكثر مما اذا طرق عليه وهو مسخن وكذا الحديد المتحد بالفحم أعنى الذى صار فولاذا فانه اذا سقى صار مرنا جدا وسهل الكسر

وسقيه بكون بغمره في سائل بارد ليبرد بسرعة وتزول مرونته بتسخينه حتى يحمر ثم يترك حتى يبرد بنفسه متدريجا وتزول أيضا بتوالي الضرب بقوة شديدة بعرض صفائح منه بكل لعرض في آن واحد على سطح مستو من نحو خشب أو سطح ماء كما يفعل أهل شغالة السيوف دا امتحانها فانهم يجربون السيوف بالضرب بكل عرضها ثم يتأملون في مرونتها فما وجدوه منه المرونة أكثر مما هو لازم طرحوه ومما له دخل في زيادة مرونة الاجسام أيضا الها كما يظهر فيما لو سقطت حلقة على سطح من حجر أو رخام فانها تنفذ أكثر مما لو كان اساقط قرصا مماثلا لها في المادة والوزن وكذا الكرة المجوفة فانها تنفذ أكثر من كرة مصمتة مساوية لها في الوزن فاذا تكون الحلقة والكرة المجوفة أكثر مرونة من القرص والكرة المصمتة ثم ان الاجسام الكثيرة المرونة لا تعود الى شكلها الاول بسرعة دفعة بل بعد ارتجاجات متعاقبة تأخذ في التناقص حتى تزول بالكلية كما يشاهد ذلك فيما لو أخذ منها بداسلك أو حفت كبير وقرنت شعبتاه مع بعضهما ثم تركتاه دفعة واحدة وفيما لو أثبت مقبض سيف في نحو حفرة أو بين شعبتي منجلة وأميلت ذبابته قسرا ثم تركت فان رجوع كل مما ذكر الى حالته لا يحصل الا بعد اهتزازات كثيرة ومثل ذلك يشاهد في الاجسام السلسة جدا كالاوتار والجلود والسلوك المعدنية الرقيقة اذا كانت متوترة كما في آلات الطرب ذوات الاوتار وفي الطبول والكوبة المشهورة بالدربكة والرطوبة في ذلك كله تكون سببا لفقد المرونة لاسيما الجلود ولولا ذلك لما جعل الله تعالى الارض فراشا لنا (تنبيه) اعلم أن جميع المفسرين أشاروا (أولا) الى أن كرة الارض تدور الى قطبين معينين واذا كان كل فلك متشابه الاجزاء كان جميع النقط المفترضة عليه متساوية وجميع الدوائر المفترضة أيضا متساوية فاختصاص نقطتين معينتين بالقطبية دون سائر النقط مع استوائها في الطبيعة يكون أمرا جائزا فيقضي العقل بافتقاره الى المقتضى وهكذا القول في تعيين كل دائرة معينة من دوائرها بأن تكون منطقة (وثانيا) ان الاجرام الفلكية مع تشابهها في الطبيعة الفلكية كل واحد منها يختص بنوع معين من الحركة في البطء والسرعة فانظر الى فلك الشمس مع نهاية اتساعه وعظمه ثم انه يدور على نفسه في خمس وعشرين ونصف وكسور والمشترى في احدى عشرة سنة وزحل في تسع وعشرين سنة على ما قاله أهل الهيئة فاختصاص الاعظم بمزيد السرعة والاصغر بمزيد البطء مع أنه على خلاف حكم العقل فانه كان ينبغي أن يكون الاوسع أبطأ حركة لعظم مداره والاصغر أسرع استدارة لصغر مداره ليس الا بمخصص والعقل يقضى ن كل واحد منها انما اختص بما هو عليه بتقدير العزيز العليم (وثالثا) ان الاجسام متساوية في الجسمية والحركة لانه يصح تقسيم الجسم الى الفلكي والعنصري والكثيف واللطيف والحار والبارد والرطب واليابس ومورد التقسيم مشترك بين كل الاجسام فالجسمية قدر مشترك بين هذه الصفات والامور المتساوية في الماهية يجب أن تكون متساوية في قابلية الصفات والحركة فاذا كل ما صح على جسم صح على غيره فاذا اختصاص كل جسم بما اختص به من المقدار والوضع والشكل والطبع والصغر والحركة لا بد وأن يكون من الجائزات وذلك

يقضى بالافتقار الى الصانع الحكيم القديم ولابدأن نزيدك ايضا جاويا بالكروية الارض لتتم الفائدة ولتكون على بصيرة فنقول

(في بيان البندول)

البندول هو آلة من جسم ثقيل ومن سلك متصل به ويكون لهذا البندول حامل مكوّن من أربعة أعمدة متصل بعضها ببعض من الاعلى اتصالا تاما ومنفصل من الاسفل انفصالا متساويا فاليمينيان كل واحد يبعد عن صاحبه أربعة قراريط تقريبا واليساريان كذلك وأما البندول التي هي الوسطى فالبعد ما بينها وبين العمود اليميني الثاني أربعة قراريط أيضا وبينها وبين العمود اليساري الثاني أربعة أيضا فيكون بعد الوسطى ثمانية قراريط فاذا علق البندول في وسط ذلك الحامل انقسمت المسافة الى خمس نقط نقطة البندول الوسطى وتسمى بها والنقطة الثانية هي نقطة العمود الثاني اليميني للبندول وتسمى النقطة اليسارية والنقطة الرابعة هي نقطة العمود اليميني الأخيرة وتسمى النقطة الوحشية اليمينية والنقطة الخامسة هي نقطة العمود الثاني اليساري الأخيرة وتسمى النقطة الوحشية اليسارية وهذه الادلة معدّة لبيان الاتجاه القمي وتعيين قوة الثقل وأقسام الزمن أو لبيان زاوية التباعد فاذا بعد البندول عن وضعه القمي قيل لذلك في الاصطلاح عمل زاوية التباعد فاذا رفع البندول من الاسفل الى النقطة الانسية أو الوحشية اليساريتين ثم ترك نزل الى نقطته ثم صعد الى النقطة الانسية أو الوحشية اليمينيتين بواسطة السرعة التي اكتسبها بنزوله فقطع بهذه السرعة مسافة تساوي المسافة التي رفع اليها أوّلا ثم أخذ يرجع الى النقطة الانسية أو الوحشية اليساريتين ثم الى النقطة الانسية أو الوحشية اليمينيتين وهكذا دائما في حركاته أقواسا لا تتغير وكل من هذه الحركات يسمى ذبذبة والذبذبة اما كاملة أو نصفية والنصفية اما صاعدة أو نازلة فالنازلة من النقطة الانسية أو الوحشية اليمينيتين وزمن الذبذبة هو المدة التي يقطع فيها البندول قوس حركته ومن حيث ان البندول فيه قوة الرجوع الى نقطة التباعد حتى تكون له كمية الحركة التي انبعث بها في أول الامر ينتج أنه متى تذبذب دامت ذبذبته ما لم يعارضه الهواء أو الاحتكاك الخفيف لنقطة التعلق فيكون سببا لوقوفه لكن الغالب أنهما لا يؤثران الا قليلا شيأ فشيأ فبندول معلق تعليقا جيدا يتذبذب ساعات كاملة من غير انقطاع ولاجل تحصيل ذلك عملوا البندول المسمى بالر... وهو قضيب معلق فيه جسم ثقيل عديم الشكل لتقل مقاومة الهواء له وذبذبته تسمى بالذبذبة المتساوية الزمن لكونها تتم في مدد متماثلة والبندول الذي قرب من وقوفه تكون ذبذبته متساوية الزمن كذبذبته الأولى وان لم تكن المسافة التي يقطعها حينئذ الا كسورا من مسافة الذبذبة الأولى وحينئذ فالمدة متماثلة وان تغيرت المسافة المقطوعة وطبيعة مادة العدسة لا تؤثر في هذه المدة شيأ واذا كان هناك جملة بنادل لها سوق متخالفة في الطول كانت مدة ذبذبتها على نسبة جذور أطوال السوق فلو كانت البنادل ثلاثة ونسبة أطوالها لبعضها كواحد وأربعة وتسعة كانت مدة الذبذبة كواحد واثنين وثلاثة التي هي جذور واحد وأربعة

وتسعة فاذا قوبل البندول الذى طوله واحد بالذى طوله أربعة وبالذى طوله تسعة وجد التذبذب مرتين فى مقابلة واحدة لبندول الاربعة وثلاثة فى مقابلة واحدة لبندول التسعة ومعظم ما مرّ فى البندول البسيط الذى يفرض بحسب اصطلاح هذا العلم اجتماع مادته كلها فى نقطة واحدة وأما البندول الستينى لكونه يتذبذب فى كل دقيقة ستين ذبذبة فتكون له فى كل ثانية ذبذبة واحدة وطول هذا البندول يكون فى عرض خمسين درجة تسعمائة وثلاثة وتسعين جزأ من ألف من متر وثمانية آلاف ومائتين وسبعة وستين جزأ من عشرة الاف جزء فهذا الطول اذا علق بغير هذا العرض من أقسام الارض اختلفت سرعة ذبذبته لان جذب الارض يختلف باختلاف محال سطحها * وهذا مما يستدل به على كروية الارض وبعضهم شاهد فى عرض خمسة أن بعض البنادل يضرب ثوانى فى أزمنة أطول من أزمنة الثوانى التى فى عرض خمسين فاضطر الى تقصيرها بنحو خط وربع حتى استقامت له الذبذبة الستينية ولما احتاج الأمر الى البحث عن سبب هذا الفرق وارتحل لذلك جماعات الى أقاليم عديدة وامتحنوا ذلك ظهر لهم أنهم كلما قربوا من أحد القطبين قصرت مدّة الذبذبة فلزمهم الجزم بأن السبب فى ذلك القرب من مركز الارض وبأن محورها القطبى لكون كرتها مفرطحة من ناحية القطبين أقل طولا بالنسبة للمركز من محورها الاستوائى بالنسبة اليه أيضا وفى الحقيقة المقدار الذى يذبذبه المحور الاستوائى واحد وكسور من ثلاثمائة وثمانية وهو بالفراسخ أربعة وسبعة أعشار تقريبا وبالمتر عشرون ألفا وستمائة وستون من شعاع المحور الاستوائى لان شعاع هذا المحور بالمتر ستة ملايين وثلاثمائة وستة وسبعون ألفا وتسعمائة وأربعة وثمانون وبالفراسخ ألف وأربعمائة وأربعة وثلاثون فرسخا وأربعة أخماس فرسخ وأما شعاع المحور القطبى فهو بالمتر ستة ملايين وثلاثمائة وستة وخمسون ألفا وثلاثمائة وأربعة وعشرون وبالفراسخ ألف وأربعمائة وثلاثون فرسخا وعشر فرسخ وقد جاب جميع كرة الارض مع اختلاف أجزائها طولا وعرضا ماعدا قطبيها كثير من الناس فلم يمكنهم الوصول اليها لكثرة الجليد المانعى لها دائما فوجد من امتحن أحوال البندول من السواحين أن ذبذبته فى جميع الاماكن التى تحت خط الاستواء دائما تكون فى مدد مستوية فلو سار أحد من عرض معين فى جهة المشرق لوجد أن ذبذبة البندول دائما مستوية متى كان خط السير فى بعد واحد عن القطبين وهذا مما يثبت أن سير بعضهم كان فى بعد واحد عن مركز الكرة فان قرب خط السير من أحد القطبين حصل الفرق فى الذبذبة من أى ناحية كان التوجه ولو أن الارض كروية لما كان كذلك بل لو كانت مسطحة لوجد فيها محال يكون تذبذب البندول فيها سريعا جدّا ومحال يكون فيها بطيأ جدّا وهذا لم يشاهد أبدا ويكفى استصحاب بندول واحد لاستيعاب كرة الارض وهذا البندول يكون ساقا من معدن يعلق فيه جسم ثقيل هذا والعوام يتعجبون من استقرار الاجسام على الوجه السفلى من كرة الارض مع كون تلك الاجسام غير مثبتة عليه بشئ مع أنهم لو عرفوا أن كتلة الحيوان صغيرة جدّا بالنسبة لجرم الارض الذى شعاعه المتوسط أعنى الذى فى الخامسة والاربعين من درجات العرض ألف وأربعمائة واثنان وثلاثون

فرسخا أعنى ستين مليونا وثلاثمائة وستة وستين ألفا وسبعمائة وخمسة وأربعين من
المتر عرفوا مقدار عظم جذب الجرم للاجسام ولو كبرت كتلتها مهما كبرت
وما تعجبوا من شئ * وههنا تمت الخاتمة بعد اتمام الباب والله
تعالى أعلم بالصواب ونسأله سبحانه وتعالى أن يحسن
ختامنا ويحسن المآب وأن يدخلنا جنته بفضله
ورحمته من غير حساب ومن غير سابقة
عذاب بجاه سيد الاحباب عليه
الصلاة والسلام من رب
الارباب آمين
والحمد لله
وحده

---

*(تم الجزء الثانى من كشف الاسرار ويليه الجزء الثالث
وأوله ان أبهى روض ابتسمت أزهاره الخ)*